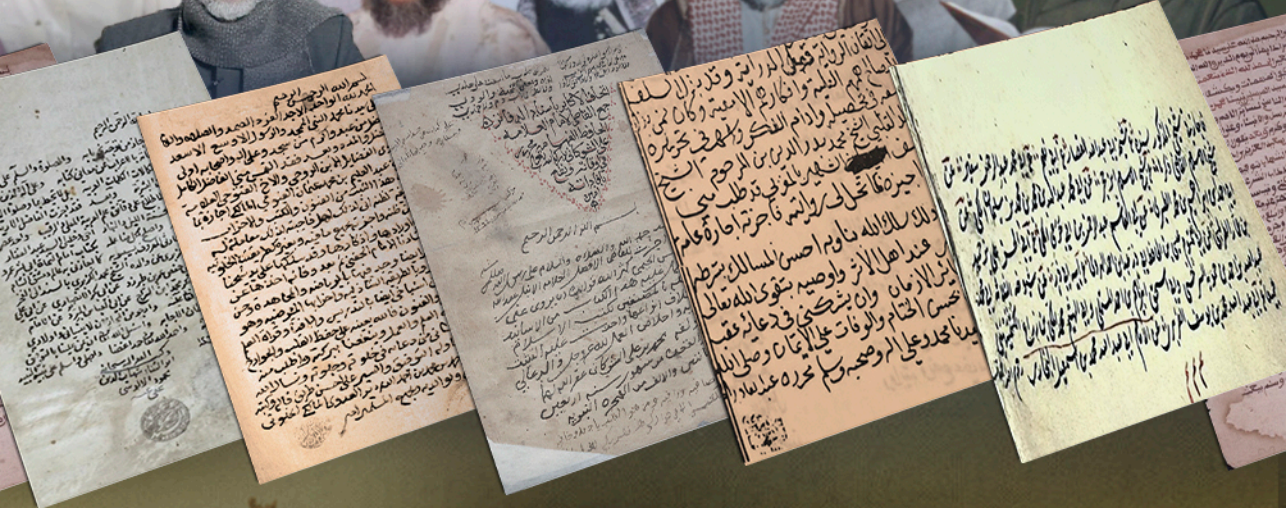


ذِكْرُ بَابِ التَّعَلُّمِ وَأَجَازَاتِ الْعُلَمَاءِ



عَبْدُ الْوَهَّابِ الطَّيْبِيُّ بِآبِ الْخَيْلِ





ذِكْرُ بَيَاتِ التَّعَلُّمِ

وَأَجْزَاؤِ الْعُلَمَاءِ



عَبْدُ الْوَهَّابِ الطَّرِيفِيُّ أَبُو الْحَيْكَلِ



المقدمة

إلى إخواني الذين يطلعون على هذه الرسالة وفقهم الله وباركهم، ونفعهم ونفع بهم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد:

فلما ترحلت بنا الليالي والأيام، وسارت بنا قوافل الزمن، وذهب الجيل الذين أدركناهم، وجاء الجيل الذين أدركونا، وغابت شمس الأكابر الذين كنّا نلقاهم ونتلقى عنهم، ونستضيء بعلمهم وهدْيهم، صرنا نتلقى شدة العلم وطلبته من شباب الأمة المباركة، وكان مما يسأل عنه هؤلاء ذكريات التعلم والتعليم وأطوارها، وعن الأكابر من العلماء الذين سمعوا بهم ولم يروهم، ورأيانهم وتلقينا عنهم، فيسألون عن سمتهم وهدْيهم، وعن طرائقهم في التعليم، ووصاياهم في الطلب.

وكان من سعادة أعمارنا لقيا بقايا ذاك الطراز الأول من العلماء، الذين تعلموا على النمط الصعب، والنمط العتيق، يوم كان التعلم في حلق العلم وعند أعمدة المساجد جثواً على الرُّكَب، وملازمة ومثافنة، وتعلّماً بنظام اليوم الكامل، يجلسون على الحُصُر فتمل الحُصُر ولا يملون، وكانوا يتلقون من الأشياخ علومهم وسمتهم وهدْيهم ونسكهم، فتعلموا العلم والعمل جميعاً، وكانوا امتداداً لأجيال العلماء الأعلام قبلهم، وورثة أئمة الرِّبَّانِيّين وسمتهم ونسكهم.

وليس يضرّك أن لا تكون أدركت ابن حجر إذا كنت لقيت ابن باز، ولا فوات ابن رجب إذا لقيت ابن عثيمين، ولم يفتك البهوتي والحجاوي إذا عرفت عبد الله ابن عقيل.

وقد أدركهم جيلي وقد تضيّفت شمسهم للغروب، فأكرمنا الله بلقائهم وصحبتهم والأخذ عنهم، وسبر حالهم ونمط حياتهم، فقد كان في دروسهم علمٌ، وفي لقائهم بركةٌ، وفي صحبتهم تزكيةٌ، ووالله إن القلب لا يزال يرفّ إليهم، وأطياهم تتراءى لي يقظةً ومناماً، فرحمات الله وبركاته عليهم، فقد كان في حياتهم عبرة، وفي سيرتهم قدوة، وفي تذكّرهم حياة، قال أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم^(١).

كما يسأل بعض النجباء الإجازة عن هؤلاء الأكابر بما رووه وأجازوا به، فإن الصلة بعلم العلماء نسب كالنسب إلى الآباء، ومن مظاهر ذلك الرواية عنهم بالأسانيد المتسلسلة من الأواخر إلى الأوائل، وقد تتابع العلماء جيلاً إثر جيل على العناية بالرواية بالأسانيد، وطلب الإجازة من الأكابر، وإثبات هذه الروايات في إجازاتهم، وكتابتها مفصلة في كتب تسمى: الفهارس والأثبات والبرامج، وكانوا يرون أن الإجازات هي أنساب الكتب، وسمى السيوطي ثبت إجازاته «أنشأ الكُتب في أنساب الكتب».

وبقاؤها في الأزمان المتأخرة له دلالة بتواصل سلسلة رواة العلم وحملته، وعلى نسب العلم الواصل إلى كل جيل ممن قبله، فأسانيد الرواية هي قنوات العلم ومجاريه في تاريخ الأمة.

(١) «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي (٣٣).



وكنْتُ كُتبت إجازةً وجيزةً فيها شيءٌ يسير من ذلك أنسخها لمن طلبها، ثم لما تابعت طلبات الإخوة والأبناء رأيت طباعتها مع شيء من البسط حتى يكون فيها مع الإجازة إفادة، وليستفيد منها القارئ المستجيز وغيره، فذكرت فيها مسيرة التعلُّم الشرعي التي أدركتها، وأطوارها وأحوال المتعلمين فيها، ثم ذكرت سير بعض الأكابر من أهل العلم من شيوخ التلقي وشيوخ الإجازة الذين لقيتهم وأفدت منهم، وبعض طرائقهم في التعليم، ثم سردتُ بعض الوصايا في طريق الطلب مما جربته في مسيرتي أو سبرته من أحوال غيري، وكثير منها تمنيت أنه قيل لي في بدوات العمر فأتجنب بمعرفته كثيراً من عثار الطريق، وذكرتُ بعض وصايا العلماء، وبرامجهم اليومية التي هي وعاء إنجازهم وعطائهم.

ثم تحدّثت عن الإجازات وسُنَّة أهل العلم فيها، ثم ختمتها بمسرد موجز للإجازات التي حصلت عليها والتي أجز بها، لعلّي بذلك أؤدي بعض حق مشايخي الذين لقيتهم واستفدت منهم، وليتواصل أثرهم وذكرهم والدعاء لهم.

سائلاً الله أن يرزقنا جميعاً الإخلاص في القصد، والصدق في القول، والصلاح في العمل، وأن يتولانا بما تولى به الصالحين من عباده، والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

البرازيل، ساو باولو

١٨ جمادى الثانية ١٤٤٧ هـ





أولاً ذكریات التعلّم



التصحر العلمي

أدرك وعيي غبش الظلمة التي كانت متاهةً للجيل قبلنا، حين خَفَت صوت الدعوة والدعاة، وتراجع دور العلم والعلماء، وقَلَّ الإقبال على طلب العلم، وكانت عواصف تيارات التغريب وأفكار التمرد على الثوابت تعصف في كثير من أرجاء الوطن العربي، وكان للشيوعية والبعثية والقومية رُسُلُها وكهنتُها في كل وطن، وبلغت الجرأة على الدين أن ينشر إسماعيل أدهم مقالاته «لماذا أنا ملحد؟»، والقصيمي كتابه «هذي هي الأغلال»، وأن تنشر مجلة الجيش السوري مقالة فيها «إن الله والدين والتقاليد ليست إلا دُمى محنطة في متحف التاريخ».

وصارت النظرة إلى الدين وعلمائه نظرة ازدراءٍ واستخفاف، حتى ليكاد يَظُنّ الظانُّ أنه لم يَبَقَ من الدين إلا ذُبالةٌ توشك على الانطفاء، وحدثني الأستاذ محمد قطب عن تلك الفترة في مصر وكيف أن الجرأة على الدين انتقلت إلى بيوت المشايخ، فكان بعض المتمردين هم أبناء المشايخ، وأنه دخل في حوار مع بعض الشيوعيين فلما استمروا في الحوار وفوجئوا بمنطقه وثقافته قالوا له: «إنت خُسارة في الإسلام». يعني أن ثقافتك ليس محلها حالتك الدينية.

وكان ممّن واجه هذا الإعصار وتصدى له الشيخ مصطفى صبري، والشيخ الخضر حسين، والشيخ محمد الغزالي، والأستاذ محمد قطب، والشيخ مصطفى السباعي، والأستاذ محمد أحمد باشميل وغيرهم.

وكان لهذه النزغات صداها في بلادنا، ولهذه الدعوات الوافدة من بعثية وشيوعية وقومية دعائها ومروّجوها، ومع أنها كانت مختلفة ومتنافرة، لكنها متفقة على ازدراء الدين وأهله حتى كأنه العدو المشترك لهم جميعاً. وصوّر هذه المرحلة من داخلها د. تركي الحمد في روايته العدامة، ووصفها من خارجها شيخنا أبو عبد الرحمن بن عقيل في تباريحه وبعض مقالاته.

ولعل من أسباب ذلك الانفتاح الفجائي عن طريق الإذاعات، وسهولة التواصل مع محاضن هذه التيارات، فصارت هذه الأفكار تصل إلينا مباشرة من مصر وسورية والعراق.

وكان يوازي ذلك إعراض عن مظاهر التدين وازدراء للمتدينين، وكان مما ساعد على ذلك أن بعض الشخصيات العلمية الشرعية لم تكن مُقنعة لهؤلاء الشباب، فما ظنك بمن يعيش الصدمة الحضارية وحالة الانبهار بالحضارة الغربية، ثم يسمع أن من هؤلاء العلماء من يُنكر دوران الأرض، ويحرّم تعلّم اللغة الإنجليزية، فيُحدّث له ذلك نفرةً عنهم، وعن التدين بعامّة.

وكانت مظاهر عدم التدين تظهر في انقطاع كثير من الشباب عن المساجد وعدم شهودهم الصلوات، ومن لم يكن يصلي في المسجد فهو لا يصلي غالباً في بيته لقرب المساجد من البيوت، وربما كان لبعضهم موقف من الدين بالجملة.



وكان من مظاهر ذلك على المستوى العلمي إقفار المساجد من حلق العلم، ولا أذكر في تلك المرحلة أنني سمعت بدرسٍ لعالمٍ يُقصد، وإنما كانت هناك بقايا قليلة من مجالس القراءة على بعض الشيوخ، يجلس إليهم فيها شيوخٌ مثلهم وهم أقرب إلى العوام منهم إلى طلبة العلم، وهي قراءة بركة وذكرٍ لله، وليست حلقَ تعلّم وتعليم، وكانت الحالة العامة جفافاً علمياً يصل حدّ التصحّر.

ولصغر سني في تلك الفترة لم يكن لدي إدراكٌ للآراء والحركات والأحزاب التي عُرف تاريخها بعد ذلك.

وكل ما يعيه إدراكي المظاهرُ التي وصفتها من هجر المساجد وترك الصلوات، وندرة مجالس العلم وحلق التعليم.

أما الصحوة فيبدو أنها نمت على مراحل، وربما كانت هزيمة حزيران سنة سبع وستين مرحلة، وخروج الجماعات الدينية من السجون في مصر واستئناف نشاطها مرحلة أخرى، ثم كانت حرب رمضان (٦ أكتوبر) مرحلة دافعة وبقوة، وهذه هي المرحلة التي وعيتها.

ومما ينبغي ملاحظته أن الصحوة في السعودية لم تكن تحولاً من حال إلى حال كما كان في كثير من البلاد الإسلامية التي حصل فيها انقطاع عن الدين وتجاهر بمخالفة الدين، وإعلان التمرد عليه، وهجر شعاره وشعائره، ثم جاءت الصحوة فيها بعد ذلك عوداً حميداً.

أما في السعودية فقد كان الدين له السيادة في كل المراحل، وبخاصة مع دعوة الملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ إلى التضامن الإسلامي، وكان التجاوب مع تيارات اليسار والقومية إما تعاطفاً وجدانياً أو حركات خفية خافتة تتحرك في الظلام.



فالصحوة هنا كانت رُشداً في الدين ووعياً به أكثر منها عودة إلى الدين.

وتجلت مظاهرها في انجفال الشباب إلى المساجد، وظهور المناشط الدعوية، والمحاضن التربوية والتفاعل مع قضايا الأمة إسلامياً، وكان من مظاهرها المشهودة انتشار حلق العلم، ودروس العلماء، وتداول الكتب الشرعية، واشتجار العلماء في الداخل والخارج.

ومن أوضح وأصرح من تكلم عن هذا التحول الاجتماعي ورصده بوعي ومعاشة شيخنا العلامة الأديب أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري أمتع الله بحياته، فهو المخضرم الذي أدرك حلوك الحياة الثقافية وظلمتها، وعاشها وشارك مثقفها ثقافتهم، وأدبها أدبهم، وفنائها فنهم.

ثم أدرك في سن الأشد من عمره وعي الالتزام وصحو الصحوة، وكتب عنها كتابات منصفة بأسلوبه العذب، وأدبه الرفيع في كتابه: «تباريح التباريح» و«شيء من التباريح» ومقالاته في الصحف.

ومما قاله حفظه الله:

«ولقد أكرمني ربي بأن رأيتُ بعد بلوغ الأشدَّ شباباً من أبناء بلدي، تحقَّقت لهم دعوة المصطفى ﷺ ببهاء وتوهُّج أراه في وجوههم الكريمة العريضة المُلْتَحِية.

وقيَّض الله للأمة قبيل القرن الخامس عشر بعقود رجالاً مهَّدوا للصحوة لجيل الالتزام، كان دأبهم تحرير العقل من الانهزام للغرب فكرياً وروحياً، مؤكدين للناس أن المستقبل للإسلام.

واعترافاً بالحق أقول: مهما أُحصيت المؤاخذات على قلة من المنتسبين للصحوة، فلا يعدُّ ذلك شيئاً في بحر حسناتهم.



لقد كان الناس قبل جيل الالتزام - لا سيما عامة الشباب - قلّمَا رَأَوْا الفجر الصادق والكاذب، وقلّمَا استمتعوا بطلوع الشمس، أما الآن، فقد ارتبطتْ يقظتُهُم بالأسحار. فشبابُ اليوم الذين لم ينتصفوا في العقد الثالث، وهم يحفظون القرآن، وأحاديث الأحكام...، هم الآن مشايخ، وأملأُ بها فمك...

وقبل جيل الالتزام كان المذيع العربي، والمجلة العربية، والكتاب العربي يقذفُ بالشبهات والتشكيك في الدين والتاريخ... فجاء جيل الالتزام وحَوَّلَ الإيمان بالدين إلى عمل... وآثرتُ التعبير بجيل الالتزام بدل جيل الصحوة؛ لأن رقعتنا - حتى على مستوى العوام - لم تفقدِ الوعي بأحكام دينها.

وتبدّلت الخنافس وشعيرات كالجعلان تحت الأنف وعراجين ضاحية نضبت فيها ثغرة الميلاد... تحوَّلت كل تلك إلى لِحَى عريضة، وشوارب مخبئة، وثغرات سجود. ففداء لجيل الالتزام ألف ألف هفوة، وقد أخرجونا من حريق العفن إلى نعيم العمل. وكنت امرأً لولا الله - ثم وعيي بجيل الالتزام - لأصبحتُ من اللاهين إلا ما شاء ربك، والله المستعصم فيما بقي»^(١).



(١) من مقالة مائعة رائعة لشيخنا في كتابه «من أحكام الديانة».



أطوار علمية

تفتّح وعیناً في المرحلة الأولى من الصحوة وكان الرواج لما يُسمّى بكتب الفكر الإسلامي، وبعضهم يسميها: كتب الثقافة الإسلامية، ويقصد بها كتب الدعاة المعاصرين التي تعنى برد الشبه حول الإسلام، وتأكيد صلاحيته لكل عصر، وشموليته لقضايا الحياة ونحو ذلك.

ككتب المودودي والغزالي وسيد قطب ومحمد قطب وبعض كتب أبي الحسن الندوي، ومالك بن نبي ونحوها.

ولم تكن الكتب العلمية المتخصصة للعلماء الراسخين سلفاً وخلفاً هي المتداولة حينها إلا في البيئات العلمية الضيقة.

أما المحاضن التربوية فلم تكن تعنى بذلك، وربما كان السبب في ذلك أن هذه الكتب تعالج حالة الإعراض عن الدين، والرد على المتجرئين عليه حين كانت ظاهرة التدين توصف بالرجعية والتخلف.



فكانت المواجهة لهذا الإضلال بهذه الكتابات ونحوها عملاً صحيحاً وجهداً مباركاً، وحقق أهدافه وآتى أكله، ولكن الخطأ كان في تطبيق بعضهم لهذه المنهجية بازدراء التوجه العلمي، وتسمية كتب العلم وحلق التعليم بدروس الحيض والنفاس، وتقسيم الدين إلى قشر ولباب ليكون ما هو محل عنايتهم هو اللباب وما يعنى به غيرهم هو القشور، وكنا نسمع من يقول: أنتم تتكلمون في هذه الأحكام والشباب ألدوا وتزندقوا، أنتم كمن يداوي الجرح والرأس مقطوع، ونحو ذلك وكان الأولى أن يسير الجهد متوازياً، ويتوجه كل إلى حيث قناعته وموهبته، وكنت ممن سار في هذا الاتجاه العلمي وكان سار فيه قبلي جمع من لداتي اختاروا هذا التوجه وسلكوه فكانوا رأس القاطرة بالنسبة لنا، ومنهم الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، والشيخ سعد الحميد، والشيخ عبد الله الدويش رَحِمَهُ اللهُ وغيرهم، ولذا لما دخلت في جمعية التوعية الإسلامية في المدرسة الثانوية كان السائد بين شبابها هو التوجه الفكري الثقافي، وكنت بالتوجه العلمي نشازاً بينهم فلم نأتلف وسار كل في طريق هو الأنسب له، وفي كل خير.

ثم سرعان ما فشا بعد ذلك التوجه إلى العلم الشرعي وكان في مجمله توجهها حديثياً حيث انتشر التصحيح والتضعيف، والسؤال عن درجة الأحاديث صحة وضعفاً، وممن ينبغي أن يذكر أثره في ذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، فقد أعلى راية النقد الحديثي، وسهله وجعله ثقافة شعبية، ولذا صار العامة وطلبة العلم المبتدئون يتكلمون في الأحاديث بطريقة ينقصها أحياناً العمق والتأصيل، وصارت كتب الشيخ الألباني تطير في أيدي الشباب كأنها شيكات، وأثر ذلك في الجو العام فصار الكتّاب والمتحدثون يراعون ذلك، ويحرصون على معرفة صحة الحديث وضعفه قبل الاستشهاد به.

وكان لهذا التوجه سلبات مصاحبة في التطبيق، من أهمها: الإغراق في الجزئيات، وتحويل المسائل الفرعية إلى مسائل أصلية يكثر فيها الجدل والأخذ والرد،



وفشو مدرسة أتباع الدليل والتي كانت تظهر الازدراء بالفقه المذهبي، وهي في الغالب تسير على نهج مذهبي آخر وهو المذهب الظاهري، وتُسَوِّقه بدعوى نبذ التقليد واتباع الدليل، وإنما هو اتباع لمنهج معين في فهم الدليل وطريقة التدليل، وهذا الفقه ربما أسعف في مسائل العبادات ولكنه لا يسعف في مسائل المعاملات والأقضية وغيرها من أبواب الفقه التي يحتاج الترجيح فيها إلى فقاهاة وأصول وتأصيل، ولذا فأكثر ما يكون الجدل بينهم في مسائل معينة من مسائل الطهارة والصلاة ثم لا تتجاوز ذلك.

ومن سلبياتها أنها أخذت مع علم الألباني طبيعته النفسية في حدة الردود والشدة مع المخالفين، وهذا إن كان مغموراً في فضائل الشيخ فإنه لا يليق بشباب مبتدئ لم يقرأ من العلم إلا كتابين لم يكمل الثاني منهما^(١)، وقد عالج الشيخ بكر هذه الظاهرة بشدة مضادة في كتابه «العلم».

ومما انتشر في هذه الفترة وشغلنا وأربكنا ما يمكن أن نسميه الهيئات العلمية، حيث تأخذ مسألة من مسائل العلم حجماً أكبر من حجمها الطبيعي، وتنتقل من حوار المتخصصين إلى أن تكون سجالات عامة، وامتحاناً للآراء فيها، ومن ذلك مسألة التكفير بالحكم بغير ما أنزل الله، والعتذر بالجهل، وحجاب وجه المرأة، وحكم التمثيل والأنشيد، وهل وسائل الدعوة توقيفية؟ وهل الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة، ونحو ذلك.

ثم إذا تجاوزها الوقت خمدت وعادت إلى حجمها ومكانها الطبيعي بحثاً للمتخصصين فيها، وكان مما أخذت نفسي به عدم الدخول في هذه المسائل حينما تكون هيئات وامتحاناً.

(١) من تعبيرات الأستاذ الهدلق.



ثم تكاملت المسيرة العلمية وصارت أكثر رشداً ونضجاً، وصار الجيل الجديد يملك ذخيرة من التجارب الراشدة تجاوز فيها التذبذبات السابقة، ولقد لحظت ذلك في مرحلة التدريس الجامعي فكان من الطلاب الذين على مقاعد الطلب من هم في نضج المدرسين وقد يفوقونهم، وصار التحصيل العلمي أكثر تأصيلاً وتكاملاً.

واليوم أرى التوجه إلى الدراسات العقديّة والمقاصدية في المقدمة اهتماماً واعتناء. وصارت الدراسات المطروحة أكثر جدة وجديّة، وارتفع مستوى المتلقي فصار أكثر انتقاءً وتمييزاً.

وتراجع كثير من الجدل المستعر في قضايا معينة في الماضي إلى موقعه الطبيعي، فاختلفت كتب التخريج المركومة بأرقام المجلدات والصفحات، والمحشوة بكثير من التشقيقات التي ليست من متين العلم ولكنها من باب: ألهاكم التكاثر، وقلّت كتب الردود والمباحكات، وذهبت كتب امتحان العباد في مسائل الاعتقاد، مثل مسألة جنس العمل، والعتذر بالجهل، وسجل الحاكمية، وغيرها وأخذت هذه المسائل وغيرها حجمها ومكانها الحقيقي لتكون محل بحث لدى المتخصصين في سياقها ومكانها الطبيعي.

وظهرت العناية بفقه الحياة كفقه الأولويات، والموازنات، والمصالح والمفاسد، وأحوال الأقليات، وغير ذلك.

واتسع الأفق العلمي فما عاد المتخصص في العلم الشرعي عامياً فيما سواه، بل له مشاركة فيما هو من شأن الثقافة العامة، ومشهور العلم الذي لا يحسن جهله.

وهو تطور معرفي فاتنا أن ندركه، وسعد به الجيل الجديد فهنيئاً لهم وقرة عين^(١).

(١) باختصار من «سما الذكرة» (٢٢٠ - ٢٢٤).



في حلق العلم^(١)

أدركت القراءة على الطريقة النجدية وهي طريقة الإمرار، وكانت القراءة على الشيخ عبد العزيز ابن مرشد رَحْمَةُ اللَّهِ، وكنا نشاهدها ونحن صغار، وكانت القراءة على الطريقة التي سميت فيما بعد: «سم بركة». لأن الشيخ يبدأ الدرس بقوله للقارئ: «سَمَّ» ويختمها بقوله: «بركة»، إشارة إلى انتهاء القراءة، وكان الحضور من كبار السن من محبي العلم وليسوا من أهله، والقراءة فيها في كتب مطولة، ككتب التفسير أو السيرة أو كتب ابن القيم وابن رجب ونحوها، وهذه المجالس فيها بركة مجالس الذكر، والتواصي بالخير، وإن لم تكن تؤسس علماً متيناً، لكنها تربّي هدياً وخلقاً، وسمتاً ونسكاً، وكان لها أثرها فيمن يحضرونها، وهي قراءة بركة وإمرار من غير تقرير ولا تعليق، وإنما تصحيح وكلام قليل مبارك.

وبدأت علاقتي بحلق العلم حضوراً واستماعاً في مرحلة مبكرة بالنسبة لأقراني، فقد بدأت في المرحلة المتوسطة حيث كان أبي يأخذني لنصلي العصر في الجامع الكبير ونحضر بعده درس الشيخ ابن باز في «صحيح البخاري»،

(١) باختصار من «سما الذكرة» (٣٠١).



والقارئ عليه الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن باز، أتذكر الحضور القليل وكلهم من كبار السن، ولم يكن فيهم أحد من أقراني، وأتذكر الحديث الذي قرأه وهو حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»، وأتذكر شرح الشيخ بنغمته المميزة.

فعلمنا أن للشيخ جلسة علم في الضحى، فلما كان الغد أخذني أبي وذهبنا إلى بيت الشيخ وجلسنا في مجلسه، وكانت جلسة إفتاء وقضاء حوائج، ورأيت فيها عطاء الشيخ وقيامه بأمر الناس، وارتسم المشهد في ذهني، فلما عدنا سألت أبي ونحن في الطريق عن حال الشيخ هذه، وما تأخذ من جهده ووقته، وكنا نسير متحاذيين فلما سألته هذا السؤال استدار أمامي حتى استقبلني وهو يقول: كيف لا يكون كذلك وهو يحتسب عند الله حديث: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»، وألقاها بطريقة مؤثرة حتى إنني أتذكر المشهد والمكان والزمان، وأشعر أن نفسي تشربت هذا المعنى، وأنه بذلك ألقى البوصلة في يدي، وتحدد بذلك طريقي واتجاه سيرتي.

ثم كنت مستمعاً لدروس الشيخ عبد الله بن غديان وكان إمام مسجدنا وله درس مطول بعد صلاة العصر، ودرس قبل صلاة العشاء في كتاب: «منتقى الأخبار» وكان يفضل على غيره من كتب أحاديث الأحكام.

وأما القراءة على المشايخ في المساجد على النمط العتيق فقد بدأت بها في السنة الأولى الثانوية عام (١٣٩٥هـ)، وكان أول درس بدأته على الشيخ عبد العزيز آل الشيخ في كتاب «عمدة الأحكام» مع شرحه «تيسير العلام»، وكنت في السادسة عشرة من عمري، وكان الشيخ في الثالثة والثلاثين، وتحولت التلمذة على الشيخ إلى ألفة وصُحبة وخُلفة، وممن كان يشاركني القراءة عليه الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم وكان يقرأ على الشيخ في فتاوى ابن تيمية بعد العصر، وفي «فتح الباري» بعد المغرب،



و كنت مستفيداً مما أسمع ومما أقرأ، وكان للشيخ استظهار لكلام ابن تيمية واختياراته، وإعجاب مفرط بعلم شيخ الإسلام وسيرته.

ثم طلبت إلى الشيخ عبد الله بن جبرين القراءة عليه وأنا في السابعة عشرة فكان الدرس عليه بعد صلاة الفجر يحضر معي عنده الأخ أحمد السناني، في شرح الطحاوية، والأخ عبد الله خيرات اليمني.

ثم تحول الدرس إلى بعد العشاء ويشاركني فيه الشيخ عبد المجيد الريمي رَحِمَهُ اللهُ، ثم تحول إلى ما بعد صلاة العصر يشاركني فيه العم ناصر البصري رَحِمَهُ اللهُ، وشيخ من المجالسين نسيت اسمه، وكانوا يقرؤون قراءة للبركة والمحبة وقد كبروا ولهم أعمالهم وأشغالهم ولذا يبدأون قبلي ثم يذهبون إلى أعمالهم وأبقى في الدرس الأخير أنا والشيخ وحدنا، ومع ذلك يشرح لي وكأنه في قاعة محاضرات، ويتدفق وكأنه شلالات نياجرا.

أما الشيخ عبد الله بن غديان فقد طلبت منه أن أقرأ عليه فلم يستجب لي، وشعرت منه أنه يراني دون ذلك، وكان مصيباً في رأيه ذلك، فما كنت على مستوى طرحه الأصولي ولا نمطه العلمي، فقد كان الشيخ طفرة في البناء العلمي التقليدي، وكان توجهه للأصول والمنطق خلاف المسار السائد في وقته، ولم يكن أصولياً تقليدياً ولكن كان فارساً له نظره واجتهاده الخاص.

ومع أنه اعتذر عن القراءة عليه لكنه وجهني بنصيحة علمية ثمينة ما زلت ألقبها على أبنائي ومن ألتقيهم من طلبة العلم في بداية طريقهم، وهي العناية في البدايات بالتأصيل والتعمق، وأن التوسع لا يكون إلا بعد التأسيس وبناء القاعدة المحكمة.

ثم صرت أحضر دروس الشيخ ابن باز مستمعاً، وكانت بعد الفجر أربعة أيام في الأسبوع، وكانت في بداياتها حلقة واحدة غير واسعة، وذلك عام (١٤٠٠هـ) وما بعده،



وما زالت تتسع حتى صارت الحلقة حلقات، والحضور بالمئات، وصرنا إذا حضرنا لصلاة الفجر وجدنا الكتب منشورة على أرض المسجد يحجز بها أصحابها مجالسهم، ثم طلبت من الشيخ أن أقرأ عليه في «صحيح ابن حبان» فقرأت عليه قرابة جزء من أوله.

ولم أكن من خاصة الشيخ أو طلابه الملازمين، وكان أكثر طلابه ملازمة له واستفادة منه الشيخ عبد العزيز الراجحي، والشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، والشيخ عبد الله بن مانع، والشيخ فهد السنيدي، والشيخ علي المري، ود. صالح العقيل، ود. عبد العزيز المشعل رحمه الله وغيرهم.

وحضرت دروس الشيخ عبد الله بن حميد في مسجد حينا في «الروض المربع» وبعض كتب أئمة الدعوة، ولدروسه رحمه الله رونق وجاذبية، وطريقته في الشرح مرتبة، ومعلوماته منظمة، وتنسيقه فيها بديع، فقد كان الشيخ شيخ المذهب في وقته.

وقد كان علماء نجد في مجملهم على سنن واحد، ومستوى متقارب، وكان تمكنهم في العقيدة وبخاصة توحيد العبادة، والفقه على مذهب الإمام أحمد، وكان الشيخ عبد الرحمن بن سعدي طفرة فقهية في خروجه عن المذهب وتنوع اختياراته، والشيخ ابن باز طفرة حديثة في عنايته بكتب السنة وتصحيح الحديث، والشيخ عبد الله بن غديان طفرة أصولية لرسوخه في الأصول والمنطق، والشيخ بكر أبو زيد طفرة بلاغية في أسلوبه الأدبي المتميز، مع اشتراكهم جميعاً في بقية العلوم.

ثم تعرفت على علماء أهل فضل ورسوخ من خارج محيط النشأة والتلقي من علماء الأمصار، من الحجاز، والشام، والمغرب، ومصر، واليمن وغيرها، فجلست إليهم وذاكرتهم وشامت علمهم، ففتحت لي بمعرفتهم آفاق أخرى، وكانوا في مجملهم أصحاب إفادات علمية، ومنهجية تربوية، ومنهم الشيخ د. أحمد معبد،



والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد الله بن بية، والشيخ عمر بن حامد الجيلاني، والشيخ محمد سالم عدود، والشيخ جعفر شيخ إدريس، والشيخ مصطفى البحياوي، والشيخ محمد أمين سراج وغيرهم.

وفي لقاء العلماء من مدارس متعددة إفادة وإضافة، وتهذيب للشطط الذي يتكوّن من أحادية التلقي، وتصورٌ للأراء الأخرى ممن هو مقتنع بها، فتأخذ وجهة النظر من أكثر من زاوية.

وهذا ما أفدته من لقائهم، فقد تعلمت منهم سماً وهدياً، وعرفت منزعهم فيما يخالفون فيه ووجه قناعتهم، وسماع الحجة في مقام الاستدلال بها غير سماعها في معرض الرد عليها، فخفف عندي ذاك الحسم الذي كنت آخذ به في بعض المسائل المختلف فيها، ووضعت كثيراً من مسائل الخلاف في حجمها الطبيعي، وفتحت في تفكيري نوافذ كانت مغلقة، وأبواباً كانت موصدة.

وهذه الإفادات إنما يلقاها طالب العلم إذا كان يلقي هؤلاء الأعلام ليستفيد منهم ويحفظ لهم أقدارهم، لا أن يذهب إليهم مناظراً لهم، مستعلياً بما عنده على ما عندهم، فلن يرجع حينئذ إلا خائباً ممقوتاً.

ثم انتشرت الدروس العلمية، وكان أقلها فائدة تلك الدروس الطوال التي تستمر لعشرين سنة وهي لم تتجاوز كتاب الصلاة، ولا أدري ماذا سيستفيد طالب من درسٍ يدخله وهو طالب ويتخرج منه بعد أن يحال إلى التقاعد.

ثم تطورت الدروس إلى دورات مكثفة يعلم الشيخ والطالب متى تبدأ ومتى تنتهي وما سيشرح فيها، وهذه كانت أكثر تأصيلاً واختصاراً وإفادة، وهي ما أعتقد أنه المناسب الآن لطلبة العلم والأفيد لهم.

أیام الجامعة

دخلت كلية الشريعة عام (١٤٠٠هـ) وفي هذه الكلية أدركت البقية الباقية من علماء الأزهر الذين تلقوا العلم فيه على النمط القديم المؤصل قبل أن يتحول الأزهر إلى جامعة على النمط الهجين المطور.

وكان من هؤلاء الكبار الشيخ أحمد كُحیل، والشيخ أحمد شباط، والشيخ الأحول وكل هؤلاء نحويون، ولقيت فيها الشيخ عبد الغني عبد الخالق وكان أصولي الزمن ورأيت حفاوة علماء الجامعة به وإجلالهم له، والشيخ عبد الخالق عزيمة الأصم نحوي الزمان، وغيرهم.

وأول ما تفاجأت به حين دخول الجامعة انطفاء الهيئة التي كانت في نفسي من الدراسة الجامعية، فقد كنت متهيأاً محتشداً أظن أن ابن قدامة سيدرسنا الفقه، وابن حجر سيدرسنا الحديث، وابن تيمية سيدرسنا العقيدة، وابن جرير سيدرسنا التفسير، فلما دخلت السنة الأولى وجدت الأمر أقرب من ذلك بكثير، ووجدتني مقاربا بقية زملائي، ودخل علينا المدرسون وإذا هم طبقات بعضها فوق بعض، فمنهم أولو الرسوخ العلمي، والتبحر المعرفي كالشيخ عبد الله بن جبرين، والدكتور طه جابر العلواني،

وفيهم دون ذلك، ومنهم من هو أشبه بمدّرسي الكُتّاب لا يستعدون بتحضير للدرس، ولا يفيدون عند سؤال، وخير ما يصرف فيه وقت دروسهم ذكر الله وما والاّه.

وفي السنة الثانية من كلية الشريعة درّسنا مادة الحديث الشيخ أحمد معبد عبد الكريم، وكان شاباً حديث عهد بتخرج ولكنه كان عالماً نحريّاً، فأثّرت طريقة تدريسه فيّ حتى استهواني لعلم الحديث، وقادني بسلك من حرير فأخرجني من رواق الحنابلة إلى إيوان المحدثين.

وكان ممن درّسنا الشيخ عبد العزيز الداود رَحِمَهُ اللهُ، وكان عالماً ربانياً متألّها استفدنا من حاله أكثر من مقاله، وما زال حاله واعظاً لقلوبنا، ولا أحسبه إلا من أولياء الله وأهل معرفته.

وفي الجامعة كانت فرصة الصّحبة بأقران مميزين منهم الأخ الشيخ د. عبد الرحمن السديس، والأخ الشيخ د. عيسى السعدي، والأخ الشيخ د. عبد العزيز بن عبد الرحمن المشعل، والأخ الشيخ د. حسين العبيدي، والشيخ د. عبد العزيز الدهش والأخ الشيخ عبد المجيد العواجي، وغيرهم ممن سعدت بهم وأفدت منهم.

وكان هناك طلبة متميزون جداً صحبتهم في مرحلة الطلب الدراسي وكانوا شعلاً ملتهبة من الذكاء يبشر تفوقهم بمستقبل خارق، ولكن انطفأوا وغابوا في زحام الحياة، ليتني أسمعهم لو صرخت بأعلى صوتي: أين أنتم؟ ما صنع الله بكم؟

وكم تمنيت أني في أيام الجامعة كررت قراءة الصحيحين، ومختصر تفسير ابن كثير، وأتقنت مختصراً ميسراً في الأصول، ومختصراً ميسراً في مقاصد الشريعة، قراءة تحصيل وتأصيل، إذا لصحبني نفعها بقية عمري، وكانت أفضل من ذاك الشتات المعرفي الذي ضللت في متاهته، وقد كان يمكن اللحاق به من بعد.

ولقد تداركت منها بعض ما يمكن تداركه، وفاتني الوقت الذهبي لتحصيل بقيتها.

الدراسات العليا

في مرحلة الدراسات العليا تلقينا عن شيخنا المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمته الله، وكان لي به خصوصية ومعرفة سابقة، وقراءة لتحقيقاته الباذخة خصوصا: «رسالة المسترشدين»، و«الأجوبة الفاضلة»، و«الرفع والتكميل»، وكتبه البديعة وبخاصة: «صفحات من صبر العلماء»، وفي هذه السنة درّسنا مادة مصطلح الحديث، وقرأ علينا مقدمة ابن الصلاح، ومقدمة صحيح الإمام مسلم، وكانت طريقته القراءة في الكتاب والتعليق عليه، وله في هذا رؤية ومقصد، وهو الربط بكتب المتقدمين، واعتياد أسلوبهم، ومعرفة مظان مباحثهم، ولعل هذا من أسباب إلحاق بحوثه وتحقيقاته في الكتب التي يحققها ثم يوشّيها ببحوثه وإضافاته الفائقة.

وفي هذه السنة كان لقائي الثاني بالشيخ أحمد معبد في مادة التخرّيج، وكان في مادته متمكناً أمكن، فما يستطيع الطلاب أن يتسوروا اقتداره العلمي إلا بجدل يشبه حرب العصابات، ولكن الشيخ كان يحتوي جدل الطالب بأن يقطع طريق الجدل، فإذا أجاب عليه بالرد العلمي ختمه بقوله للطالب: ويبقى لما قلته وجه معتبر، حتى يقطع على الطالب التعليق بـ«لكن» وما بعدها.

كما كان لدى الشيخ مع تمكنه العلمي الروح المصرية السمحة، والدعابة التي تسيل في كلامه لا يتقصدها ولا يتكلفها.

وكان ممن درّسنا فيها الشيخ عبد الوهاب البحيري، وهو شيخ لوالدي في معهد القضاء العالي، وشيخ لشيخ محمد أمين سراج حين دراسته في الأزهر، فهو ملحق الأواخر بالأوائل، ولكنه حين درّسنا كان قد كبر وضعف ووهن جهده، فكانت استفادتنا منه أقل، ولكن بقي معه سمت العلماء وهديبهم، وبركة كلامهم، فكان **رَحْمَةُ اللَّهِ** صلّتنا بجيله المبارك.

وكذا درّسنا فيها الشيخ محمد أديب الصالح، وهو من ذوي السّابقة في العمل الدعوي في سورية، وصاحب الكتاب الشهير «تفسير النصوص في الفقه الإسلامي»، ودرّسنا مادة «الحديث الموضوعي»، وهي مما استفدت منه في كتابات السيرة بعد ذلك.

وعندما انتهت سنة الدراسة العليا وبقي تسجيل رسالة الماجستير هممت بالتسجيل في موسوعة تحقيق كتاب «الكامل في الضعفاء» لابن عدي، واستشرت أخي وشيخي الشيخ صالح آل الشيخ فنهاني عن ذلك، وقال: هذه بدايتك مع البحث المتعمق ولا يصلح أن تكون هذه البداية مع الأحاديث الضعيفة التي يمتلئ بها هذا الكتاب.

وكانت مشورة حسيّفة حكيمة اتبعتها فوراً، فسجلت في كتاب تحقيق «مسند أبي داود الطيالسي»، وأحاديثه صحيحة في مجملها، واستفدت من هذه النصيحة الوصاة لكل إخوتي من طلبة العلم أن يكون تحصيلهم في بداية تكوينهم العلمي صحاح الأحاديث، و يقينيات العلم، وأمّهات المسائل، فإنها التي تبقى معه بقية عمره، ثم يرد إليها ما يكسبه بعد من أشتات العلم، وأنواع المعارف.



وكان المشرف عليّ في رسالة الماجستير هو شيخنا د. أحمد معبد الذي كان يعطي الطالب حقّه تعليمًا ومراجعةً وتصحيحًا.

أما في مرحلة الدكتوراه فقد كانت بمشورة حسنة من أخي د. الحسين شواط، وكان قد حقق جزءاً من «إكمال المعلم» للقاضي عياض، وأشار عليّ بكتاب أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي المتوفى سنة (٦٥٦هـ)، ودراسة كتابه «المفهم في حل ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، وقد وجدته سبيلاً ذُلّلاً، وجادة مطروقة، فهو قد استبطن كتاب القاضي عياض، فأفدت فائدة عظيمة من قراءة كتاب واسع في شرح أحاديث صحيح مسلم ودراسته بتمامه، ووجدت ثمار ذلك ذخيرة لا زلت أستصحبها. وصرت أنصح الطلاب بأهمية دراسة الكتب الموسوعية في أطروحاتهم وبخاصة الماجستير، لأنها تقدم له من خلال دراستها استعراضاً أفاقاً لأبواب العلم في تخصصه، فالبحث في كتب الشروح الفقهية أو الحديثية أو التفاسير ستحمل الطالب على القراءة المتأنية الباحثة في كتاب واسع يبحر في عبابه عابراً أبواب الفن الذي يتخصص فيه.





ثانياً من شيوخ التلقي



من شيوخ التلقي

سأذكر في هذا الفصل أعظم شيوخ حاضري حضوراً في حياتي، وتأثيراً في مسيرتي، وهم الأشياخ الذين تلقيت عنهم مخالطةً ومجالسةً وحضوراً على النمط العتيق، وأشعر لهؤلاء بأبوة خاصة وتأثير عميق في وجداني، ولا تزال أطيافهم تتراءى لي، وأصواتهم ترن في مسامعي، وهم الحاضرون في دعواتي كلما وجدت لذة الدعاء أو تحرير ساعة إجابة، فهم الآباء برّاً، والمعلمون حسبةً وتطوعاً، ولن نستطيع لهم كفاءً، ولن ندرك لهم جزاءً.

ولم أذكر من تلقيت عنهم في مراحل الدراسة النظامية، وفيهم الفضلاء والراسخون في العلم، لأن اللقاء في مراحل الدراسة ليس له طابع الخصوصية والتأثير المباشر، وقد ذكرت بعض أفاضلهم في الكتاب الخاص بمن عاصرتهم بعنوان: «رجالات في سماء الذاكرة» وهو الجزء الثاني من كتاب «سماء الذاكرة».

وقد ذكرت في هذا الفصل شيوخ التلقي الذي كانت الصلة بهم تلقياً لعلمهم، وتأسيساً بسمتهم، وكان ما تلقيته منهم هو قواعد التأسيس التي بنيت عليها فيما بعد، ثم ذكرت بعض من توفوا من شيوخ الإجازة، وهم من أشهر من عرفت، وأعلاهم رواية واهتماماً بشأن الإجازات.

الإمام الأكبر الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

أخذني أبي وأنا في المرحلة المتوسطة إلى الجامع الكبير في الرياض، وهو مسجد بعيد عن حيّنا، لنصلي هناك صلاة العصر، ولم أعلم لماذا، وإذا به يريد أن يحضّر ويُحضّرني درس الشيخ ابن باز، وبعد صلاة العصر جلسنا إلى حلقة يُقرأ فيها على الشيخ «صحيح البخاري»، باب «زيادة الإيمان ونقصانه».

ولا أزال أتذكر الحديث الذي قرّئ، ولون بشت^(١) الشيخ، ونغمة صوته، وعدد الحضور القليل حوله، وهم من العوام كبار السن، ثم صرت أحضر دروسه في الجامع الكبير بعد الفجر، والتي احتشد لها طلبة العلم صفوفاً إثر صفوف، وهي الدروس التي حضرتها وأفدت منها.

وقرأت فيها على الشيخ شيئاً يسيراً من «صحيح ابن حبان»، وكان الحضور من طلبة العلم الكبار، كالشيخ عبد العزيز الراجحي، والشيخ عبد العزيز القاسم، والشيخ عمر العيد رحمه الله، والشيخ عبد الله بن مانع الروقي، والشيخ فهد السنيدي،

(١) البِشْت: هي العباءة التي يلبسها الرجال في السعودية والخليج.



والشيخ عبد العزيز المشعل رحمة الله، والشيخ صالح العقيل، وغيرهم، ولذا كانت أسئلتهم للشيخ وإجاباته ثروة علمية زاخرة، ولا تزال لتلك المجالس بهجتها وبركتها وجميل ذكراها.

والشيخ عبد العزيز هو أكثر شخصية اقتربت منها وشعرت بإبهار وجلالة وعظمة وقوة تأثير، وهو من أكثر الشخصيات تأثيراً فيمن يلقاه، وما رأيت أحداً اتلفت القلوب عليه، واجتمع الناس حوله على تنوع مشاربهم كما رأيت فيه. ولم يكن للشيخ خصوم ولا حساد من أقرانه؛ وذلك أن المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة، فلا تحدث أحداً نفسه أن يلحق به أو يبلغ شأوه، فمن ثم كان هو المنظور إليه، والمتفق عليه.

وفي الشيخ كمالات الإمامة، فله جلالة ومهابة، وفقه وكرم، وعلم وحلم، وزهد ونسك.

وليس الشيخ ممن يتتابعون في العصور على التوالي، ولكنهم يوجدون في أفويق الزمان، لأن تلك الفضائل تكون في العادة مفرقة بين الأخيار وهم قلة، أما أن تجتمع في وعاء واحد فذلك لا يوجد إلا قليلاً بل نادراً، وقد كان الشيخ من هذا القليل النادر.

ومثاله من السلف الزهري، والليث ابن سعد، وابن المبارك، وأضرابهم، وهذا النوع ممن إذا فقد لم يُقَلَّ مَنْ سيخلفه؟ وإنما تُقسَم مناقبه قِسمة تركة، لكثرة ما جمع من خصال الخير، ولذا كان من سعادة أعمارنا لقاء إمام قل أن يتكرر مثله.

وكان هو الوعاء الذي جمع أنواع الفضائل ومآثر الخير وشوارد المعروف وخصال المروءة، في تكامل عجيب، فلا تكاد تذكر خصلة من خصال الفضل إلا وللشيخ فيها أوفر الحظ والنصيب، ولا تأتي إلى الفضائل من طريق إلا أفضى بك إلى الشيخ.



وكانت حياته تجسيدا لدقائق السنن، في سمته وهيئته، وفي نسكه وعبادته، وفي أخلاقه وشمائله، وفي علمه ودعوته، حتى تكاد تجزم أنه لا ينطق إلا بسنة، ولا يصمت إلا بسنة، ولا يفعل إلا بسنة، ولا يترك إلا بسنة، لقد كانت حياته - رَحِمَهُ اللهُ - تطبيقاً عملياً لحديث رسول الله ﷺ وسنته، فليس شيء من السنة عنده مهجوراً، لقد كان دواوين السنة تمشي على الأرض.

وكان تجسيدا عملياً للمروءات ومكارم الأخلاق فكم يطربك أن تسمع أو تقرأ عن الحلم والكرم وصنائع المعروف، ولكن أعظم من ذلك وأبلغ أن ترى هذه الفضائل متمثلة في شهم يحييها للناس، فترى العيون مواقعها وصنائعها، وهكذا كان الشيخ فإنه أقام سوق المروءات فرآها الناس عيانا بعد أن ظلوا زماناً يرددون: الجود يفقر والإقدام قتال.

وكان محل الاتفاق عند الكافة، وملتقى طبقات المجتمع كلها على تنوعها وتفاوتها، فقد وسعهم جميعاً بعلمه وحلمه وحسن خلقه وطيب معشره، وفضائله ومروءاته، وواساهم بماله وجاهه، ولذا رأينا فئات المجتمع كلها تأتلف حوله وتجتمع عليه، الكبار والصغار، والرجال والنساء، الأمراء والدُّهماء، العلماء والعامة، الأدباء والمثقفون، في إجماع ينذر أن ينعقد مثله على شخص، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، فسبحان من وضع له القبول في الأرض: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

لقد طوف كثيرون العالم الإسلامي والتقوا علماء ورجالاته فلما التقوا الشيخ، قالوا بفهم واحد: ما رأينا مثل ابن باز، قال ذلك شيخنا عبد الرزاق عفيفي، والشيخ جعفر شيخ إدريس، والشيخ بكر أبو زيد، والأستاذ زين العابدين الركابي، وغيرهم، قالوا ذلك لأنهم لم يروا أعلم، ولا أكرم، ولا أحلم منه،



ولكن لأنهم لم يروا هذه الصفات اجتمعت ثم ائلفت في شخص واحد، إلا أن يكون سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز.

وكان عالماً متميزاً في علمه فقد جمع بين العلم الراسخ، والفقه الدقيق، والورع المتين، وذلك ما جعل فتياه محل الثقة والقبول في العالم كله، وكثيراً ما ترفع فتياه الخلاف في المسألة.

لقد كان الفقيه الراسخ الذي يأخذ من النصوص مباشرة، ويرجع إليها بلا واسطة، فكانت حياته موصولة بسنة رسول الله ﷺ ودروسه عامرة بكتبها، يؤلف بين نصوصها ومقاصد الشريعة، فإذا حزبت معضلة، أو نزلت نازلة فزع المستفتون إليه فأووا إلى ركن شديد.

وهو رجل جليل على الخير، فكانت مكارمه جيلة لا تكلفاً، وطبعاً لا تطبعاً، وهذا السر في استمراره ودأبه وتألقه، فالمتكلف يكل، والمتطبع يغلبه الطبع، أما الشيخ فكانت المكارم جبلته، وفعالها سجيته، لا يكل ولا يمل ولا ينقطع، فهي فيه دينٌ وافق طبعاً.

ولقد كان سروره بقضاء حاجة المحتاج أعظم من سرور صاحب الحاجة بانقضائها، وكانت راحته ومتعته في نفع الناس بكل أوجه النفع: تعليمًا وإعانة وشفاعة وقضاء حاجة، وإغاثة لهفة، هكذا كانت حياته، بل هكذا كان في مرضه وليلة وفاته، لا يؤنسه ولا يريحه إلا هذه الفعال.

ولقد تأثرت به وأنا في بدوات العمر وأول مدارج الوعي أول ما عرفته، فرأيت فيه من جلالة العلم وأثره وتأثيره، ما كان محفزاً للتوجه في الطريق الذي سرت فيه.



ثم ازدددت اقتراباً منه ومعرفة بحاله، فكان الحب له والإعجاب به يزداد كلما ازدددت قرباً منه ومعرفة به، بعكس كثيرين ينطفئ وهجهم عند الاقتراب منهم. وهو ممن كنت أتاثر بمجرد رؤيته، وقد تذكرت به ما كان يقال عن الحسن البصري: كان الرجل ينظر إلى الحسن فينتفع برؤيته^(١).

ولقد ذقت هذا المعنى، وشعرت به وجدانياً، فكنت إذا لقيت الشيخ بعد غيبة شعرت بمثل القشعريرة على قلبي لمجرد رؤيته؛ فقد كان ممن تُذكر بالله رؤيته. أما دروسه فكان الحاضر فيها يأخذ منها إرواءً وجدانياً كما كان يأخذ ثراءً علمياً، ولم يكن ممن يسترسل في الشرح ويفيض، وإنما كان يقتصر في شروحه على مشهور العلم ومحكمات الأحكام، وقد يشرح عدة أحاديث من «بلوغ المرام» في عشر دقائق، وإنما كان يظهر رسوخه عند السؤال ومعاهد الإشكال فيجلبها بوضوح وإشراق، وكنا نعجب من استدراكه من حفظه على الحافظ ابن حجر في الفتح، وعلى الألباني في بعض تحقیقاته.

أما فتاواه فإنك تعجب من قوة استحضاره وحسن انتزاعه لموضع الاستدلال من الأدلة، وقدرته على تجريد المسائل الشائكة، فيعمد مباشرة إلى موضع الحكم من المسألة من دون أن تربكه كثرة التفصيلات، وتتم في عقله عملية سريعة تفرز المؤثر منها في الحكم وتستبعد غير المؤثر.

ويدرك ذلك من استمع إلى فتاواه الشفوية التي يجيب عليها من فوره وكأنما أعدّها لها واستعدّها.

وكانت أكثر الكتب حضوراً في دروسه «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير» و«بلوغ المرام»، وله بـ«بلوغ المرام» عناية خاصة، فقد صحبه أكثر من ستين سنة،

(١) «السنة» لعبد الله بن أحمد (١٦٠٨).



وشرحه في مراحل عمره عدة مرات، ومع ذلك كان يحضّر لشرحه في كل مرة، ولذا إذا جاء موعد قراءته في بعض الأيام يعتذر عن الشرح بأنه شُغل عن التحضير في الليلة السابقة.

ثم كان من توفيق الله أن انتدب لهذا الشرح تلميذه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم فعكف على جمعه وتحريره نحواً من خمس وعشرين سنة، ثم طبع بحمد الله في (١٧) مجلداً، وهو بحق خزانة علم الشيخ وفقهه.

ومما يشتهر في دروسه وفتاواه جرأته على قول: «لا أدري»، و«الله أعلم». استمعتُ إليه في برنامج إذاعي، وسُئل ما معنى «المسد» في قوله تعالى: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، فقال على الفور: «لا يحضرني الآن، يحتاج مراجعة، الله أعلم».

وسُئل في الدرس عن قول النبي ﷺ في قصة الرؤيا التي رآها، وأنه ينزع من بئر، «ثم جاء أبو بكر فنزع، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم جاء عمر فاستحالت غرباً، فلم أرَ عبقرياً يفري فريته»، فسألناه عن الضعف في نزع أبي بكر، فقال على الفور: «الله أعلم». فقلنا: أليست إشارة إلى قصر المدة؟ فقال: «قصر المدة ليس ضعفاً، الله أعلم». وسُئل عن ذبح الحيوان المريض لإراحته، فسكت قليلاً، ثم قال: «الله أعلم». ونظائرها كثيرة.

ومما يلفت النظر استحضاره للآيات والاستشهاد بها، فإذا ألقى كلمةً فمهما كانت قصيرة، فإنك تجد أكثر ما فيها الاستشهاد بالقرآن والحديث، وهو في ذلك شبيهٌ بآبن تيمية في كثرة استشاده حتى كأن القرآن يجري على لسانه، فما إن يبدأ في الكلام حتى تسمع: «لقوله تعالى»، و«كما قال عز وجل»، و«لذا قال جل وعلا»، و«أخرج البخاري في صحيحه»، و«أخرج مسلم»، و«أخرج أبو داود بسندٍ جيد»، وهكذا تزدحم النصوص في كلامه قرآناً وسنةً، فهي لُحمةٌ كلمته وسُداها.



ومما يأخذه من يحضر مجالس علمه تعظيمه للنصوص وكثرة ذكر الله وإجلاله في
الدرس، وعظيم محبته للنبي ﷺ وتوقيره، فلا تُحصى كم يذكر الله عن كل موقف
تعظيمٍ أو تعجبٍ: «الله أكبر، سبحان الله».

أما حاله مع ذكر النبي ﷺ والتفاعل مع أحواله وأحداث حياته فشيءٌ عجب،
فمع أن كل حديث قد قُرئ عليه مراتٍ كثيرة وصار يحفظه ويستحضره، لكنك إذا
رأيت تأثيره وهو يستمع إليه تظن أنه يسمعه لأول مرة.

ولقد حضرتُ الدرس وكان يُقرأ عليه حديث الإفك وما رُميت به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،
وكنا نتشوق أن نسمع تعليقه على الحديث، فلما انتهى الحديث نظرنا إليه، وإذا
هو ممتقع الوجه، وشفته تترعدان، وقد غلبه التأثر، فما استطاع أن يُبين، وإنما كرّر
«رضي الله عنها، رضي الله عنها» وهو في غاية التأثر.

ولما حضر الشيخ محمد الغزالي لاستلام جائزة الملك فيصل، استضافه الشيخ ابن
باز على العشاء، ثم لقيه د. عبد الله التركي فدعاه أيضاً في اليوم نفسه، فاعتذر بأنه قد
واعد الشيخ ابن باز، فقال د. التركي: «مُحبُّوك عندي كُثُر، وعشاء الشيخ ابن باز ينتهي
باكراً، لأنه يضعه بعد صلاة العشاء مباشرة، فإذا خرجت من عنده أتيتنا»، وأقنعه بذلك،
فلما كانت الليلة تأخر الشيخ الغزالي عن مواعده عند د. التركي، فلما جاء قالوا له:
«تأخرت علينا يا شيخ محمد». فقال لهم بتأثر: «لقد كنا في عالمٍ آخر، كنا عند الشيخ
ابن باز».

والمتمائل لشخصية الشيخ يرى كثرة خصال الخير التي حباه الله بها، ولكن جماعها
هو «المبادرة».



فلا تُقبل عليه فرصة خيرٍ إلا تلقاها، ولا تمر به إلا سَبَق إليها، فهو مبادر، وإذا لم يجد فرصةً متاحةً أوجدها.

كان وهو طالب عند شيخه محمد بن إبراهيم يعيد للطلبة الذين هم دونه، فبدأ في التعليم والعطاء وهو لا زال في أول الطريق.

فلما تولَّى القضاء في قرية الدلم، وهي قرية ريفية، أنشأ فيها دروساً للطلبة، وبنى لهم سكناً، وقصده الطلبة من خارج القرية، بل من خارج المملكة، وصارت الدلم تفور بالعلم كأنها الكوفة في عهد عبد الله بن مسعود، وبقي فيها (١٤) عاماً، ثم عُيِّن مدرّساً في كلية الشريعة بالرياض، ثم نائباً لمدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، فصارت لها سمعة عالمية كأنها جامعة أكسفورد.

وكان في كل منصبٍ تبوأه أكبر من منصبه، فيعظم منصبه به ويتسع.

وكانت وصاته لكل من يلتقيه الحثّ على العمل والبذل، فإذا زاره عالم سألَه عن دروسه ومؤلفاته ونشاطه ودعوته، وحثّه على المزيد، ودعا له، وعرض عليه المساعدة فيما يعمل إن كان يحتاجها، وكان يبتّ فيمن معه هذه الروح، ويستثيرها في كل من لقيه.

كنتُ مع مجموعة من طلبة العلم في زيارةٍ له، فتحدّث معنا، وكان يحثّ الجميع على بذل الجهد في النصح والكتابة الناصحة للعامة والخاصة، وأخذ الحماس وهو يتكلم ويناشد، ثم قال وهو البرّ الصادق رَحِمَهُ اللهُ: «والله إنّي لا أعلم أني كتبتُ كتابةً إلا وأنا أحتسب فيها ما عند الله».



وكانت كلمة خرجت منه متوهجةً بحرارة الصدق، وجف لها قلبي واقتصر لها بدني، وشعرت وأنا أنظر إليه كأنما أنظر إلى كوكبٍ غابرٍ في الأفق، ألا ما أبعد المسافة بيننا وبينه.

وهذا الاحتساب هو الذي هوّن عليه بذل نفسه في قضاء حاجات الناس، والسعي في أمر العامة، ولا يمكن أن يقصده أحدٌ في حاجةٍ فيُحيله إلى غيره، ولكن يذل له من سعيه ما يستطيعه، ولم نرْ أو نسمع أحداً بذل نفسه للناس سعيًا في مصالحهم وقضاء لحوائجهم كما رأيت منه **رَحْمَةُ اللَّهِ**، أو ما سمعتُ عن الشيخ صلاح أبو إسماعيل **رَحْمَةُ اللَّهِ** في مصر.

وحدثني الشيخ عمر بن سليمان الحصين **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وكان كاتبه فترةً من الزمن، أنه كان يذهب إلى المسجد ماشيًا على بُعد بيته عن الجامع ووجود السيارة والسائق عنده، فسأله عن ذلك، فقال: إن أهل السوق يسألونه في ذهابه ورجوعه، فيريد أن يكون في طريقهم لإجابتهم، فكان يحتسب خطواته وممشاه وتعليمه بين يدي صلاته. وكان حريصًا على تطبيق السنن، فالعلم عنده للعمل، ومن إحيائه للسنن التي قلّ العمل بها أنه كان إذا أتى من سفر بدأ بالمسجد يصلي فيه، ثم يذهب إلى بيته.

وكان لا يصلي السنن الرواتب إلا في بيته، وكان يشمّر ثيابه ويقصرها أكثر من غيره، وصليتُ معه مرةً صلاة الظهر، فقام رجلٌ كبير السن، وكان الواضح من هيئته وصوته أن في عقله قصورًا، فجلس إليه بعد الصلاة، وقال: «يا شيخ، أقرأ عليك»، قال: نعم، ثم قرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، والشيخ يستمع له، فدعا له الشيخ وبشّ له، وتذكرتُ حديث أنسٍ أن امرأةً كان في عقلها شيء، فقالت: «يا رسول الله، إن لي إليك حاجة»، فقال: «يا أم فلان، انظري أي سكك المدينة شئتِ أقف لك بها»، فرأيتُ تطبيق هذا الحديث عيانًا.



ومما يلحظه كل أحد اقترب منه تألهه ولهجه بالذكر؛ فلا يفتر لسانه عن ذكر الله، ولا تكاد تفلت منه ساعة في غير طاعة، فكانت حاله أبلغ مواعظه.

وأما التأليف فقد توجه للتأليف في أول حياته، فكتب رسالة مختصرة في صفة الحج، ورسالة مختصرة في الفرائض، وبدأ بتحقيق «فتح الباري»، وبدأ كتابة كتب، وجدت مسودات لأوائلها^(١)، ثم رأى أن الانشغال بالتعليم وقضاء حوائج الناس والسعي في النفع العام أولى من ذلك، ولذلك توقف عن إكمال الكتب التي بدأها.

ولكنه استمر في كتابة الفتاوى والإجابة على الأسئلة، وطُبعت رسائله وفتاواه في (٣٠) مجلداً، وفتاواه في برنامج نور على الدرب في (٣٥) مجلداً، وطُبِع من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٢٦) مجلداً، أكثرها برئاسة سماحة الشيخ، وهناك فتاواه في الجامع الكبير، وفتاواه في الدروس، وكلها مسجلة صوتياً، ولو صدرت لكانت تراثاً ضخماً.

ولم يكن للشيخ عناية بالإجازات، وله إجازة من الشيخ عبد الحق الهاشمي، ومن الشيخ محمد شفيع الديوبندي، ويغلب على الظن أن له إجازة من الشيخ سعد بن عتيق، فقد قرأ عليه في سن الطلب.

ولا أعلم أن الشيخ كتب إجازة لأحد من طلابه، وسألت أقرب طلابه إليه أخي فضيلة الشيخ عبد العزيز القاسم: هل أجازه الشيخ؟ فذكر أنه أغلق هذا الباب، ولكنه كتب له تزكية خاصة.

(١) وقد أخرج ما وجد منها أخي الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، وذكرها مفصلة في كتابه عن سيرة الشيخ عبد العزيز بن باز وعددها (٤٨) كتاباً ورسالة، وكثير منها رسائل وتوجيهات مختصرة (٢٢٨-٢٣٨).



ويظهر أن الشيخ أغلق باب الإجازة؛ لأنه لو فتحه لأشغله عن كثير من المهمات، وربما كانت له وجهة نظر أخرى، والله أعلم.

وبعد مضي أكثر من ربع قرن على وفاته عام (١٤٢٠هـ)، إلا أنني لازلت أترأاه في يقظتي، وأراه في منامي؛ وكأنما هو حي حاضر في وجداني، غاب عني شخصه، وبقي تأثيره وأثره^(١).



(١) والحديث المفصل عنه وعمن لقيتهم من أعلام العصر في الجزء الثاني من «سماء الذاكرة»، ويُنظر في ترجمة الشيخ: «ترجمة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز» للشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، والشيخ محمد زياد بن عمر التكلة.

و«جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» رواية الشيخ محمد موسى، وإعداد الشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد، و«الإنجاز في ترجمة الشيخ عبد العزيز بن باز» لعبد الرحمن بن يوسف الرحمة، و«إمام العصر» د. ناصر بن مسفر الزهراني، وغيرها.



معلم الناس الخير الشيخ عبد الله بن جبرين

لم أكن قد تجاوزت سن الطفولة إلا قليلاً حين دخلت معهد إمام الدعوة، أنتظر والدي الذي كان مُدرّساً في المعهد، فكانت أول قاعة أُمامي هي قاعة المكتبة، توجهت إليها، فإذا بعض المراقبين يتحدثون بصوت عال، أما طاولة القراءة فلم يكن عليها إلا هو، نظرت إليه، فامتألت عيني بمرآه كأنما أنظر إليه الآن، وجهه الآدم السمح، ولحيته السوداء المسنونة، ونظارته السمكة المقعرة، وبشته الأسود، وكان أشد ما لفت نظري طريقته في القراءة، فقد نصب الكتاب أمامه، وأمسكه بكلتا يديه، واستغرق في قراءةٍ نهمَةٍ جعلته ينفصل بشعوره عن حوله، جلست أنظر إلى إكبابه على الكتاب وقد أَبَدَهُ بصره كأنما هو في نجوى مع صديق حميم، ثم كثر لغط المراقبين حول غياب بعض الطلبة حتى ذكروا طالباً باسمه، فلما سمع الاسم انفصل عن عالمه، وأقبل عليهم يتحدث عن هذا الطالب ويذكر أن له عذراً في غيابه، وجعل يراجعهم في قبول معذرتة، حتى إذا بلغت شفاعته محلها عاد إلى استغراقه مع كتابه، لا يزال المشهد حيّاً في ذاكرتي كأنما أراه الساعة، وكانت هي أول مرة رأيته فيها عن قرب،

ثم يشاء الله أن أتعرف عليه في علاقة قاربت الأربعين سنة، فكانت حياته كلها شرحاً لهذا الموقف، وكان هذا الموقف اختصاراً لتلك الحياة: انقطاعاً إلى العلم، وحرصاً على نفع الناس.

لو أردت أن أصف حياته العملية بكلمة واحدة لكانت: الدأب، كان دؤوباً في تعلمه، فطلب العلم بنظام اليوم الكامل، فكان يقرأ على شيخه بعد الفجر، وبعد الظهر، وبعد العصر، وبعد المغرب، وبعد العشاء، فإذا هو أنجبُ الطلبة وأجمعهم وأوعاهم، طلب العلم معه كثيرون فتفرقت بهم سبل الحياة، وظل هو في نفس الطريق يسير قُدماً، ويعلو صُعداً.

وكان دؤوباً في تعليمه الذي لم يكن يمارسه وظيفة أكاديمية، ولكن كان يمارسه رسالة وعبادة، فكان يوازي التدريس في المعهد والجامعة تدريسه في المساجد، وقد حفر الشيخ مجرى علمياً واسعاً من خلال الدروس العلمية التي كان يلقيها في مساجد الرياض، والتي كانت إحياءاً للنمط العلمي العتيق، ولروح التعليم والتلقي المبارك في المساجد، والتي امتدت في مساحة زمنية تقارب نصف قرن، لقد نفر إلى هذا الشأن في فترة مبكرة من حياته، وحبس له نفسه، فسبق الصحوحة العلمية، والتوجه العلمي الزاحف بعد ذلك، جلس الشيخ لهذه الدروس في شبابه المبكر، قبل أن تظهر وتُشهر دروس المساجد وحلّقها.

وأقبل الشيخ بكليته على هذه الدروس، حتى اجتاحت وقته كله، وكم تساءل طلابه: متى يفرغ شيخنا لخاصة شأنه؟! فله درس بعد الفجر، ودرس بعد الظهر، ودرس بعد العصر، ودرس بعد المغرب، ودرس بعد العشاء، بحيث بلغت الكتب التي يقرأها الطلبة عليه نحواً من خمسين كتاباً في الأسبوع.



وكان عمله ديمة، إذا عمل عملاً أثبتته، فقد استمرت بعض دروسه أزيد من ثلاثين سنة لا يقطعها إلا أسفاره العلمية.

وكان الشيخ قد احتشد لدروسه تلك، وجعل لها الأولوية في أعمال حياته، كنا ثلاثة طلبة نقرأ عليه ضحوة يوم في المسجد، وقد قارب الدرس أن ينتهي، وإذا بالشيخ يلتفت إلى الباب، فالتفتنا معه، فإذا زوجه أم محمد رَحِمَها اللهُ - وكانت امرأة من عقائل النساء، وعونا للشيخ على طاعة الله - قد وقفت بالباب تستدعيه، فأقبل إلينا، وقال بود: عن إذنكم. ثم ذهب ففضى حاجة أهله سريعاً ثم عاد، ونحن في غاية العجب، فقد كان يسع الشيخ أن يقول لنا: تم المجلس، والحمد لله موعداً غداً إن شاء الله، ولكنه قد جعل مهمته التعليمية الأصل في حياته، وما سواها استثناء عارض عابر، وكلما تذكرت هذا اليوم تساءلت متى نشكر له هذا الموقف؟

وأما الغزارة العلمية التي تتدفق في تلك الدروس، فشيء يأخذ بعجب الحضور لذاك الرسوخ والتمكن والاستحضار، ولا أنسى وقد سئل في بيت أحد طلابه عن مسألة ليست من مشهور العلم، فاسترسل يتكلم بدون سابق إعداد، وكان يتدفق فيها باستفاضة، حتى لو جمع كلامه الذي قاله لجاء رسالة علمية أو بحثاً محكماً.

لقد كان علم الشيخ من العلم العتيق الذي تنامي عبر دأب طويل، واستذكار دائم، وليس حصيلة تحضير عاجل، أو إعداد قريب، ولذا كان يبهز بقوة استحضاره وغزارة تدفقه، ولذا فلم يكن الشيخ في حياة طلابه شيخ مرحلة يعبرها الطالب ثم يتجاوزها إلى غيرها، ولكنه عالم كل المراحل.

بدأت صحبته والقراءة عليه وأنا في المرحلة الثانوية، ثم في المرحلة الجامعية، ثم قرأت عليه وأنا أعد رسالة الدكتوراة وكلما ازددتُ علماً زادت معرفتي بسعة علم الشيخ واحتياجي لمزيد الاستفادة منه، لقد كان من ذلك النوع الذي مهما كبرت يبقى أكبر منك، ومهما تقدمت وجدته أمامك، وكلما عدت إليه استفدت منه.



وكان هذا الشراء العلمي يقدم في وعاء تربوي جميل؛ فقد كان الشيخ يمارس التعليم بأُبُوَّةٍ وتربية، فيرفع الحجب بينه وبين طلابه، ويشعرهم بالحفاوة والخصوصية، ويسعهم جميعاً على تفاوت قدراتهم ومداركهم بتحفيظه وتشجيعه، بحيث يستشعر كل منهم أنه قارب أن يبلغ أمله.

لقد كان تعامله السمع الرفيق يبني شخصية الطالب، ويعزز لديه مشاعر الثقة النفسية، وكم كنت أنصرف من درسه وأنا أشعر بنشوة نفسية عارمة؛ لأنه أشركني في مقابلة كتاب ينجزه، أو حدثني بموقف مؤثر من حياته.

كما كان يشد الشيخ إلى طلابه تواضع فطري غير متكلف، ولكنه منسجم مع شخصية الشيخ، فهو هكذا يرى نفسه، وهكذا يتعامل مع من حوله، وأشق شيء عليه أن يسمع ثناءً أو إطراءً، ولا أزال أذكر أنني قدمت الشيخ يوماً ليلقي كلمة، فغلبتني عاطفتي تجاه شيعي، فوصفته ببعض ما يستحق، فلما قام ليلقي كلمته بدأها قائلاً: أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله.

والله لو علموا بقبح سريرتي لأبى السلام علي من يلقاني
ولأعرضوا عني وملّوا صحبتي ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي وحلمت عن زللي وعن طغياني^(١)
ثم تبرأ من كل ما قلته قبل أن يبدأ كلمته..

إن هذا التواضع الجميل جعل الشيخ قريباً من نفوس طلابه، بل مستحوذاً عليها، حتى كنا من شدة تشبعنا بشخصية الشيخ نقلد حركاته وإشاراته، وطريقة كلامه تقليد المحب لشيخه المعجب به.

(١) هي أبيات تمثل بها من القصيدة المشهورة «نونية القحطاني».



كان الشيخ يتمتع بعافية نفسية تامة، ولذلك كان ظنه في الناس حسناً، يحملهم على أحسن المحامل، فلا يستبطن سوء الظن، ولا يشغل نفسه بالحذر والتحفز، ولذلك سلم من عاهات سوء الظن وفرز الناس وامتحانهم، وألقى كل ما عنده لكل الناس، فوسع الناس علمه وحلمه وخلقه، ولقد أورثته هذه العافية سكينه نفسية، ولياقة عالية في التعامل مع الناس، فامتد في حياة الناس بعمق، واستوعبهم، فكان فناء قلبه رحباً لا يزدحم الناس فيه.

أما صبره ودأبه، فذاك الذي لا ينقضي منه العجب، فهو يعطي عطاء متواصلاً لا يكل ولا يمل، بحيث إن مرافقيه لا يستطيعون مرافقته في برنامجه اليومي كله، وإنما يتعاقبون عليه نوباً، والأعجب أن لا يرى عليه وهو يعطي كلال أو ملال أو إعياء، وإنما هو منتعش في آخر عطائه، كما هو في أوله، بحيث يستشعر كل من يقرب منه أن الشيخ يجد نفسه ومتعته وحياة روحه في هذا العطاء، ولذلك كانت عافيته ونشاطه وبهجته في تتابع العطاء وغزارته، فتجده في درسه الأخير بعد العشاء جاماً منتعشاً كما كان في درسه الأول بعد صلاة الفجر.

ولم أر من ابتذل نفسه في هذا الأمر كما رأيته فيه، فلا يتردد أن يقطع شقة بعيدة، أو يقصد قرية نائية؛ ليلقي كلمة أو محاضرة أو يعقد دورة، ولقد فوجئت عندما زرت قرية نائية في جنوب المملكة والمسافة بعيدة، والطريق وعرة، حتى ظننت أنني أول من زارها، فلما قلبت سجل الزيارات في مركز الدعوة وجدته قد حضر في أول صفحة، ولقد شهد طلبته الأوائل من حاله هذه عجباً، فقد كان يعقد الدرس ولا يحجزه عنه عدد الحاضرين أو أعمارهم أو جنسياتهم، وربما عقد الدرس والحضور طالب واحد، ولقد أقر الله عينه، فرأى طلابه أولئك وهم حملة للشهادات العليا في مدن وبلاد عديدة، أعمارهم صلة لعمره، وجهودهم ثمرة لجهده.



أما زهده، فإن الناس يرون زهده في الكماليات وترف الحياة، فهو مُنكفٌ عن تطلب ذلك أو التشاغل به، ولكن الزهد الأكبر في حياته زهده في حظوظ النفس التي يتنافس فيها المتنافسون..

إن العجب العاجب أن يبذل الشيخ جهداً دؤوباً في تحقيق فتاوى ابن تيمية مع الشيخ ابن قاسم، وفي تصحيح حاشية الروض المربع، وفي تصحيح كتب الشيخ عبد العزيز السلمان، ومع ذلك لا نجد له ذكراً في شيء من ذلك ولا تشوفاً له، ولا سمعته يوماً يتحدث عنه إلا ما رأيته بعيني أو سمعته عنه من غيره..
إنها صفحة من حياة الأتقياء الأخفاء.

وكان نمطاً فريداً في الحفاوة بالطلبة والصبر عليهم، وتحفيزهم والتواضع لهم، وكان التدريس في حياته كالنفس يتنفسه ويعيش به، ولم أر في الصبر على الطلبة مثله ومثل الشيخ ابن باز رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وكان من نوعية الشيوخ المربين الذين يستفيد الطالب عندهم علماً وتحفيزاً وسمتاً وحسن خلق.

وتأثرت به في طبيته، وحسن ظنه بالناس، وكان مشهداً من سلامة القلب حتى تكاد تجزم أنه لا يستبطن ضغينة على أحد، فهو مخموم الفؤاد، منشغل بالعلم، منقطع له وإليه.

وتأثرت بسماحته في التعامل، فهو يسير قريب، مجيب لكل طالب بما يستطيعه، يشعر كل أحد بالقرب منه وكأنه من خاصته.

وهو ممن بقي عمره كله على سنن واحد عنايةً بالعلم، واجتهاداً في التعليم، وانتشرت دروسه في نواحي الرياض، ودوراته العلمية في نواحي المملكة، وعبرت



من تحت يده أجيال إثر أجيال، تربوا على يده وورثوا علمه، ولا يزال طيفه يتراءى لي،
ونبرة صوته ترن في أذني، فهو الحاضر في غيبته، الحي بعد مماته.

وبعد فلا زال في النفس عن الشيخ شجون وشؤون، وروائع أخرى تقال.

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

فالحديث عن سماحة الشيخ؛ هو الحديث عن الرسوخ العلمي، والتنوع في الفنون،
والتبحر في المعارف، مع فقاهاة النفس، وحسن التصور، وملكة الاستحضار.

الحديث عن سماحة الشيخ هو حديث عن الآلاف من الطلبة الذين تلقوا عنه
مباشرة، وطلبوا العلم بين يديه، وفي مسيرة تقارب نصف قرن.

والحديث عن سماحة الشيخ حديث عن طلب العلم عندما يتحول نهماً وإدماً،
والحديث عن الفضائل والمثل عندما تتجسد سمياً وهدياً وسلوكاً.

الحديث عن سماحة الشيخ حديث عن ضميمة أخلاقية رائعة يجمعها حسن
الخلق.

وكان ميلاد الشيخ عام (١٣٥٢ هـ) ووفاته عام (١٤٣٠ هـ).

رحم الله الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ورفع درجاته في عليين،
وجزاه الله عنا وعن أمة محمد ﷺ خير ما جزى عباده الصالحين^(١).



(١) يُنظر في ترجمة الشيخ كتاب ابنه، أخي الشيخ د. عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين في سيرة والده
«أعجوبة العصر».



شيخ الحنابلة

الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

عندما قرأت سيرة الشيخ عبد الرحمن السعدي والذي تهفو نفسي إلى سيرته ولم تدركها حياتي، فقد غادر هذه الدنيا قبل أن نصل إليها، لكنني وأنا أقرأ عنه شعرت أنني أعرف على شخص أعرفه، وأقرأ عمّن عشت معه، وكأنما أسترجع شيئاً من ماضي حياتي الذي رأيته، وذلك أن شيعي هو من أكابر تلاميذ الشيخ عبد الرحمن السعدي، وقد ارتشف علمه وخلقه، وكنا معه وكأننا مع شيخه في خلقه وسماحته، وطريقته في التعليم، وطريقته في التعامل، وعشقه للعلم.

جمعني به طريق الحياة وأنا في السابعة عشرة من عمري وتعرفت عليه وهو في ذروة مناصبه، وذروة انشغاله، وكان نائباً للشيخ عبد الله بن حميد في رئاسة مجلس القضاء الأعلى، ولما تعرفت عليه في مدينة الطائف كنا نصلي سوياً في مسجد واحد، ورأيت مبادرته إلى إيجاد درس في المسجد وهو مسجد صغير، فطمعت بالتلقي عنه، وطلبت منه أن يكون لي قراءة عليه فأعطاني درسين درساً بعد العصر ودرساً بعد العشاء، فكنت أقرأ عليه بعد العصر في «تيسير العزيز الحميد»، وأقرأ عليه بعد العشاء في «سبل السلام»، وأعجب شيء أنه كان وهو في سنه ومنصبه ومكانته يجلس ليقرأ عليه طالب واحد.



وكان هذا مشهداً من مشاهد تواضع العلماء وحبهم أن يتصل أثرهم بعلم يعلمونه، ولا يعزلهم عنه منصب أو جاه أو مكانة، وتعلمت منه بعض ما تعلمه عملياً وسلوكياً من شيخه الشيخ عبد الرحمن السعدي، وهو التواضع الجرم الذي يسمي طلابه مشايخ، بل نكون عنده أحياناً فيسأل عند مسألة فيقول: ما تقول يا شيخ فلان، ويكون هذا الفلان هو أحد طلابه الذين يقرؤون عليه.

وتظامنه للعلم شيء عجيب وعميق في حياته، ومن ذلك:

أنه عندما عين قاضياً في مدينة عنيزة وكان ذلك في حياة شيخه الذي درس عليه وتعلم منه الشيخ عبد الرحمن السعدي فكان هو قاضي البلد وله دروس في البلد، ولكنه كان يحضر في الصباح ويجلس في حلقة الشيخ مع الطلبة الذين يقرؤون على الشيخ حتى إذا انتهى الدرس ذهب مع الشيخ يشيعه إلى بيته ثم عاد بعد ذلك فيفتح المحكمة ويجلس فيها، وهذا التصرف لا يكون إلا من نفوس تكونت تكويناً سوياً، فلم يستشعر أن منصبه يجعله يستأثر مجلساً خاصاً من الشيخ مع أنه لو طلب ذلك لآثره به الشيخ ولكنه يحن إلى دروس شيخه، فيجلس إلى الشيخ في الحلقة مع طلاب الشيخ وهو قاضي البلد.

ومما رأيت منه وتأثرت به فيه حفاوته بمن يقرؤون عليه وهذه الحفاوة تظهر في احترامه لهم، ومعاملتهم على أنهم مشايخ، ودعوتهم إلى بيته بإكرام، وكم مرة انتهى الدرس بعد العصر فيصطحبنا إلى بيته... فنستتم الجلسة في استكمال المدارس وإحضار الكتب لاستكمال المراجعة والبحث.

وهو معنى تربى عليه في حلقة شيخه الشيخ عبد الرحمن السعدي وقد حدثني يوماً أن الشيخ عبد الرحمن السعدي أهدي إليه طعام، إذ كان أحد جيرانه قد صنع مأدبة فأرسل للشيخ كرامته في بيته لأن الشيخ عنده درس بعد العصر ولن يحضر إلى المأدبة



فلما أراد الشيخ أن يخرج إلى صلاة العصر وجد أهله قد وضعوا الطعام، فقال من أتى بهذا الطعام قالوا: أرسله لنا جارنا فلان، فأمر أن يغطى وذهب إلى المسجد وبعد أن انتهى من الدرس قال لصغار طلبته: عندنا في البيت لبن نريد أن نحملوه... ففهم الطلبة أنه لبن البناء وأنهم سوف ينقلونه إلى السطوح، فلما أتوا كشف لهم الطعام، وقال لهم: سمو بالله.

فكان اللبن هو الطعام، وأراد أن يحملوه في بطونهم، وهذا المشهد يُبين خُلة الشيخ مع طلابه وحفاوته بهم، وهكذا كان شيخنا مع طلابه، فدرسه في المسجد، ودرسه في بيته، ومكتبته مفتوحة لطلابيه إذا أتوا إليه.

ومما تعلمته منه طريقته في التعليم وطريقته في الإفتاء، فهو يترك الطالب يقرأ في الكتب التي لا تحتاج إلى شرح ولكنه يستوقفه فيسأله عما يخشى أن يكون قد تجاوزه الطالب دون فهم، ولا زلت أتذكر عندما قرأت عليه في تيسير العزيز الحميد أن التوحيد هو أساس الدين وأخيته، فقال لي: ما هي الأخية؟ ولم أكن رأيت الأخية ولا أعرف ما هي.

فبدأ الشيخ يشرح لي ما هي الأخية، وهي ثقل يدفن في الأرض ثم تربط به الدابة بحيث تدور في قطر معين لا تتجاوزه.

ومما استفدت منه في الإفتاء: أنَّ أعرابياً أتاه يسأله عن مسألة في نكاح فاسد بينه وبين شخص آخر، فقال له الشيخ: أين صاحبك؟ قال: يا شيخ هو بعيد، قال: إما أن يأتي معك أو تذهبون جميعاً للقاضي، فألح على الشيخ فقال الشيخ بلغة يفهمها الأعراب: كل شاة معلقة بعصبته^(١)، فسألته عن ذلك وفهمت منه أنه لا يفتي في مسألة تتعلق بطرف آخر غائب، لأن السائل سيعرض السؤال بالطريقة التي تكون في صالحه.

(١) أي أن الشاة تعلق بعصبة رجلها هي، لا برجل غيرها، وكذا كل مسألة من هذا النوع يعبر عنها صاحبها وليس خصمه.



وهذا المعنى الذي حضرته في السابعة عشر فهمت منه طريقة في الإفتاء أصبحت متيقظاً لها، فلا يجيب الإنسان عن قضية تتعلق بطرفين أو تتعلق بحق لأحد غائب وإنما يستدعيهم جميعاً فيصلح بينهم أو يأمرهم أن يذهبوا جميعاً إلى القاضي يسمع من الطرفين، فيحكم بينهم.

ومما لاحظته في حياة الشيخ حبه للتعليم فكلما تخفف من أعباء الحياة العملية ووجد فسحة في وقته شغل هذا الوقت تلقائياً بالتعليم، ولذلك فقد كان يحضر في أيام نشاطه إلى أي دعوة يدعى إليها ليقوم درساً، وقد طلبت منه أن يأتي ويقيم درساً عندنا في جامع الملك عبد العزيز فاستجاب لذلك وكان يأتي ويحضر معه نسخة مخطوطة من كتاب الكافي، فنقرأ فيه ويصحح لنا، وإذا حصل له شغل اتصل هو بنفسه، وكم رفعت السماعه فأجده يقول: أنا عبد الله بن عقيل، ودي أخبر الإخوان أنه لا يتيسر لي الحضور اليوم للدرس، وبعد أن تخفف من أعباء المناصب أشغل وقته كله بالتدريس.

وكما كان يظهر تواضعه مع طلابه يظهر أيضاً مع أقرانه، وذلك في ذكره لصغار أقرانه فربما سمعته يشرح مسألة ثم يقول: قال الشيخ ابن عثيمين، مع أن الشيخ ابن عثيمين من الطبقة التي تليه وليس من أقرانه، وكذا عندما يذكر الشيخ ابن جبرين وهو أكبر منهم سناً وأقدم علماً.

ومما تميز به أخذه عن الشيخ ابن سعدي، وله منهجية خاصة، ثم عن الشيخ محمد بن إبراهيم، وله منهجية أخرى في التعليم، فجمع الشيخ بينهما، ففيه أخلاق الشيخ السعدي وسماحته، وفيه يقظة الشيخ ابن إبراهيم وحزمه.

وكانت أول صلاتي بالشيخ في مدينة الطائف عام (١٣٩٦ هـ)، ثم استمرت الصلة به في الرياض صلة لقاء واستفادة وحضور لمجالسه.



وللشيخ عناية بالإجازات أخذها من-شيخه علي أبو وادي ومن الشيخ عبد الله القرعاوي، وقد أخذوا الإجازة من علماء الهند كالشيخ نذير حسين وغيره، كما أخذ إجازات من غيرهم.

وحضرت عنده مجلس ختم البخاري، وكانت الأحاديث تُقرأ على شيخنا وهو يتابع القراءة بكامل اليقظة، وهو الذي يبلغ الثالثة والتسعين من عمره المبارك، في رحلة مديدة مع العلم والتعليم.

ولقد ازدحمت في نفسي معانٍ كثيرة من تلك الأمسية الماتعة المباركة، منها:

بركة العلم والتعليم؛ فإن شيخنا وهو يخوض عشر المئة من عمره لا يزال يجد متعة نفسه في نشر العلم والتعليم، والجلوس للطلبة ومحبي رواية حديث رسول الله ﷺ، ولذلك فإنه يعيش تجددًا في أيام عمره، وسعة في ساعات حياته؛ فهو في هذا العمر يعقد في كل يوم سبعة مجالس علمية، يُقرأ فيها عليه عشرات الكتب.

ونظرت في هذا المجلس إلى لطيف صنع الله يوم قال شيخنا: قد أجزت الحاضرين بروايتي لصحيح البخاري عن شيخنا علي أبو وادي عن شيخه نذير حسين - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - بإسناده المعروف، فإن الشيخ في تلك الليلة كان يجيز الحاضرين بالإجازة التي تلقاها قبل أربع وسبعين سنة، فقد أجازه شيخه المعمر الشيخ علي بن ناصر أبو وادي عام (١٣٥٧ هـ) في عنيزة، والذي كان قد أخذ الإجازة من شيخه الشيخ نذير حسين في عام (١٢٩٩ هـ) في الهند، فهل كان يدور في ذهن الشيخ نذير حسين وهو يجيز في بلدة نائية في الهند لشاب نجدي أن إجازته ستُروى عن تلميذه عنه بعد أكثر من (١٣٠) سنة في عمق نجد، وأن تلميذ تلميذه سيجيز بإجازته، ويذكره باسمه، ويترحم عليه، بعد أكثر من مئة وثلاثين سنة؟! فما أعظم المسافة الزمانية والمكانية بين الإجازتين!.



ومن لطائف الرواية أن رواية شيخنا عن شيخه علي أبو وادي عن شيخه نذير حسين وقعت كل واحدة في قرن؛ فرواية شيخنا في عام (١٤٣١هـ) في القرن الخامس عشر، ورواية شيخه في القرن الرابع عشر (١٣٥٧هـ)، ورواية الشيخ نذير حسين في القرن الثالث عشر (١٢٩٩هـ).

وكان الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** حفيًا بطلابه باذلاً نفسه لهم، ولما تقاعد من عمله تفرغ للتعليم فكانت مجالسه العلمية متواصلة في يومه كله، وقد أجازني بثبته وكان ذلك في ربيع الآخر عام (١٤٢٥هـ)، وقد اعتنى بثبت الشيخ أخي الشيخ محمد زياد التكلة في كتاب: «فتح الجليل بترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل».

وعاش شيخنا ممتعاً بصحته ويقظته حتى وفاته في (٨ / ١٠ / ١٤٣٢هـ) **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وأكرم نزه، ورفع منزلته.



مفتي المملكة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

لما مررتُ في الطريق الذي كنت أقطعه يوميًّا مع الشيخ تذكّرت أنه في هذا الطريق بُني جزء من شخصيتي، وتكوّن أثر لا يزال ممتدًّا في حياتي، ودعوني آخذ القصة من أولها.

حفّزني الوالد - وكان زميلًا للشيخ في المعهد العلمي - أن أقرأ عليه، فذهبت إليه في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم وطلبت منه أن يأذن لي بالقراءة عليه، فأعطاني موعدين: موعداً بعد الظهر أقرأ عليه فيه «تيسير العلام شرح عمدة الأحكام»، وموعداً بعد المغرب أقرأ عليه فيه «زاد المستقنع» وشرحه «الروض المربع».

وبدأت القراءة بعد صلاة الظهر، وكان قائد الشيخ ينتظر حتى نفرغ من القراءة ثم يعود به إلى منزله، فعرضت على الشيخ أن أكون أنا الذي أعود به، فوافق، فصرنا نعبّر هذا الطريق في حر الصيف اللافح، وهو قرابة ألف متر، أقطعها مع الشيخ مرة واحدة في اليوم بعد صلاة الظهر، أما الشيخ فكان يقطعها خمس مرات في اليوم، وبانتظامٍ ومحافظةٍ على أداء الصلوات، لا يكاد يتخلّف عن شيءٍ منها في مسجده على بعد المسافة عن بيته.



كانت هذه بداية بناء العلاقة معه، ولكن العلاقة زحفت من كونها علاقة تلميذ بشيخ إلى علاقة أبوية، فامتدت العلاقة ووصلت إلى البيت، وخَلَطَني الشيخ بخاصته وبأهله، فكانت لي علاقة مع والدته أم عبد الملك، وأخيه عبد الملك رَحِمَهُمُ اللهُ، ومع أخيه عبد المحسن، وقد أفادني ذلك إفادات كثيرة.

كان ذلك هو شياخي سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، مفتي المملكة العربية السعودية، وكان حينها مدرساً في كلية الشريعة، وخطيب الجامع الكبير في مدينة الرياض، وتوثقت هذه العلاقة واستفدت منها فوائد أذكر منها:

أولاً: في الجانب العلمي، وهي اتساع الأفق العلمي، فجلوسي مع الشيخ تمددت ثقافتي تمداً أفقياً، بدأت في درس الضحى عند الشيخ، فيقرأ عليه أخي الشيخ عبد العزيز القاسم في «منهاج السنة النبوية»، و«تحفة الأحوزي»، وأقرأ أنا في كشف الشبهات و«طريق الهجرتين»، وفي العصر يقرأ عليه في «مجموع فتاوى ابن تيمية» و«إعلام الموقعين»، وبعد المغرب يقرأ في «فتح الباري»، وأقرأ في «الروض المربع» وحواشيه.

ففتحت أمامي آفاق واسعة، وتذوقت لغة العلماء ومصطلحات أهل العلم، وبدأت أدرج في طريق الطلب، وكانت هذه خطواتي الأولى فيه.

وكان الشيخ فقيهاً متمكناً في مذهبه، وقد درسني في كلية الشريعة سنتين، وقرأت عليه في المسجد، فكان يحفظ «زاد المستقنع» كفاتحة الكتاب، وهو من أصعب المتون الحنبلية عبارة، كأنه مختصر خليل عند المالكية.

ولم يكن جامداً على هذا المتن المذهبي فقط، لأن أفقه كان واسعاً في فقه شيخ الإسلام، وشديد الاستحضار لأقوال ابن تيمية، ولذلك كان في دروسه كثيراً ما يقول:



«لكنُ الشيخ تقي الدين يقول»، كأن أقوال الشيخ تقي الدين ابن تيمية حاضرة في كل مسائل العلم التي يتكلم فيها، فكان تدرسه الفقهي، عندما درسنا، مزيجاً من التأصيل المذهبي مع النفس الاجتهادي لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكان هذا حاضراً في ذهنه تماماً.

وهذا التناغم بين المدرسة المذهبية والمدرسة الاجتهادية عند شيخ الإسلام ابن تيمية أعطى الشيخ أفقاً واسعاً، ثم كانت صُحبته للشيخ عبد العزيز بن باز رَحْمَةُ اللَّهِ متناغمة مع هذا الاتجاه، ولذلك خلفه في الإفتاء في المسائل التي كان الشيخ عبد العزيز يفتي بها اجتهاداً في مسائل الطلاق.

ثانياً: طرأ الشيخ على حياتنا المنبرية في بكور شبابه، وبدأ الخطابة قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر، وكانت بدايته الخطابية نقلة في الخطابة في المملكة العربية السعودية، فقد كانت الخطب في الأغلب من دواوين الخطب القديمة، يحفظها الخطباء ثم يكررونها، ولذلك قلَّ ما يتحدث الناس عن خطبة الجمعة وماذا قال الخطيب، وما موضوع الخطبة، لأنها أصبحت خطباً مألوفة مكرورة.

وكان بدأ الخطابة في جامع الشيخ محمد بن إبراهيم رَحْمَةُ اللَّهِ، ثم انتقل إلى جامع الرياض الكبير، ثم صار يخطب في عرفة، فكانت خطبه تجديداً في أداء الخطابة.

وإذا ألقى الخطبة أصبحت حديث الناس، ولا أزال أتذكر أنني إذا مشيت في أسواق الرياض عصر الجمعة أسمع حديث الناس في دكاكينهم ومجالسهم عن موضوع الخطبة وما قال الشيخ فيها، فكانت خطبة مما أعاد لخطبة الجمعة حياتها وحيويتها.

كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ نقلة في الخطابة، في إعدادها، وفي إلقائها، والذين أدركوا شباب الشيخ يذكرون صليل صوته عندما يخطب مما يذكر بأوصاف الخطباء السابقين الذين تُوصَف خطبهم بأثرها وطريقة إلقائها واختطافها لأفئدة الناس إذا استمعوا إليها.



وكانت خلطتي بالشيخ وهو خطيب الجامع الكبير، فاستفدت منه طريقة إعداد الخطبة، فكانت أول فائدة استفدتها منه: إعمال الذهن في الخطبة، فكان يحدد الموضوع ويظل يفكر فيه، وقد يخبرني بالموضوع ويقول: «سأقول كذا وكذا»، وكان هذا جزءاً من الإعداد، وهو إعمال الذهن، ثم تحديد النصوص من الآيات والأحاديث، وكنت أقرأ عليه التحضير لها، فيستدعي بعض التفاسير المتقدمة وبعض التفاسير المعاصرة نقرأ فيها تفسير الآيات، ويستدعي كتب الشروح نقرأ فيها شروح الأحاديث، وبذلك يكتمل موضوع الخطبة، وقد أفادني ذلك كثيراً عندما صرت خطيباً، إذ صرت أركز على إعمال الذهن، فأحدد الموضوع وأظل أُعَمِّل فيه ذهني، وأتحدث به مع من حولي، ثم أستدعي الآيات وتفسيرها، والأحاديث وشروحها، وبذلك تكتمل مادة الخطبة.

وقد استمر الشيخ خطيباً في الجامع الكبير في الرياض من عام (١٣٩٠هـ) إلى عام (١٣٣٨هـ)، وخطيباً ليوم عرفة من عام (١٤٠٢هـ) إلى عام (١٤٣٦هـ).

ثالثاً: بدأت علاقتي بالشيخ وأنا في السادسة عشرة من عمري، وكان الشيخ في ذلك الوقت شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره، وكان يتحدث معي في الطريق من المسجد إلى بيته، بطريقة ودية، ليس فيها سلطة الأبوة، ولا هيبة المشيخة، ولكن فيها العفوية والقرب، وهي أحاديث على مستوى أفق الشيخ واهتماماته.

وهذه الأحاديث كانت رفعاً لمستوى وعيي، وصرت أطلع إلى مستوى اهتمامات الشيخ، وارتفعت عن مستوى الحديث مع زملاء المراهقة، والتي كانت تدور حول أمورٍ من رغائب الشباب وشهواته.

وصارت هذه العلاقة عاصماً من ضياع هذه المرحلة العمرية الثمينة في أمورٍ قد لا تكون ذات أهمية أو جدوى.



إن علاقتي بالشيخ في تلك المرحلة كانت قنطرةً آمنةً في مرحلةٍ عمريةٍ حرجية، إذ كانت خلطتي بالشيخ عبد العزيز أكثر من جلسة القراءة عليه، بل كانت حضوراً في مجلسه ومصاحبته إلى مجالس الأشياخ الكبار الذين كان يزورهم مثل الأمير محمد بن عبد العزيز (المطوع)، والشيخ محمد بن عبد العزيز آل الشيخ (الصحابي)، والشيخ عبد العزيز بن باز، وغيرهم، وهذه كلها أفادت في فتح آفاق جديدة، ورفع مستوى الاهتمامات، والدفع بقوة إلى الأمام.

رابعاً: صحبت الشيخ فرأيت أنه أخذ العلم للعمل، فكانت حياة الشيخ حياةً عامرةً بالنسك والتأله، ولخلطتي بالشيخ ووالدته وأخيه عبد الملك رَحِمَهُمُ اللَّهُ عرفت من حياته الخاصة ما كشف لي شدة تألهه، وأخذه نفسه بالحزم في العبادة. فعرفت عنه قيام الليل، وكنا نلاحظ الإجهاد عليه إذا جلسنا معه في الضحى، فنعرف أن هذا بسبب قيام الليل.

وكان قد فُتح له في القرآن، بحيث كان خفيفاً عليه عند التلاوة، فكان يجمع مع إتقان الحفظ كثرة اللهج بالقرآن، حتى إنني أحسبه في فترات فراغه، عندما كان مدرساً في كلية الشريعة وقبل أن يُشغل بكثرة الأعمال، كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام.

وكنت أذهب وإياه إلى صلاة الظهر في جامع الشيخ محمد بن إبراهيم قريب الساعة العاشرة صباحاً، فيقضي هذا الوقت إلى الظهر في صلاة وسُجِّ قرآني عجيب. وكان حسن الأداء في التلاوة، فبعد الأذان يصلي السنة الراتبة، ثم يقرأ بصوت جهوري إلى أن تقام الصلاة، فتجد جماعة المسجد يلتفون حوله ويتركون القراءة ويستمعون لتلاوته الندية. أذكر منهم شيخنا الشيخ عبد الوهاب البحيري، كان يأتي باكراً إلى الصلاة ويجلس على المتكأ ويصيح استماعاً لقراءة الشيخ.

كان الشيخ رجلاً قرآنياً، وصاحب نسك وعبادة، وهي حالٌ مصاحبة للشيخ منذ بدوات عمره، فكان شاباً نشأ في طاعة الله، وحفظ القرآن في بكور حياته،



وكان إماماً للمسجد في طلائع نشأته ولم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ولذلك تستطيع أن تقول إنه لم تفته صلاة الجماعة، لأنه كان إمام الجماعة، ومن الأئمة أصحاب المواظبة الشديدة لا تكاد تفوته صلاة، وهل يُراد العلم إلا للعمل؟!.

خامساً: كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ مدرسةً أخلاقية، فكان شديد التواضع، ولفت نظري تعظيمه للشيخ عبد العزيز بن باز، وإجلاله للشيخ ابن عثيمين، أذكر مرةً أنه كان يعلق على شرح الشيخ ابن عثيمين على «الكافي» بنشوة ويقول: «الله أكبر، الله أكبر، هذا العلم، هذا العلم»، فكان الشيخ يقدر أهل الأقدار ويعظم الأجلاء من العلماء.

وأما طلابه فهو معهم في غاية البساطة والتبسط، وكنت ألاحظ تعامله مع الذين كانوا يوماً طلاباً له، فيتعامل معهم كزملاء، ولذلك نجد الصحبة معه تستمر، وتدوم علاقتهم به لما يأنسونه فيه من هذه الروح العذبة، فكان موطأ الأكناف.

ولم يكن يدع إجابة دعوة يُدعى إليها، ولا يسمع بمريض إلا ذهب يعوده، ولا بوفاة إلا حضر يُعزي بها، فكان له عمقه الاجتماعي، وخلقه الحسن الذي وسع به الناس.

وليس شيء أثقل في ميزان العبد من حسن الخلق، وكاد حسن الخلق أن يذهب بالدين كله.

وهذه السمة ظاهرة في الشيخ، يعرفها كلٌّ مَنْ عرفه، ويتحدث عنها كل من جلس إليه.

سادساً: مرّت أثناء حياة الشيخ زوابع وفتن وعواصف وهيشات علمية، فكان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ مُسَدِّداً محفوظاً بحفظ الله، حفظ سمعه وبصره، فلم تند منه كلمة في أحد، ولم يتكلم في حي ولا ميت، فأعرض عن قيل وقال وعن الكلام في الأشخاص وتقييمهم، وكان يتجافى عنه ويتباعد غاية التباعد.



ولذلك أحسب وأحتسب له أنه لن يلقي الله بخصومة أحد.

وكان الشيخ يعيش مع علماء السلف كأنه حاضر معهم، ومن بره بهم أن حجّ عن عدد منهم، وعندما نظرت في العلماء الذين حج عنهم وجدتهم متنوعين في مذاهبهم، فحجّ عن واحد من علماء الحنابلة، وهو ابن رجب، وحج عن اثنين من علماء الشافعية: النووي والمنذري، وحجّ عن إمام من أئمة المالكية ابن عبد البر، وحجّ عن الإمام ابن حزم، وهذا يبين أن الشيخ رحمة الله كان يتعامل مع العلماء بمنظار التجلة لصوابهم، والإغضاء عن هفواتهم، وذكرهم بما أحسنوا فيه وأصابوا.

فكيف إذا قارنت ذلك بالذين يقعون الآن في أعراض العلماء، وينبشون قبورهم، ويحيون زلاتهم، ويجددون الخصومة معهم.

وقد نسا الله في حياة الشيخ حتى جاوز الثمانين، لكن الذي يرصد حياة الشيخ طوال هذا العمر، وقد صحبته نصف قرن من عمري، يعلم أن الشيخ عاش حياته على سنن واحد، هو شاب نشأ في طاعة الله، وظل على هذا السنن حتى توفاه الله، وهذا لا يكون إلا بحفظ من الله عز وجل.

فأي بركة في العمر أعطاها له حفظ القرآن وإدمان تلاوته، وقيام الليل، والصلة بالعلم؟!

ولا تدخل مجلسه فتجد فيه هزلاً أو لغواً، وإنما تجد واحداً يقرأ وهو يستمع، والحضور يدخلون ويسلمون ويخرجون، والدرس مستمر، وهذا مجلسه المعتاد في ضحوات الأيام التي لا يكون فيها عمل، وفي أمسيات الأيام من بعد العصر إلى المغرب، فالمجلس مجلس قراءة في كتب العلم، ومذاكرة في مسائل العلم، وإذا أتى أحد احتفى به وسأله عن حاله، ثم قال: «نعم، سم»، فيستأنف القارئ القراءة،



فكانت المجالس عامرة بالعلم، فأَمْضَى حياته يصحبها العلم، وتعطرها العبادة،
ويزينها حسن الخلق.

وفي آخر عمره ضَعُفَ صوته، فاعتذر عن خطبة الجمعة وخطبة عرفة وبرامج
الإفتاء، واستمر في القيام بعمله في رئاسة الإفتاء إلى وفاته في عام (١٤٤٧ هـ).

ألا رحم الله الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وجزاه عني وعن المسلمين
خير ما جرى عباده الصالحين، وجمعنا وإياه في جنات ونهر، في مقعد صدقٍ عند
ملكٍ مقتدر^(١).



(١) يُنظَرُ في سيرة الشيخ كتاب «ومضات من سيرة سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد
آل الشيخ» لأخي الشيخ د. هشام بن عبد الملك آل الشيخ.



أناقة الخلق وأناقة الكلمة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

تعرفتُ عليه من خلال كتبه وأنا طالب في المرحلة الثانوية، كنتُ أقرأ كتبه وتحقيقاته، وهي كتب لم أكن حينها على مستواها العلمي لكن كان يجذبني إليها جمال الإخراج وحسن الأسلوب، فكنتُ أقرأ في كتبه وأشعر بانجذاب، وأتساءل: من هذا الذي هذه كتابته، وهذا إخراجة وهذا إتقانه؟ وأتمنى أن أتعرف على صاحبها.

ثم عرفتُه وطابقت الاسم على المسمى، غير أنني لم أجد الفرصة المناسبة للتواصل معه، حتى جاءت الفرصة كأنما سيقَّت لي على قدر.

كنتُ في مكة ودخلتُ مكتبة «الباز» التي كانت في ذلك الوقت مقابل المروة، فلما دخلتُ المكتبة وجدته فيها، وكانت المكتبة صغيرة وضيقة وعدد من فيها قليل، فكانت فرصة، سلّمتُ عليه واحتفيتُ به، فقابل الحفاوة بحفاوة أكبر، كأنه يعرفني منذ زمن.

لفت نظري في المكتبة نهْمه الشديد، وهو يجمع الكتب، وكأنه عثر على عزيز فقده، وكأنه يراها أول مرة، ولذلك جمع في وقت قصير أكداً كثيرة من الكتب، فلما نظر إليها شعر بشيء من الحرج، وقال لصاحب المكتبة: «تقدرون توصلونها لي؟»



فسأرجع بالطائرة، فكيف أحملها؟». فوجدتُ الفرصة سانحة، فقلتُ له: «يا شيخ، أنا جئتُ بالسيارة، ما رأيك أن آخذها معي وأوصلها إلى بيتك في الرياض؟»، فسُرِّي عنه، وقال ضاحكاً: «يرحم جدك».

فكانت فرصة، وأخذتُ الكتب ورقم هاتفه، وسافرتُ بها إلى الرياض، ثم أتيتُ إليه في شقته، وكانت في عمارة في حينا حي دُخنة، وجعلتُ من توصيل الكتب قنطرةً للتعرف عليه وبناء علاقة معه، وكان ذلك الموقف في المكتبة هو الخيط الأول الذي قُتل به حبل العلاقة بيني وبينه.

دخلتُ عليه في شقته، فتعرّفتُ عليه أكثر، وتعرّفتُ على نمطٍ مميز، استقبلني بالوجه السّمح الّوَضِيء، والابتسامة الرضيّة، والتعامل الأخلاقيّ الرّفع.

ثم ولجّتُ إلى عمق شخصيّته، فعرفتُ أنه معتكفٌ للعلم، متفرّغٌ له، يعيش حياة الزاهد إلا في العلم، وقد عرفتُ أنه قضى في هذه الشقة المتواضعة الصغيرة أكثر من عشرين سنة، في بحثٍ دائمٍ وتفتيشٍ علميٍّ دؤوب.

ثم درجت بي الحياة، فإذا بي ألتقي بالشيخ على مقاعد الدراسة في السنة الأولى التمهيدية للدراسات العليا، وكان يُدرّسنا مادة «مصطلح الحديث». كان له نمط في التدريس، إذ كان يهّمه ربطنا بالكتب، ولم يكن يقدّم المحاضرات بمعلومات مرسلّة، بل كان يصرّ على أن تكون القراءة من خلال الكتاب، وأن تكون إضافاته تعليقاتٍ عليه، وقد أفادنا هذا المنهج كثيراً في تحليل نصوص الأقدمين والتعامل بمرونة مع عباراتهم.

وكان يأتي إلى الكلية من شقته نفسها، فوجدتُ أن لديّ فرصة أخرى لأوثق علاقتي به، فاقترحتُ عليه أن أمرّ عليه في شقته وأوصله إلى الكلية، ويترتب على ذلك أن أرجعه بعد المحاضرات، فصار المشوار ذهاباً وعودةً فرصةً علمية جديدة،



بل كان أمتع من قاعة الدرس؛ إذ كنتُ آخذ منه دقائق علمية ثمينة، وأسأله عن أمورٍ تخصّه فيجيبني بكل وضوح وصراحة، فكان الذهاب والعودة متعةً علمية أيضاً، وما كان حديثنا يخرج عن العلم والكتب والعلماء.

تواضعه العلمي:

ومن العجائب تواضعه العلمي، فأذكر أنه شرح لنا مبحثاً في «مقدمة ابن الصلاح»، وكان يُحضّر من تعليقات ابن حجر على «مقدمة ابن الصلاح»، وكان مخطوطاً لم يُطبع بعد، فكان الحافظ ابن حجر يعلّق على حديثٍ في مقدمة ابن الصلاح، وهو الحديث الذي فيه أن الصحابة كانوا يقرعون باب النبي ﷺ بالأظافر.

فكان الحافظ ابن حجر يقول: «وهذا الحديث ممّا تعبُ في تطلّبه والبحث عنه، فلم أعر عليه، وقد أتعبني وأتعب العلماء قبلي».

فكان الشيخ يتحدّث ويذكر كلام ابن حجر، ويقول: «هذا الحديث تعب فيه الحافظ ابن حجر ولم يجده، وتعب فيه العلماء قبله فلم يجده».

فقال أحد الطلبة: «يا شيخ، لعل أحداً عثر على الحديث بعد ابن حجر». وإذا بالشيخ - وكان له رَحْمَةُ اللَّهِ غيرة على العلماء - يتلوّن وجهه ويحمرّ، ويقول: «هؤلاء إذا قالوا: لم أجده، فمعنى ذلك أنهم قد حرثوا الكتب حرثاً!» ولا أزال أذكر إشارته بأصابعه وهو يقول: «فإنهم قد حرثوا الكتب حرثاً! أتظنّ أن هؤلاء علماء فهارس؟!».

وتذكّرت وقتها أنني قرأتُ تعقيباً للسيوطي على كلام ابن حجر، يقول فيه: «وقد وجدتُ الحديث بحمد الله من غير تعب». لكنّي لما رأيتُ انفعال الشيخ سكّتُ حتى انتهت المحاضرة وتفرّق الطلبة، ثم قلتُ له: «يا شيخ، أظنّ أن السيوطي قال في «تدريب الراوي»: إنه وجد الحديث بدون تعب والحمد لله». فقال الشيخ: «أهكذا؟!». قلتُ: نعم. قال: «أهو موجود في الكتاب؟». قلتُ: «نعم».



وكانت نسخة تدريب الراوي عندنا في القاعة، فقمْتُ وأحضرتُه للشيخ، ففتحتُه ورأى الموضوع وكلام السيوطي الذي يرَدُّ فيه على الحافظ ابن حجر، والذي كان الشيخ قد انتصر له قبل قليل ذلك الانتصار البالغ، فعجب الشيخ من ذلك عجباً شديداً.

فلما كان الغد وحضرنا للمحاضرة واجتمع الطلبة جميعاً، كانت أول كلمة قالها: «كنتُ بالأمس ذكرتُ كلام الحافظ ابن حجر وبحثه عن الحديث وأنه لم يجده، ثم اتَّضح أن الحافظ السيوطي قد وجد الحديث، وأنه تعقَّب الحافظ ابن حجر، وذكر في «تدريب الراوي» كذا وكذا، والذي دلَّني على هذه المعلومة ونَبَّهني إليها هو أخي عبد الوهاب». وكان يقولها بأريحية كاملة، وكان بذلك يقدم لنا مع العلم درساً آخر في التواضع.

ولذا أقول: إني تعلَّمتُ منه علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وربما كان يمكنني أن أحصل هذا العلم من غيره، لكنني حصلته منه بطريقةٍ أخرى، فقد قدَّم العلم بطريقةٍ أنيقةٍ جميلة، وفي وعاءٍ نظيف، والعلم العذب إذا قدَّم بهذه الطريقة شربه طالب العلم حتى يتضلعَ منه، وقد سقانا بهذه الطريقة حتى ارتوينا، رَحِمَهُ اللهُ.

النهم العلمي:

أتذكَّره فأتذكَّر نهمه العلمي، فقد كان يشدُّني إليه وأنا أقرأ في تحقيقاته وكتبه، من خلال عثوره على فوائد والتقاطه لها من زُوِّيَّات الكتب، فأعرف أن وراء ذلك نهماً وتطلباً للشاردة والفائدة، والتقاطها من غير مظانِّها.

وأعجبني فيه حفاوته بالفائدة إذا اقتنصها، أذكر مرَّةً أنه كان يتكلَّم عن الإمام البخاري واشترائه اللِّقاء بين المتعاصرين، وكان يقول لنا: إنَّ العلماء قلوبهم مع البخاري وأيديهم مع مسلم، فهم يرجحون قول البخاري، ويعملون بقول مسلم، فقلت له: يا شيخ، أنا وجدت موضعاً للحافظ ابن حجر في «الفتح» يستشهد فيه بطريقة مسلم،



فيقول: وفلان قد أدرك فلاناً وتعاصرا واللقاء ممكن. قال لي: «يرحم جدك! تذكر هذا المكان؟» قلت: نعم، وضعت عليه علامة. قال: «لما تروح البيت تتصل علي؟» قلت: إن شاء الله، فرجعتُ إلى البيت، ولكنني أخذت الأمر على التراخي، وفي الليل إذا بالهاتف يرنّ، فرفعت السماعه، فإذا هو الشيخ يقول: «ها، عندك الموضوع؟». قلت: عندي الموضوع، فأخذت الكتاب وأملت عليه الجزء والصفحة ونصّ الكلام، فقال لي: «يرحم جدك، يرحم جدك». وعندما قرأت تعليقاته على «الموقظة» للذهبي رأيت أنّه قد وضعها هناك، فعجبتُ من هذا النهم لتطلّب الفائدة، ومن حسن توظيفه لها ووضعه في مكانها.

ومن نهمه العلمي أنّه حكى لي أنّه عندما سافر إلى الهند احتفى به أهلها، ومن حفاوتهم أنّهم عرضوا عليه أن يزور «تاج محل»، وقالوا: نحن في مدينة قريبة منه جداً، وهذا المكان أعجوبة في الدنيا، فلم لا تذهب إليه؟.

قال: «دخيلكم، مالي بتاج محل، اذهبوا بي إلى عالم أزوره، أو مكتبة أطلع عليها». فرجع من الهند ولم يزر «تاج محل»، وإنّما زار الشيخ فلاناً، والحافظ فلاناً، والمكتبة الفلانية، فتعلّمتُ منه النهم العلمي، وتطلّبتُ الفوائد، وحسن تقييد الشوارد، ومن ذلك أنّه في قاعة المطار إذا خرج العلماء لتوديعه لا يجري الحديث إلا في المذاكرة العلمية والإجازة، ثم تجد ثمرات هذه المذكرات في كتبه حين يقيّد مكان البحث.

السخاء العلمي:

ومما شدّني إليه سخاؤه العلمي، وأذكر له هذا الموقف بكثير من الإجلال والامتنان، وما ذكرته إلا ودعوت الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفع في درجات الجنّة نزلّه، وذلك أنّي أتيت أسأله عن هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعليم، وقلت له: يا شيخ،



أنت تُعدّ كتاباً عن «الرسول المعلم»؟ قال: «نعم». قلت له: ممكن تُعيرني مسوّد الكتاب؟ قال بدون تردّد: «تكرم».

فظننت أنّه قد بيّض الكتاب، وأنّ عنده صورة منه يمكن أن يُعطينيها لأستفيد منها. فذهبت إليه، فأعطاني ظرفاً وقال: «هذا الكتاب». أخذتُ الكتاب وأنا لا أزال أظنّه صورة للمسوّد، وذهبت فرحاً، فلما وصلتُ وفتحت الظرف، فإذا الذي في الظرف هي الأصول بخطّه، وهي جُزّاءات مربوطة ببعضها بدبابيس، وإحالات، وخطوط خارجة، وأخرى واصله من هنا وأخرى ذاهبة إلى هناك، وعبارات مثل: «انظر ص كذا من كتاب كذا»، و«انظر البطاقة الفلانية». فوجدت أنّ أمامي الآن أصل الكتاب وجذاذاته المربوطة بطريقة عجيبة.

فجاءني شعور بالدهش، وقلت: سبحان الله، لو أنّي ضيّعت الكتاب أو سقط مني في الطريق أو انتشرت أوراقه إذن لضاع كل جهد الشيخ، وشعرتُ برهبة أن أحرك ورقة فينتقض هذا النظام ويختلّ الترتيب.

فأعدت الكتاب إلى وضعه، وأرجعته للشيخ من غير أن أستفيد منه في شيء، خوفاً من أن تضيع منه ورقة أو يختلّ ترتيبه، لكنني رجعت وأنا مندهش من هذه النفس السخية بالعلم، كيف يثق فيُعطيني هذا الكتاب الذي عنده وهو لا يزال بهذا الوضع! فلا أزال أذكر هذا الموقف وأكبره، وانتظرت حتى صدر الكتاب فاشتريته واستفدتُ منه.

ومن سخائه العلميّ أيضاً كتبه التي أهداني إيّاها، ولا أذكر أنّه أهداني كتاباً إلّا وهو عندي قد اشتريته قبلاً، لكنها لا تزال ثمينة عندي لأنّ عليها إهداءه وكلماته الطيبة المحفزة.



الإتقان في العمل:

ومن معالم شخصيته، بل لو أردت أن أقول إنه مفتاح شخصيته، لقلت: الإتقان، فهو يحب الإتقان، فلا تراه إلا أنيقاً، متعظراً، بسمتٍ جميل.

من إتقانه أنك لا تدخل بيته فتراه فوضى، وإنما ترى كل شيء مرتب، وشائق وجذاب.

من إتقانه طريقته في إخراج كتبه، فلا يُخرج كتاباً إلا بطريقة أنيقة وجميلة، ومصححٍ بغاية الإتقان، قلماً يمر عليك خطأ، إلا ذاك الخطأ الذي يفوت أحرص حريص.

ومن حبه للإتقان أن الكتاب إذا أُلّفه أو حقّقه ينمو عنده ويربّه كما يربّي أبناءه، وكانت كتبه أبناءه مع أبنائه، فلا يزال ينمي الكتاب بين يديه ويغذّيه بالفوائد والتمتات، فإذا ظهرت الطبعة الأخرى وجدتها غير التي قبلها.

لا أزال أذكر أنني كنتُ راكباً معه في السيارة، فقلت له: «شيخ عبد الفتّاح، كتابكم «الرفع والتكميل» يبدو أن الطبعة القادمة قد ملأت فيها ما بين السطور». فالتفت إليّ وقال: «ما بين السطور؟! بل ما بين الصفحات».

ثم حصلت على الكتاب بعد وفاة الشيخ من أخي الشيخ سلمان عبد الفتّاح، فتصفّحت الكتاب، وهي مسوّدة الشيخ الأخيرة التي يضيف إليها التعليقات والصفحات، فوجدته كما وصف: قد ملأ ما بين الصفحات بصفحات أضافها، وإذا الكتاب قد حُشي بالتعليقات والإضافات والاستدراكات.

فكان هذا مصداق قوله: «بل ملأت ما بين الصفحات».

وهذه الصفحات التي ملأ بها ما بين صفحات الكتاب الأصل إنما السرّ فيها حبه للإتقان، واجتهاده في بلوغ الكمال.



ومما تميّز به الشيخ إنصافه في البحث وتعظيمه للعلم والعلماء، ولذا فليس في كلامه طعنٌ في عالم، ولا وقية في مخالف، ولا كلمة خشنة موحشة في مساق الرد والنقد، بل كان التعظيم للعلم والعلماء يشملهم جميعاً حتى وإن كان لهم منهج يخالفه.

شيوخه ورواياته وإجازاته:

تطلّب الشيخ عبد الفتاح أهل الرسوخ العلمي، فتلقى عن كبارهم، ولقي مشاهيرهم، وجمع الإجازات العالية منهم، ومن شيوخه في مدينة حلب الشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ محمد راغب الطباخ، وغيرهم.

وسافر إلى مصر في وقت ثرائها العلمي، فكانت فلکاً لنجوم العلم في العالم الإسلامي مقيمين أو عابرين، فأخذ فيها عن الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ محمود شلتوت، والتقى بالشيخ مصطفى صبري، وتلمذ على الشيخ الكوثري، والشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، وغيرهم. وروى كثيراً من الأثبات عن كثير من الشيوخ ذوي الرواية والإسناد العالي، وبلغ عدد شيوخه مئة وتسعة وسبعين شيخاً.

وجمع مروياته وشيوخه المجيزين له وتلاميذه المجازين منه الشيخ المحقق محمد بن عبد الله آل رشيد في كتابه الفخم «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح».

وقد كان الحصول على إجازة منه قريباً ميسوراً، ولكن لقربي منه تباطأت في طلبها، ففاتتني إجازته، وحاولت تدارك بعض ما فاتني من الشيخ بالأخذ عن أقرانه، كالشيخ محمد أمين سراج، والشيخ فوزي فيض الله، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.



بين الكوثري وأبو غدة:

يُجمع الموافقون والمخالفون للشيخ الكوثري على مكانته العلمية، وسعة اطلاعه، ورسوخه في العلم، وتحقيقه إذا توجه للتحقيق، فيجمع من زوايا الكتب فرائد من غير مظانّها، فهو خير بخابيا الزوايا^(١).

وكان ممن لقيه وأعجب به شيخنا عبد الفتاح أبو غدة، وقد سأله عن لقائه به، فقال: كنت في مرحلة الطلب شديد الطموح، وكنت كلما لقيت عالماً وأعجبني قلت في نفسي: سأجتهد وأكون مثله، فلما تعرّفت على الشيخ الكوثري أعجبني وأبهرني، فقلت: هذا الذي مهما اجتهدت فلن أكون مثله.

وسأله عن أول لقاء بينهما، فقال: سمعت به وأنا في مصر فسعيت إليه، وصلينا معه الجمعة، فلما سلّمت عليه سألتني: من أين أنت؟ فقلت: من حلب. فقال: ألا تعرف الشيخ... ولم يذكر الاسم، فقلت فوراً: الشيخ راغب الطباخ؟. فقال: نعم نعم هو، وحدثته عنه، فكأنما فتحت لي أبواب قلبه، ومنها كانت العلاقة والصلة.

وقد بقي الشيخ عبد الفتاح شديد الإعجاب به، كثير الثناء عليه والدعاء له، وقد أهدى له بعد وفاته تحقيقه لكتاب «الأجوبة الفاضلة»، فقال: «إلى روح أستاذ المحقّقين الحُجّة المحدث الفقيه الأصولي المتكلم النظار المؤرخ النقاد الإمام محمد زاهد الكوثري رَحِمَهُ اللهُ».

(١) يُنظر في ذلك ثناء الشيخ عبد الرحمن المعلّمي على الكوثري في مقدمته لمقدمة الجرح والتعديل، صفحة (كو) وفي كتابه «الأنوار الكاشفة» (١٧٥)، وقال الشيخ الألباني عنه: الشيخ الكوثري في زمانه أعلم أهل الأرض بالحديث خاصة المصطلح والرجال. ا.هـ. مختصراً من موسوعة العقيدة، جمعها شادي النعمان من تسجيلات الشيخ الألباني.



ولكن الشيخ الكوثري، على رسوخ علمه، كان على حال وصفها الشيخ علي الطنطاوي، فقال: لقيناه في مصر فأبهرنا بعمقه العلمي، إلا أنه كان شديد التعصب لمذهبه، شديد التعصب على مخالفه^(١).

ولذا صدرت منه كلمات خشنة على من يخالفه مذهباً كـبعض علماء الشافعية، أو يخالفه معتقداً كالشيخ ابن تيمية وابن القيم، وله عبارات موحشة في مقام النقد والرد، جمع طائفة منها الشيخ بكر أبو زيد في رسالته: «براءة أهل السنة من الواقعة في علماء الأمة».

والحق أن الشيخ عبد الفتاح، برغم إعجابه إلى درجة الانبهار بالشيخ الكوثري، إلا أنه حافظ على استقلاله المنهجي، فلم يسلك هذا المسلك، بل كان من أكثر من رأيت إجلالاً لأهل العلم، وحفظاً لمقامات الأكابر، وغيره على مقامهم ومكانتهم، وإن اختلفت مذاهبهم ومناهجهم عن مذهبه ومنهجه. وقد حقق رسالة «الألفة بين المسلمين» لابن تيمية، وحقق «المنار المُنيف» لابن القيم، وقد رأيت إهداءه لتحقيقه لكتاب «الرفع والتكميل» كتبه للشيخ عبد الرحمن المعلمي، وهو صاحب الرد الضخم الثقيل على الكوثري في كتابه «التنكيل بما أورده الكوثري في تأنيبه من الأباطيل»، وقد كتب شيخنا له على الكتاب إهداءً وجيزاً لذيذاً، قال فيه: «هدية مقدمة إلى فضيلة الأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن المعلمي حفظه الله تعالى منهالاً وموئلاً للعلم والعلماء، من محبه ومستجيزه عبد الفتاح، خادم العلم بمدينة حلب. ٦ / ٢ / ١٣٨٣ هـ.

(١) من إفادات الشيخ نظام يعقوبي عنه.



ولم يكن الشيخ عبد الفتاح يصطحب خصومة الكوثري لخصومه، ولذا كان حفيًا بالأفاضل من أتباع الأثر ومعظمي ابن تيمية وموافقيه، وقد وقفت على رسالة أرسلها الشيخ عبد الفتاح إلى الشيخ محمد نصيف رَحْمَةُ اللَّهِ، وهو أثريٌّ معظَّمُ لشيخ الإسلام ابن تيمية، ناشرٌ لمنهجه ومؤلفاته، فرأيت رسالة الشيخ إليه، وكلها عذوبة وإجلال، قال فيها: سرّني جدًّا وكثيراً تلك الحاشية التي طرّزتم بها رسالتكم الكريمة، فهي من ذخائر التاريخ الذي لا يعرفه سواكم، أطال الله بقاءكم في عافية وسرور ونعمة سابعة. وقديماً قال الزمخشري في نوابغ الكلم: «الزيت مُخَّ الزيتون، والحواشي مخخة المتون»، فهي حاشية أفضل من أصل، ومعرفة أغلى من كتاب.

وكتب الشيخ عبد الفتاح ترجمةً لسته من كبار فقهاء العالم الإسلامي، ومنها ترجمة لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، المفتي الأكبر في المملكة العربية السعودية رَحْمَةُ اللَّهِ، وهي ترجمة حفيلة جليلة من أجمل ما كُتِبَ عن الشيخ وأوفاه، وقال عنه: كان الشيخ ابن إبراهيم إماماً عالمًا رزينًا، لا تخرج منه الكلمة إلا بوزنها وموضعها، ولا تهزّه الأباطيل، ولا يتحرف عن الحق ما علمه، واستفدت من علمه كثيرًا، ومن فضله وخلقه، وهو من شيوخني في هذه الديار.

فلما رأيت تعظيم الشيخ لشيخه الكوثري، وللأفاضل ممن يخالفونه، تذكرت كلمة سفيان الثوري حيث قال: «لا يجتمع حب عليٍّ وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال»^(١). ونشهد أن شيخنا عبد الفتاح أبو غدة كان من نبلاء العلماء، ومن محبي العلم ومعظمي حملته.

(١) «معجم ابن الأعرابي» (٨١٨).

الشيخ وأناقة الكلمة:

ومما تميّز به الشيخ عذوبة حديثه، واختياره من الكلمات أجملها وألطفها، حجّ مرة فتعجّل الرمي قبل الزوال على قولٍ في مذهب الإمام أبي حنيفة، فلقيه أحد الطلبة المحبّين، وعجب من تعجّله في الرمي، فأخبره الشيخ أن هذا قول في المذهب، فقال له: لكنه قول ضعيف، فقال الشيخ بلطف: «القول الضعيف للعبد الضعيف».

وكان في كلية الشريعة احتفال بعد المغرب، فلما حانت صلاة العشاء أذن الشيخ ثم أقام بثنية الإقامة على مذهب أبي حنيفة، فقال له أحد مشايخ الحنابلة: «أمر بلائٍ أن يشفع الأذان ويؤثر الإقامة».

فقال الشيخ فوراً: «وأمر غيره بغير ذلك».

وأرسل له ابنه أيمن يطلب منه اقتراح اسم لبنتٍ رُزق بها، فأجابه الشيخ في قصاصة ورقة ذكر فيها عدة أسماء مقترحة، ثم قال: «الوالدة الكريمة، ومعها العبد الضعيف، يستعذبون لكم اسم لبيبة، واختاروا ما تحبون».

فانظر إلى هذا اللطف والذوق في كتابة خاصةٍ في أمر خاص ما كان يظنّ أن تُظهر أو تُشهر، كيف يبدأ بذكر والدتهم الكريمة فيذكرها مفخّمة، ثم يضيف نفسه بتواضع جمٍّ إليها، فيقول: «ومعها العبد الضعيف»، ثم لم يقل «يقترحون» بل قال «يستعذبون». ثم ذكر خيارات عدة من الأسماء، ثم ترك الباب مفتوحاً لاختيارهم لو لم تناسبهم.

فإذا كان يتقي ويرتّب الكلمات في رسالة خاصة وفي أمر خاص، فكيف سيكون سبكه وبنائوه حين يكتب كتابة عامة في شأن العلم؟!.

اللقاء الأخير:

واستمرت علاقتي بالشيخ، وكنت أزوره بعد انتقاله عن جامعة الإمام، ولم تنقطع الصلة الطيبة به.

ولا أنسى آخر زيارة زرته فيها في مرض موته، لم يكن مُدْنَفًا، بل كان مستجمعًا قواه، لكنه كان مسترخيًا على السرير، أتذكره وكأنّ حديثه حديث مودّع، فكان كلامه يدور حول ثمرة العلم، وأنّ العبرة من العلم العمل.

وكان يذكر لنا قصة الفلاح الذي دخل على أحد العلماء في مدرسته، فأشار إلى رفوف الكتب، وقال: «أنا أعرف كلّ ما في هذه الكتب، كلّ هذه الكتب تقول: كن رجلاً صالحاً». فقال الشيخ: خذوها من غير فقيه، إنما يُراد العلم للعمل». ثم استطرد وذكر بعض العلماء الذين ظهر أثر علمهم في حياتهم، فقال: «كان معنا في كلية الشريعة شيخ، كان متألّهاً، ربانياً». فقلت له مباشرة: «تقصد الشيخ عبد العزيز الداود؟» قال: «يرحم جدّك، الشيخ عبد العزيز الداود»، ثم جعل يذكره بإجلال، ولا أزال أذكر أن وجهه تقلّص، وقطر الدمع من عينه عندما ذكر تألّه الشيخ عبد العزيز الداود.

وكانت هذه الزيارة الأخيرة، فقد توفي الشيخ فجر يوم الأحد (٩ شوال ١٤١٧ هـ)، ولكن الشيخ بقي حاضراً في الوجدان، ومعلّماً بذكره وذكرائه، وخالداً هديّه وعلمه، فرحمه الله، وأحسن منقلبه ومثواه^(١).



(١) يُنظر في ترجمة الشيخ عبد الفتاح: «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح» للشيخ المحقق محمد بن عبد الله الرشيد، و«العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة» د. رضوان عز الدين الحديدي الموصلي.





المحدث المجدد الشيخ د. أحمد معبد عبد الكريم



كنا طلبة في كلية الشريعة عام (١٤٠٠هـ) وكان أساتذتنا الذين يدخلون علينا شيوخاً كباراً في السن يعلوهم الوقار والهيبة؛ وكان هو الاستثناء بينهم، فقد دخل علينا وعمره قريب من أعمارنا، ولم يكن يتكلف وقار الشيوخ، فهو سريع في مشيته، دائم الابتسام، متسامح مع كل لغط وضوضاء يحدث داخل قاعة الدرس، لكن إذا شرح درسه كان شيئاً مبهرًا للطلبة الحريصين على الاستفادة العلمية.

ومما لاحظته في محاضرات الشيخ تفهمه لنفسية الطلاب، فقد كان يتحمل كثرة اللغط والأحاديث الجانبية بين الطلاب برحابة صدر ولا يجعلها تعوقه عن الاستمرار والتدفق والعطاء، وكم نظرت إليه وهو يتسم أمام إغراض الطلبة عن متابعة الدرس، ونضجر نحن لِحِرْصنا على الاستفادة منه، فيقول لنا بكل هدوء: «ألم تقرأوا: ﴿وَتَرْكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]؟... هذا كان الرسول ﷺ يخطب وقام بعضهم وتركوه قائماً، وقد تحمل الموقف، أفلا نحتمل ما احتمله ﷺ؟!».

وشدني إليه وقفاته الجميلة عند بعض الأحاديث منها: شرح حديث: كان رسول الله ﷺ إذا خطب علا صوته واحمرت عيناه كأنه منذر جيش يقول:



«صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ»^(١)، فيتجاوز المادة المقررة والمقررة، ليتحدث عن تشبع النبي ﷺ بما يقول، وقناعته وبقينه به، وليتحدث عن أن هذه من دلائل نبوته، وأنه متأثر بما يقول قبل أن يكون مؤثراً به.

وحين تكلم عن حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ - شعبة الشاك صلى ركعتين»^(٢). فوقف بنا أمام هذه الكلمة: «شعبة الشاك»، والتي كان يمكن أن تعبر عند كثيرين غيره ليقول لنا: لاحظوا كم من أجيال إثر أجيال تروي هذه الكلمة: شعبة هو الشاك، وكان يمكن لشعبة أن لا يعلن شكه، ولكنه روى وشكّ، فأعلن شكه بين كلمتين: هل هي أميال أو فراسخ؟ وبقيت كل الأجيال تروي التردد بين الكلمتين وتنسب هذا التردد لشعبة، ليصل بنا في النهاية إلى دقة الرواية للحديث النبوي وأمانة رواته في أدائه.

وهذا زحف بعلاقتي معه إلى الأمام، مع أنه ليس من النوع الذي يحتاج الطالب إلى مهارة لبناء العلاقة معه، فهو مفتوح القلب لكل أحد، سخي بعلمه لكل طالب.

ومن الأشياء التي جعلت العلاقة تُبنى بيننا سريعاً كثرة وجوده في مكتبة الكلية عندما كنت أجلس للقراءة فيها فأذهب إليه وأجلس معه لأسأله في المكتبة مع أنه أتى لينجز عمله العلمي لكنه لا يتردد أن يترك عمله الذي بين يديه ليُقبل علي ويحبب عن كل أسئلتي.

وكنت أذهب معه إلى مكتبة جامعة الملك سعود ومعه أوراق كتاب يحققه من أجل أن يتأكد من لفظة يطالعها في الفيلم المصور لمخطوطة الكتاب ثم يرجع، وبذا تعلمنا منه عملياً أمانة العلم وقيمة المعلومة.

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٦٩١).



ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أزوره في بيته الذي كان شقة صغيرة جداً وراء كلية الشريعة ورغم صغرها الشديد فإن الكتب قد أخذت حيزاً كبيراً من مساحتها.

وإذا زرتَه في شقته شعرت أن العلم يسكن معه، وأن البيت يتنفس علماً، وكنت إذا دخلتُ شَمَرْتُ وتحرَّيتُ موضع القدم، فعلى الأرض أربعة كتب مفتوحة، وصور مخطوطات منشورة، وعلى الطاولة بطاقات مصفوفة، وهناك كتب الطالب محمد المدرسية، وهنا طبق فيه بقية مشروع إفطار ابتدأته الطفلة هدى ولم تكمله، والشيخ يعيش مع هذه الفوضى الخلقة بألفة وانسجام.

انتهت السنة الدراسية في كلية الشريعة واستمرت العلاقة بالشيخ زيارات في بيته وتواصلاً معه حتى دخل علينا مدرساً في الدراسات العليا في كلية أصول الدين.

وهناك أعطانا التجربة العملية في مطاردة المعلومة، وفي التفاعل معها من خلال تدريسه لمادة التخريج، وكان يقول لنا: لن نحصل العلم حتى نضيع بين الكتب ونعرف دروبها ومسالكها، ثم كان من سعادة الحياة أنه أشرف علي في رسالة الماجستير وكان نمطاً فريداً في الإشراف العلمي، وشهدت شقته الصغيرة في شارع عسير سهرنا الليلي الشاتية الطويلة وأنا وإياه نراجع ما كتبته وهذا شيء لا يصنعه المشرفون غيره.

وكم خرجت من شقته في هزيع الليل فلا أجد في الشارع إلا سيارات الدوريات الأمنية وعسس الليل، وهذا العطاء جعله حاضراً في حياة الذين درسوا عليه فلا تنقطع صلتهم به.

وكان تأثيره بالغاً في حياتي العلمية، فهو الذي كشف لي جانب العظمة في علم الحديث النبوي، وهو الذي حبب إلي هذا التخصص، وقادني إليه.



وللشيخ براعة في التقاط المعلومة واقتناصها من غير مظانّها، زرته مرة فوجدت معه مصوَّرة مخطوط رسالة لابن حجر عنوانها «البسط المبعوث في خبر البرغوث»، فتساءلت في نفسي: ما الذي سيوجد في هذه الرسالة؟ فنظرت فإذا الشيخ قد علّق على غلاف الرسالة: «إذا أُطلق العزو إلى الطبراني فهو إلى معجمه الكبير»، ثم رقم اللوحة، فقد التقت هذه الفائدة من هذا الكتاب، وما هو بمظنة لها.

وكان لديّ تساؤل عن عمقه العلمي رغم صغر سنه بالنسبة للشيخ الذين يدرسوننا، حتى ذهبت مرة إلى جامعة أم القرى فأعطاني رقم موظف يعمل في مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى، وقال: لعله يساعدكم إن احتجتم إلى مساعدته. فلما اتصلت على هذا الأخ واسمه همام احتفى بنا ثم سألته عن معرفته بالشيخ فأخبرني أنه كان يعمل في دار الكتب المصرية، وكان الشيخ معبد يركب معه في الحافلة وهو ذاهب، ويرجع معه من المكتبة بعد أن ينتهي الدوام وهو راجع، فقلت: وكان الشيخ يعتكف في المكتبة كأحد موظفيها؟ قال: إي والله، وبذلك نشأت العلاقة بيننا، فعرفت أن علمه هو من مذخور جهد متناول جمعه في شِرَّة الشباب يوم كان زملاؤه يعيشون لهو الحياة في مدينة مفتوحة الآفاق كالقاهرة.

ولكن ثمة سؤال بقي يلح على ذهني وهو: لماذا عطاء الشيخ ومؤلفاته ليست على مستوى علمه، فعلمه أكثر وأغزر حيث إن من كان مثله يكون قد ملأ الدنيا كتباً، فلما تعمقت في حياة الشيخ عرفت أن نقطة قوته هي نقطة ضعفه، فغزارته العلمية تجعله يطارد المعلومة، ويبحث عنها حتى يمضي الوقت به دون أن يتم العمل، فهو في صراع مع الذئب الهیغلي، وقديماً قيل: طلب الكمال مقبرة الأعمال، وحين أخرج أول إصداراته وهو «النفح الشذي شرح جامع الترمذي» استغرقت تعليقة واحدة من التعليقات مئة صفحة، وهذه ليست حاشية بل كتاب رديف.



ومع ذلك فللشيخ عدة أعمال علمية، منها:

١ - تحقيق «النفح الشذي شرح جامع الترمذي» لابن سيد الناس، طبع منه ثلاث مجلدات.

٢ - الحافظ العراقي وأثره في السنة، طبع في خمس مجلدات.

٣ - علل الحديث بين القواعد النظرية والتطبيقات العملية.

٤ - ألفاظ وعبارات الجرح والتعديل بين الأفراد والتكرير والتركيب.

وله كتب وبحوث أخرى غيرها.

ولكن مؤلفاته الحقيقية هي دروسه الماتعة الرائعة، وزحوف طلابه الذين تخرجوا على يديه، وورثوا علمه.

وكان الشيخ يشرف في السنة على ستة طلاب، لكنه كان في الواقع هو المشرف على جميع الطلبة فكلهم يرجعون إليه، ولذلك لما تقدمت لتقديم رسالتي لنيل درجة الدكتوراه، لم يكن الشيخ هو المشرف علي ولا ضمن المناقشين لكنني شكرته في الرسالة، لشدة اهتمامه، وكثرة إفاداته، وكان مما قلت: إنني أذكر بالشكر المضاعف ذلكم الحبر الكبير الذي أسعدنا الله بالتلمذ على يديه في مرحلة الدراسة الجامعية، ثم في مرحلة الدراسات العليا، ثم للإعداد في رسالة الماجستير، ثم موجهًا ومعينًا في كل حين، لقد جمعني طريق العلم بعلماء أجلاء، ولكنه كان من أعمقهم في نفسي أثرًا، وأطيبهم ذكرًا، وأزكاهم علمًا، وأسمحهم نفسًا، وأغزرهم بحرًا، وأصفاهم موردًا، ولا أزكي على الله أحدًا، شيخي العلامة الدكتور أحمد معبد عبد الكريم سليمان حسن الكليباتي الفيومي الحنفي، والذي لقيني طالبًا في كلية الشريعة، فشد وثاقي بسلك من حرير، واقتادني من رواق الحنابلة إلى إيوان المحدثين، ولا يزال كما هو مشرق العلم،



متدفق الفضل، حتى علقته النفوس، وشدت إليه الرحال، ولم أعلم فيه عيباً أذكره غير جحوده الذي يصل إلى حد النكران لكل معروف يفعلُه أو جميل يسديه:

يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهراً
فله من الشكر أطيبه، ومن الدعاء أخلصه، والله يتولى عني مكافأته.

وقد بقي الشيخ مدرساً في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من عام (١٤٠٠ هـ) إلى أن قدم استقالته لظروفه العائلية سنة (١٤١٨ هـ)، وخلال هذه المدة عبرت من تحت يده أجيال، وتخرج طلاب وطالبات، وتكوّن قسم السنة وفق أسس علمية متينة وضعها وسار عليها من جاء بعده، وكل نتاج قسم السنة فهو ثمار حرثه وغراسه.

ولما عاد إلى مصر رجع إلى رحاب جامعة الأزهر، وعاد إلى التدريس في فرع الزقازيق، ثم فرع القاهرة، ثم كان من توفيق الله أن شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - حفظه الله - أحيا دروس الجامع الأزهر، فعهد إلى الشيخ أحمد معبد بتدريس علوم الحديث، فألقى دروساً طويلة في شرح «فتح المغيث» للسخاوي، و«شرح علل الترمذي» لابن رجب، وشرح «مقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، وكلها دروس مسجلة ومحفوظة، وهي من علمه الباقي لنفع الناس.

ولشيخنا عناية بالاستجازة من الكبار، وله ثبت طبع باسم «فيض الكريم في ترجمة وأسانيد شيخ المحدثين أحمد معبد عبد الكريم»، من تخريج تلميذه د. صلاح الدين الشامي، وكتب الشيخ في مقدمته ترجمة وافية لحياته العلمية في قرابة ثمانين صفحة، تفيض ثناء ودعاء وعرفاناً لشيوعه وأساتذته، ووصفاً لمسيرته العلمية المباركة، وهي وثيقة تاريخية للحالة العلمية في وقته.

نسأل الله أن يبارك في عمر شيخنا، وينسأ في أجله، ويمتعه متاع الصالحين، وأن يجعل ما بذله من علم مما ينفع الناس ويمكث في الأرض.



ثالثاً من شيوخ الإجازة





١ - الشيخ حمود بن عبد الله التويجري



شيخنا ومجيزنا العالم الناسك الزاهد بقية السلف الصالح الواعظ بحاله قبل مقاله الشيخ حمود بن عبد الله التويجري.

كان رَحِمَهُ اللهُ شيخاً لوالدي قرأ عليه في صغره عندما كان قاضياً في بلدتنا، فهو بهذا ملحق الأبناء بالأباء، وكان الشيخ ذا سمت ومهابة ووقار، منقطعاً للعلم قراءة وتأليفاً مع حفظٍ وافر من التعب، وكنت أزوره في بيته، وأحضر بعض مجالسه، فكان قليل الكلام، وافر الهيبة والحرمة، وله سمت في مجلسه، وهو مستمع أكثر منه متحدثاً، وكلامه قليل، ووجوده يفرض انضباطاً في الحديث، فليس ثمة لغو أو فضول قول.

وللشيخ أبناء بررة صالحون، هم المشايخ: د. عبد الله، ومحمد، وعبد العزيز، وعبد الكريم، وصالح، وإبراهيم، وخالد، وكلهم على حال من العلم والفضل والاستقامة، فهم كما قيل في وصف أبناء المهلب بن أبي صفرة: «كالحلقة المُفَرَّغة لا يُدرى أين طرفها»، وكان الحافظ ابن حجر يقول: «قل أن يجمع الله للعالم بين جودة التصنيف ونجابة الولد». قلت: ولكن شيخنا ممن جمع الله له ذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



وقد كنت أزوره في المستشفى حين مرض، وطلبنا منه الإجازة، فأجازنا وهو في المستشفى بثبته، وقرأ علينا الحديث المسلسل بالأولية، وكنت في هذه الزيارة مع الشيخ سلمان العودة والشيخ عائض القرني، وكان ذلك في مرض وفاته **رَحِمَهُ اللَّهُ**.

ولد الشيخ في المجمععة عام (١٣٣٤هـ) وتوفي والده وهو دون الثامنة، فرعته أمه، فنشأ نشأة صالحة، وأتم حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، وتلقى العلم عن جمع من المشايخ، منهم: الشيخ عبد الله العنقري، والشيخ محمد بن عبد المحسن الخيال، والشيخ سليمان بن حمدان، والشيخ عبدالله بن حميد حين تولى قضاء المجمععة، ويظهر أن دراسته عليه كانت لجمع الطلبة حوله، وتأليفهم عليه، وإلا فإن الشيخ حمود حينئذ كان قد تأهل علمياً، ولذا سمعته يقول: الذي درسناه على الشيخ ابن حميد هو ما درسناه على الشيخ العنقري والخيال.

لكن شيخه الذي لازمه وتخرج عليه هو فقيه نجد في وقته، وقاضي بلدته المجمععة، الشيخ عبدالله العنقري، وهو صاحب حاشية «الروض المربع» التي جمع فيها حواشي علماء الحنابلة على «الروض»، فقد بدأ القراءة عليه وهو في الثالثة عشرة من عمره، ولازمه مدة تزيد على خمس وعشرين سنة، وقرأ عليه كتباً كثيرة قراءةً بحثٍ ونظراً، فقرأ عليه «الروض المربع» مراراً مع حواشيه، وقرأ عليه «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم»، و«المقنع» و«المغني» لابن قدامة، و«فتح الباري»، وغيرها.

ولي القضاء في «رأس تنورة» ستة أشهر، ثم تولى القضاء في بلدنا الزلفي، وكان له فيها مجالس علم، كما كان له مجالس قضاء، واستمر في قضاء البلد وبذل العلم فيها أربع سنين، ثم اعتزل القضاء، وتفرغ للعلم، وأقبل على شأنه.



وكان له سيرة في القضاء فيها الفطنة والمهابة والحزم، ولقيت من كبار السن من يذكرونه بها، وقال لي أحد أعمامي الكبار، تولى القضاء عندنا كثير، فأما الذي لا يمكن أن يُكذب أمامه فهو الشيخ حُمود، وذلك لهيبته وصرامته.

وكما كان حازماً في القضاء، كان حازماً في تعليمه، ولذلك لا يستمر عنده إلا الجاد من الطلبة، وقد حدثني والذي أنه تأخر عن درس الشيخ حين كان يقرأ عليه أياماً لمرضه، ولصغر سنه لم يعتذر للشيخ، ولم يبين له السبب، فأظهر له الشيخ الإعراض، ومنعه من القراءة حتى مضت مدة رأى فيها حرصه ومواظبته على الحضور، فسمح له باستئناف القراءة، وفي هذا تربية على الجدِّ والالتزام وأخذ العلم بقوة.

وقد اعتزل الشيخ القضاء، ولم يمض فيه إلا أقل من خمس سنين، واعتزل كل وظيفة رسمية، وتفرغ للعلم والنسك، واجتمع على ذلك، فعاش عمره على سنن واحد، ولم يجلس للتعليم، وأحسب ذلك لصعوبة شرطه في التعليم.

ولذا جمع همه على التأليف، فكثرت مؤلفاته، حتى نافت على ستين مؤلفاً. وأكثرها ردود علمية، وله كتب في مواضيع خاصة، مثل «إتحاف الجماعة فيما جاء في الفتن والملاحم وأشرار الساعة»، وفيه جمع واستقصاء بالغ. وكتاب في الهجر المشروع^(١)، وكان الشيخ بكر أبو زيد معجباً بكتابه هذا كما حدثني، واستفاد منه في كتابه «هجر المبتدع».

وأما كتب الردود فهي كثيرة في مسائل متنوعة عقدية وفقهية، وله مراسلات ومناصحات خاصة مع ولاية الأمور، هي من النصح لأئمة المسلمين، سلك فيها طريقة السلف في النصح الذي يصحح ويؤلف ولا ينفّر ويفرق، ولم يكن يظهرها ولا يُشهرها، ومنها مراسلات للملك فيصل والملك فهد رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

(١) وعنوانه: تحفة الإخوان بما جاء في الموالات والمعاداة والحب والبغض والهجران.



وللشيخ عناية بالرواية والإجازة، وله ثبت سماه: «إتحاف النبلاء بالرواية عن الأعلام الفضلاء»، أورد فيه روايته عن شيخه عبدالله العنقري، وسليمان الحمدان، ابتدأه بالحديث المسلسل بالأولية، وأسانيده إلى الكتب الستة، ثم روى جملة من المسلسلات، وثلاثة عشر من الأثبات، ثم ختم بإسناده للفقهاء الحنبلي، وروايته لمصنفات الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

ويعد «إتحاف النبلاء» من عيون الأثبات النجدية المتأخرة، لاشتماله على عدد من الميزات، من ضبط المشكلات، وتحرير الأسانيد والنقولات، والتعليق على ما يرد في بعض الأثبات من البدع والمحدثات، ويقع الثبوت المخطوط بقلم مؤلفه في ثلاث وخمسين صفحة، واعتمد في كتابته على ما جاء في ثبت الشيخ ابن عتيق، وإجازة شيخه العنقري، مع رجوعه إلى عدد من الأثبات المطبوعة، كالإمداد، وبغية الطالبين، وهادي المسترشدين، وحسن الوفا، وإتحاف الأكابر، وغيرها، إضافة إلى مراجعات متعددة لكتب التراجم والطبقات لتصحيح ما وقع في بعض الأسانيد من الأوهام^(١).

وقد كان الشيخ حازماً شديداً على نفسه أولاً، ويظهر ذلك في انضباطه في أموره، ومن أوضحها: بكوره إلى صلاة الجماعة، فقلما أذن المؤذن إلا وهو في مكانه من المسجد خلف الإمام.

وقيام الليل عنده كالفرائض الخمس، لا يخل به بحال، وهو قيام طويل يقرأ فيه أكثر من أربعة أجزاء، مع التزام بصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وصرامته في حفظ الوقت والانشغال بالعلم، وكان له سمت ووقار وهيبة، ومن رآه وهو لا يعرفه علم حاله من سمته وهيبة.

(١) «الإجازة العلمية في نجد» د. هشام السعيد (١١٥).



وعندما توفي في عام (١٤١٣ هـ) احتشد جمع غفير شهدوا الصلاة عليه، وكان في مقدمتهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وَلَفَظَتِ القرى عِبَادَهَا وزهَادَهَا ليشهدوا الصلاة عليه، فقد كان منظوراً إليه، ومشهوداً له بالنسك والورع والزهادة منجمعا عن الدنيا معرضا عنها بِكُلِّه.

وأحسب أنه ممن لو أدركه أبو نعيم لوصفه في «حلية الأولياء»، ولو أدركه ابن الجوزي لسلكه في «صفة الصفوة»^(١).

رَحِمَهُ اللهُ وغفر له، وأعلى في درجات الجنة نُزْلَه.



(١) باختصار من «وفاء العقود في سيرة الشيخ حمود» للشيخ د. عبد العزيز السدحان.



٢ - الشيخ عبد الله الغماري

الشيخ العلامة الحافظ المحقق عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري. لقيته في الحج، وكان هذا اللقاء الأول مع الشيخ، وأجازني فيه بمروياته ومؤلفاته وهي أول إجازة أخذتها.

لقيته في اليوم السابع من ذي الحجة بمكة سنة (١٤٠٦ هـ)، وكان قد فرغ من ذبح الهدي فسألته كيف يُذبح الهدي قبل العيد؟

فقال: قد بلغ الهدي محله، وكان يرى جواز ذبح هدي التمتع قبل يوم العيد كما هو مذهب الشافعي، لأن هذا أرفق بالحجاج، وهو رأي شيخنا عبد الله بن منيع وله فيه رسالة.

فلما ذهبت يوم العيد إلى المنحر، فإذا الذبائح مركومة تجرفها الجرافات إلى هاوية سحيقة ثم تطمر بعد ذلك، ومنها ما يذهب إلى المحرقة.

فعلمت أن هذا القول خير من أن تؤخر إلى يوم العيد ثم تنحر وتطمر، فلم يشرع الله الهدي لإطعام الأرض، ولكن لإطعام القانع والمعتز.



وعجبت حينها من علم الشيخ بالمخطوطات وما لم يطبع من الكتب، وعلق بذهني كلامه عن حديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، ورسالة ابن عقدة في طرقة.

وكان حين لقيته قد كبر وأصابه الرعاش في يده اليمنى، ولكنه كان حاضراً مستحضراً، ووافيت عنده طلبة علم من الأحساء فذاكروه ببعض المسائل العلمية ثم طلبوا منه الإجازة فأجازهم فتجرات وطلبت الإجازة منه فأجازني، وأحالني بثبته إلى الأخ محمود سعيد ممدوح، وكانت أول إجازة أحصل عليها، وكان الشيخ متميزاً بتفنه ورسوخه في الأصول والفقه مع التمكن في الحديث.

ولد الشيخ عبد الله سنة (١٣٢٨هـ) في مدينة طنجة، ونشأ في أسرة علم وفضل، ووالده الشيخ محمد بن الصديق الغماري من محدثي المغرب، وله زاوية معروفة بالزاوية الصديقية، تلقى فيها دروس الحديث والفقه واللغة، وكان والد الشيخ أول من تعهد ابنه وعلمه، فحفظه القرآن الكريم وعدة متون في اللغة والفقه والحديث، وبعد هذه الدراسة الأولية ارتحل إلى مدينة فاس، فدرس على علمائها، ثم دخل جامعة القرويين، ثم عاد إلى طنجة، وانتظم في دروس والده، وألف في هذه المرحلة، وهو لا يزال طالباً أول مؤلفاته، وهو شرح على الآجرومية.

ثم سافر إلى مصر لطلب العلم في الأزهر، وكانت مصر في ذلك الوقت تفور علماً، وتتنفس ثقافة وأدباً، وكانت عامرة بالعلماء الراسخين، ومقصداً لعلماء الأمصار، يقصدونها ويقيمون فيها، ففيها الشيخ محمود الشنقيطي، والشيخ مصطفى صبري، والشيخ الكوثري، والشيخ الخضر حسين، والشيخ رشيد رضا، والملك محمد إدريس السنوسي، ومن علمائها الراسخين: الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ يوسف الدجوي، وغيرهم، فدرّس في الأزهر، وأفاد من علماء مصر، ومن الواردين عليها.



وكان في الوقت نفسه يُدرّس في الجامع الأزهر في الرواق العبّاسي، والتفّ حوله الطلبة الوافدون وانتفعوا بعلمه.

وتخرّج من الأزهر، وحاز الشهادة العالميّة.

وألف كتباً كثيرة، منها:

«توجيهات دينية»، و«بدع التفاسير»، و«الاجتهادات والإضافات العلمية»، و«الاجتهاد في تخريج أحاديث المنهاج»، و«تمام المنة لبيان الخصال الموجبة للجنة»، و«الحاوي في فتاوى عبد الله بن الصديق الغماري»، وغيرها، وقد طبعت موسوعة أعماله الكاملة في (١٢) مجلداً.

كما شارك في تحقيق كثير من الكتب، منها جزء من التمهيد لابن عبد البر، وتنزيه الشريعة المرفوعة لابن عراق، والمقاصد الحسنة للسخاوي، و«أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ، وغيرها.

وقد تعرض لمحنة ظالمة في الحقبة الناصرية، فسُجن عام (١٣٧٩ هـ) ولم يخرج من السجن إلا في عام (١٣٨٩ هـ).

ثم أقام المدة الأخيرة من حياته في مدينة طنجة، وبها توفي عام (١٤١٣ هـ).

وكان محل التقدير من جلة العلماء، قال عنه الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف: «وفضيلة الأستاذ المحدث قد وُهب قريحة وقّادة، وحافظة قوية، وبصيرة نفّاذة، قلّما نجد في هذا الباب مثله».

وقال عنه شيخنا الشيخ محمد عوامة: لم ألق من يوصف بالاجتهاد إلا الشيخ عبد الله الغماري، ولقيت ثلاثة يمكن أن يوصفوا بالحفاظ هم الشيخ عبد الله سراج، والشيخ أحمد الغماري، وأخوه الشيخ عبد الله الغماري.



وللشيخ ترجمة كتبها لنفسه في آخر كتابه «بدع التفاسير»، وله ثبت مطبوع بإجازته ومروياته «ارتشاف الرحيق من أسانيد عبد الله بن الصديق»^(١).
غفر الله له ورحمه، وجزاه كل خير عن العلم وحملته.



(١) يُنظر في ترجمته: ترجمة الشيخ لنفسه في آخر كتابه «بدع التفاسير»، و«عبد الله الغماري بقية السلف الصالح» لأحمد تمام.



٣ - الشيخ عبد الرحمن الكتاني

شيخنا ومجيزنا مسند العصر المعمر عبد الرحمن بن محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، أما والده فهو العالم الكبير عبد الحي بن عبد الكبير، صاحب الكتب والمكتبات، والمؤلفات والإجازات، جمع ما لم يجمع غيره، وألف ما لم يؤلف غيره، وسيرته مفردة بالتأليف.

ولذا كان من سعادة شيخنا الشيخ عبد الرحمن نشأته في هذا الكنف العلمي، وقد سعى به أبوه فحصل له الإجازات العالية في بكور عمره، وقد أنسا الله في أجله، فعاش قرناً من الزمن ممتعاً مصحوباً بعافيته وفطنته وعافية نفسه.

وزرته مرة في داره بمدينة فاس مع أخي د. محمد السليمان د. محمد عبد الغفار الشريف، وأجازني، ثم زرته بصحبة الشيخ سلمان العودة، وكتب لي الإجازة ولأولادي، ولفت نظرنا صحة جسمه وذهنه مع أنه قد جاوز المئة، وكان سمحاً في الإجازة، مُرحباً بقاصديه، ذا نفسٍ رضية، ولعل ذلك من أهم أسباب تمتعه بعافيته البدنية والنفسية.



وُلد شيخنا عام (١٣٣٨ هـ)، وعاش في كنف والده العلامة الكبير عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، الذي اعتنى به وبإخوته عنايةً فائقةً، ونشأهم تنشئةً علميةً منذ طلائع وعيهم، وكان يعيّن لهم العلماء الذين يحضرون عندهم، ثم يسألهم إذا رجعوا، ويختبرهم فيما درسوه، فحفظ القرآن في صغره، ثم حفظ المتون المختصرة كالأربعين النووية، والآجرومية، ومختصر خليل.

ولزم دروس والده، وقرأ عليه كثيراً، فقرأ عليه «صحيح البخاري» سبع عشرة مرةً، وحضر عليه قراءة «صحيح مسلم» مراتٍ عديدةً، و«سنن النسائي» و«أبي داود» و«الترمذي» و«الشافا» للقاضي عياض، و«الشمائل» للترمذي، وكانت تُقرأ عليه في كل رمضان، وسمع عليه الكثير من كتب الحديث والفقه والتفسير.

وعُرضت عليه وظائف كثيرة في حياة والده، فاعتذر عنها كلها، وقال: «يكفيني من الدنيا ملازمة شيخني الوالد»، ولم يعمل أي عملٍ في حياة والده سوى صحبته وخدمته والتلقي عنه.

وتحدث عن والده الشيخ عبد الحي، فقال: «كان الوالد لا يفارقه الكتاب في جميع أحواله، ويوصينا إذا ترك كتاباً في مكانٍ في البيت أن لا يحرك من مكانه، وكان لا ينام إلا غلبةً، وهو يطالع كل ليلةً.

وكان نومه الغالب وقت القيلولة، وباقي وقته معمور بالقراءة والتدريس واستقبال الزوار.

وكان درس الوالد في القرويين ثابتاً في وقتين، الأول من الساعة الحادية عشرة زوالاً إلى وقت الظهر، وغالباً ما يكون في علوم الحديث، وخصوصاً ألفية العراقي، والدرس الثاني بعد المغرب إلى العشاء الآخرة، ويطول المجلس فيه، ويمتلئ مسجد القرويين، ولم يكن يقطع الدرس صيفاً ولا شتاءً.



وحين حج في حجته الثانية، وفتحت الكعبة ودخلها، كتب إجازةً لشيخنا عبد الرحمن على نسخة خطية من «صحيح البخاري»، مع أنه قد أجازته قبل ذلك، فكانت إجازته مكتوبةً على «صحيح البخاري» وفي جوف الكعبة.

وكان يوم الجمعة موعداً ثابتاً لزيارة العلماء للشيخ الوالد عبد الحي، وكلُّ يطرح مسألته التي أشكلت عليه، ويأمر الشيخ بإحضار الكتب التي فيها حل هذه الإشكالات. وكان الوالد يكرم تجار الكتب وسماسرة المخطوطات على مدار السنة، استرضاءً لهم وجلباً لخواطريهم، ليؤثروه بالكتب والنوادر، ويقدموه على غيره في عرضها عليه. ولم يثبت في حياة الوالد أنه دخل سوقاً من الأسواق مدة حياته إلا سوق الكتب. وكنا صباح كل خميس نقوم برش المخطوطات بدواءٍ مضادٍ للأرضة «النمل الأبيض»، ونمسح المكتبة بأنفسنا بحضور الشيخ ومراقبته.

وكان أعز شيءٍ عنده الكتب، فلا تجد مكاناً في بيته أو سيارته خالياً من كتاب. وقد عاصر شيخنا عبد الرحمن الكتاني محنة والده ومصادرة مكتبته، ولله شعوره ومشاعره وهو يرى نفائس والده وذخائر كتبه تُصادر، وينقلها العمال والعتالون كما يُنقل الطوب والأحجار، فتعرض للتلغف والسرقة.

قال الشيخ: «قد رأيت أثناء المصادرة من العمال من يرمي في الأرض تحفًا ونقوداً قديمةً أثناء حملها، ثم يعود إليها ويضعها في جيبه وأنا أنظر، ولم يكن باستطاعتي الكلام.

واستمر إحصاء كتب الوالد قبل مصادرتها ستة أشهر، من الصباح إلى الساعة الثانية عشرة، ومن الساعة الثانية ظهراً إلى السادسة مساءً»^(١)، لكثرتها وضخامتها، فيا لله!

(١) باختصار من «تحفة الأماجد في ذكريات الولد مع والده الماجد» لأخي الشيخ د. خالد السباعي.



أي ثروة من الذخائر والتحف والمخطوطات والنفائس كانت؟! وهي ما جمعه الشيخ في سعة عمره، وأنفق فيها وقته وماله وخبرته، ثم يراها تُغتصب أمامه قهراً وظلماً، وياله من كبدٍ أعقب كمداً، ولكنه الابتلاء الذي نرجو أن يُوفّى عليه الشيخ أجره بغير حساب.

وعلى شيخنا الشيخ عبد الرحمن مدار الرواية في عصرنا، بل لم يتهياً لأحد في القرون المتأخرة ما تهيأ له من كثرة الآخذين عنه، وإقبال الخاصة والعامة عليه، وإقامة مجالس سرد السنة التي يحضرها المئات، بل الآلاف، وأذعن له في الرواية أعلام الوقت، وافتخروا بالأخذ عنه من علا شأنهم أو نزل، وفاق أقرانه في سعة الرواية، وضبطها، وكثرة من أخذ عنهم، وبعد الزمان بين وفاتهم وحياته.

ولم نسمع بمثله ممن ختمت عليه الكتب الستة مرات؛ خاصة الصحيحين، و«الموطأ»، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، و«السنن الكبرى» للبيهقي، و«مسند الدارمي»، وغير ذلك من الأصول التي بعد الزمان بسردها وروايتها، علاوة على ما لا يحصى من الأجزاء الحديثية القديمة والحديثة، وكتب «الشمال» والسلوك؛ كشمال الترمذي، و«الشفاء» للقاضي عياض، وغير ذلك.

إضافة إلى ما تحمله من المسلسلات، مع تحرير الرواية، وضبطها، وتأكد صدقيتها ووصلها، من أصول هي بخط والده الحافظ، أو بخطه، أو خطوط أصحابها.

وناهيك بشيخ ادخره الله تعالى لزماننا، وهو يروي عن محمد بن عبد الرحمن الديسي المتوفى عام (١٣٣٩هـ)، وأحمد رضا خان البريلوي المتوفى عام (١٣٤٠هـ)، وأحمد بن محمد ابن الخياط الزكاري المتوفى عام (١٣٤٢هـ)، والمهدي الوزاني المتوفى عام (١٣٤٣هـ)، ومحمد بن جعفر الكتاني المتوفى عام ١٣٤٥... الخ، بحيث بينه وبين بعض شيوخه أكثر من مائة عام، كل ذلك بالرواية المحققة بخطوط أصحابها، وهذا ما لم يتم إلا لأفراد قلائل في الأمة المحمدية.



وممن يروي عنهم عدا من ذكرت: والده حافظ العصر الشيخ عبد الحي، وعبد الستار الدهلوي الهندي، وشعيب الجليلي، وعبد القادر الشلبي، وعمر حمدان المحرسي، وأحمد العمراني، وحسين العراقي، وأمة الله الدهلوية، وبدر الدين الحسني، وزاهد الكوثري، وبخيت المطيعي، والصادق النيفر، والملك إدريس السنوسي، وعلي العدلوني، وغيرهم من أعيان الوقت.

وتصدر للتدريس بالزاوية الكتانية بفاس، فدرّس كتب الفقه: «الرسالة»، و«مختصر خليل»، وغير ذلك من العلوم، التي تلقاها عنه الآخذون عنه. ثم ناله ما نال من الابتلاء الذي وقع على والده، فصبر واحتسب، وانزوى عن الناس، ولازم خويصة نفسه، وأقبل على شأنه، واختلى بربه.

حتى أراد الله إظهار شمس، وإعلان مقداره بين الناس وفضله؛ فهرع إليه الناس أفواجا للسمع والإجازة، وتزاحموا على مجالسه حتى ضاقت، ولم يعد يجد وقتا لشؤونه الخاصة بله غيرها.

زد على ذلك صبره وجلده في مجالس السماع، بحيث قد يقضي كل يومه في مجلس لا ينقطع إلا وسط النهار، ويستمر إلى منتصف الليل، وهو صابر محتسب، بشوش، مجلسه مجلس أنس وروحانية، وعلم وفائدة وسماع.

وهو على حال من الاستقامة، والزهد، مع عدم التكلف أو التزمت، حال الراسخين، لا يغتاب أحدا، ولا يتحدث لغوا^(١).

توفي شيخنا عصر يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الأولى عام (١٤٤٤هـ)، عن عمر ناهز (١٠٦) سنوات، بقي فيها ممتعا بحواسه، وجل صحته، رَحِمَهُ اللهُ وجزاه عن طلبة العلم ورواته خير ما جرى عباده الصالحين.

(١) باختصار من ترجمة شيخنا عبد الرحمن الكتاني لأخي الشيخ د. حمزة بن علي الكتاني.



وقد جمع مروياته وثبته أخي الشيخ محمد زياد التكلة بعنوان: «نيل الأمانى بفهرسة
مسند العصر عبد الحي الكتاني»، وكذلك أخي الشيخ محمد حدود التسماني في
مجموع مطبوع يحتوي على أربعة أجزاء في أسانيده.



٤ - السيد أحمد بن أبي بكر الحبشي

وهو ابن قاضي مكة السيد أبي بكر بن أحمد بن حسين الحبشي، ولد في مكة عام (١٣٥٧ هـ)، وكان لأبيه به عناية خاصة، ولوجود والده في مكة ولقائه العلماء الوافدين عليها وهو في مكانته وجاهه، كل ذلك يسّر له الاستجازة لولده في بكور حياته من كبار المسندين المقيمين في الحرمين والوافدين إليها، ولذا تميز على أترابه من أهل الرواية بعلو الإسناد، كما تميز بجمع طرق الأسانيد من أمصار متعددة: الهندية والشامية واليمانية وغيرها، وقد تحدث عن ذلك فقال: «نشأت وترعرعت في كنف والدَيَّ رَحِمَهُمَا اللهُ وفي شهر محرم (١٣٦٠ هـ) زارنا نخبة من العلماء الأفاضل في المنزل، وعلى رأسهم العلامة محدث الحرمين الشريفين الشيخ عمر بن حمدان المحرسي، وبطلب من الوالد تفضّل الشيخ بإجازتي في كل ما أجازهُ به مشايخه من أهل الحرمين وغيرهم، بعد أن تلا عليّ المسلسل بالأولية، وبذلك أعتبر الشيخ عمر حمدان رَحِمَهُ اللهُ أول مشايخي الذين حدّثوني وأسمعونني هذا الحديث المبارك وبحضرة من المشايخ الفضلاء رَحِمَهُمُ اللهُ، ومنهم الوالد جزاه الله خيراً، وكان سنّي إذ ذاك عامين ونصف.



في أواخر رجب عام (١٣٦١ هـ)، قمنا بزيارة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكان مما حبايني به الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ اصطحابي معه في زيارته المشايخ الأفاضل الكرام بالمدينة، ومن ذلك زيارتنا للشيخ المسند الجليل عبد القادر توفيق الشلبي في يوم الثلاثاء (٢٩) رجب (١٣٦١ هـ)، وطلب الوالد الإجازة منه، فأجازه بكل ما يرويه عن مشايخه إجازة عامة، بعد أن حدّثنا بالحديث المسلسل بالأولية، وأجازني بما أجاز به الوالد إجازة عامة.

وكذلك زيارتنا للعلامة المسند شيخ عصره الشيخ محمد عبد الباقي الهندي ثم المدني في يوم الأربعاء (٢١) شعبان (١٣٦١ هـ)، حيث أخذ الوالد عنه حديث المحبة، وقد طلب منه الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يجعله بالجمع لأدخل في ذلك؛ فأعاده شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ بالجمع بلفظ: «إني أحبّكم..» فكنّْتُ ضمن مَنْ شملهم ذلك، وفي نفس اليوم أجازني الشيخ الفاضل محمد عبد الباقي في عموم مروياته وتقبّل الوالد عني الإجازة، والحمد لله على ذلك»^(١).

وقد حفظ القرآن ودرس في مدرسة الفلاح على يد الأكابر، كالشيخ محمد العربي التباني، والشيخ أحمد عبد الماجد العبّاسي، وقرأ على والده الشيخ أبو بكر شرح البيقونية للشيخ حسن المشاط ومنتخب كنز العمال، ثم توفي والده عام (١٣٧٤ هـ) وعمره حينئذ سبعة عشر عاماً، ثم أكمل تعليمه بعد ذلك، ولكنه لم يواصل في التخصص الشرعي، وإنما اختار مجال الهندسة، وفيها تخصص وعمل حتى تقاعده عام (١٤٠٩ هـ)، وقد أخرج كتاب والده «الدليل المشير إلى فلك أسانيد الاتصال بالحبيب البشير» وهو ثبت والده الذي كتبه، وتوفي وهو لا زال مخطوطاً، وعقد مع أخيه محمد جلسة أسبوعية يحضرها أهل العلم ومحّبّوه، ويقرأ فيها الحديث والفقه الشافعي، فعاد إلى العلم الذي ابتدأ حياته معه.

(١) يُنظر: «طيب الذكر» (١٤).



وقد جمع ثبته ومروياته مفصلة الأخ الشيخ عمر بن محمد سراج في كتابه «طيب الذكر في ثبّت وأسانيد أحمد بن أبي بكر».

وكان **رَحْمَةُ اللَّهِ** دمث الخلق، سمحاً في المعاملة، باذلاً للإجازة لمن طلبها، فقد اتصلت عليه بالهاتف وهو لا يعرفني وسألته الإجازة فأعطانيها، وحدثني بالحديث المسلسل بالأولية. ثم زرته في بيته في جدة، فأحسن الاستقبال، وحدثني عن والده وقيامه بالقضاء في مكة، وعن لقياء لكبار المسندين في مكة والمدينة، وحدثني عن والده، وأنه كان يحج كل عام، فإذا صعد إلى عرفة جلس ومعه سبحة فيها ألف خرزة فيقرأ: «قل هو الله أحد» ألف مرة في هذا اليوم، ويرى ذلك أفضل ما يذكر الله به، ويفصل بعد كل مئة بالتهليل والتلبية.

وأحتسب له ما أحتسب للصحابي الذي كان يقرأ «قل هو الله أحد» في كل صلاة وقال: إنها صفة الرحمن وإني أحبها، فقال رسول الله **ﷺ**: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»^(١). وكان والده الشيخ أبو بكر إذا حجّ لا يقصر ولا يجمع في عرفة ومزدلفة، لأنه من أهل مكة، ولا يرى لأهل مكة الجمع والقصر.

وقد تُوفي السيد أحمد **رَحْمَةُ اللَّهِ** بمدينة جدة في غرة ربيع الأول سنة (١٤٤٥ هـ) **رَحْمَةُ اللَّهِ** وغفر له، وأثابه على عنايته بالرواية وخدمته لمرويات والده، وبذله لما رواه، وإفادته من قصده^(٢).



(١) «صحيح البخاري» (٧٣٧٥)، و«صحيح مسلم» (٨١٣).

(٢) يُنظر في ترجمته سيرته التي كتبها في مقدمة ثبته «طيب الذكر في ثبّت وأسانيد أحمد بن أبي بكر».



هـ - الشيخ رحمة الله الأركاني المدني

شيخنا ومجيزنا الشيخ المعمر المسند رحمةُ اللهِ بنُ عبد الغني الأركاني ثم المدني، زرتَه في بيته في المدينة مع أخي الشيخ حامد بخاري، والشيخ سعيد طوله، وأجازنا إجازةً عامةً، وحضرت عنده بعض مجالس السماع لـ «صحيح البخاري».

وهو من النوع الذي إذا جلست إليه شعرت بسكينة نفسه، وسلامة قلبه، وأنه ممن يعيش في الدنيا ولا يعنيه شيء منها، لِمَا ترى من سكينته ورضاه، وفيه ود وحفاوة بطلابه وقاصديه، وبَذَلُ نفسه لهم.

ولد في أركان من دولة بورما في أول رجب من سنة (١٣٤٣ هـ)، في قرية تبعد عن العاصمة قرابة (٧٠ كم)، وبدأ طلب العلم الشرعي في بلده، ثم هاجر إلى الهند لطلب العلم، فالتحق سنة (١٣٦٧ هـ) بجامعة مظاهر العلوم سهارنفور، طمعاً في الأخذ عن الشيخ عبد الرحمن الكاملبوري، فأقام بها ثلاثة أشهر، ثم أغلقت المدرسة بسبب تقسيم الهند، وسافر الشيخ عبد الرحمن الكاملبوري إلى باكستان، ولم يرجع إلى الهند.

ومن شیوخه فیها: صدیق أحمد النحوی، وجمال أحمد التهانوی، وسعید أحمد الأجراروی.

ثم التحق بجامعة دیوبند، وأقام بها خمس سنوات، وتخرج منها سنة (١٣٧١هـ)، فقرأ فیها «صحیح البخاری» والمجلد الأول من «جامع الترمذی» علی العلامة حسین أحمد المدني.

وقرأ «صحیح مسلم» علی إبراهیم البلیاوی، وقرأ «سنن أبی داود»، و«الشمال»، والنصف الثاني من «الهدایة» فی الفقه، والنصف الثاني من «جامع الترمذی» علی إعزاز علی الأمروهی.

وقرأ «سنن النسائي» و«سَلَم العلوم» فی المنطق علی فخر الحسن المراد آبادی. وقرأ «سنن ابن ماجه»، و«الموطأ» بروایة محمد بن الحسن، و«مسَلَم الثبوت» فی أصول الفقه، علی ظهور أحمد الدیوبندی.

و«شرح معانی الآثار» بکماله علی المفتی مهدي حسن الشاه جانفوري (١٣٠١هـ- ١٣٩٦هـ).

وقرأ «مشكاة المصابيح» مناصفةً علی القاری محمد طیب النانوتوی، وظهور أحمد، وعلی الأول قرأ «حجة الله البالغة» بتمامه.

وقرأ «کنز الدقائق» علی المفتی محمود الحسن الکنکوهی فی سهارنفور. وبعد التخرج أقام مدة فی الهند، ثم هاجر فی ربيع الأول من سنة (١٣٧٣هـ) إلى مكة المكرمة، وسکن فیها (١٢) سنة.



وحضر فيها بعض الدروس في الحرم المكي على الشيخ علوي المالكي، والشيخ حسن المشاط.

وعمل فيها مدرسا في المدرسة البرماوية.

وفي سنة (١٣٨٥هـ) رحل إلى المدينة المنورة، وأقام بها إقامة دائمة، وحضر فيها دروس الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، واجتمع فيها بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وغيره من الأفاضل.

وكان قاسى أول شبابه شدة في العيش، ثم وسَّع الله عليه في المدينة المنورة. وسافر لعدة بلاد مع جماعة التبليغ للدعوة.

وله مؤلفات منها:

١- الأسوة الحسنة.

٢- تذكير الحاضرين بتعريف الغابرين، وفيه ذكرياته وما جرى له.

٣- ترجمة واختصار كتاب «نقش حياة» لشيخه حسين أحمد المدني.

٤- الأربعون، جمع فيه أربعين حديثاً مع التعليق المختصر عليها.

٥- وترجمة بعض رسائل شيخه محمد الطيب القاسمي النانوتوي.

وكان منجمعا مؤثرا الخمول فلم يشتهر في المدينة، ولم يأخذ عنه العلم إلا النفر القليل، وفي آخر عمره بدأ يظهر أمره لما عرفه طلبة العلم، وبدأ الشيخ يشتهر، وتكاثر الطلبة عليه، طلبا للسماع الإجازة، فانتعش الشيخ بذلك، ونشط لسماع الحديث، واستعاد لياقته العلمية، وهمَّ باختصار «مصنف ابن أبي شيبة»، وبدأ باختصار «شرح معاني الآثار» وهو في التسعين من عمره، ولم يكن يضجر من طول مجالس السماع



وكثرة ما يقرأ عليه، وإذا شكره طلابه ودعوا له أظهر الامتتان والفضل لهم، وشكرهم على أنهم أعادوه لسماع الحديث وإقراءه، وكان من فضل الله عليه توفيقه أن ينفع في آخر عمره بما حصّل من علم في أوله، وكان يتلطف بطلابه، ويدعو لهم بأسمائهم واحداً واحداً.

أصابه مرض السرطان، واكتُشف متأخراً، فأجريت له عملية استئصال لبعض المعدة في شعبان، وبقي بعدها مريضاً إلى أن توفي بعد العشاء من ليلة الأحد (١٨) من رمضان سنة (١٤٣٦ هـ)، وصُلّي عليه فجر الأحد في الحرم النبوي الشريف، وكان الحرم ممتلئاً من المعتمرين، ودفن بالبقيع، غفر الله له ورحمه، وأكرم في الجنة نُزله^(١).



(١) اختصرت المعلومات عن الشيخ من مقالة ترجم فيها الشيخُ لنفسه، ومن «معجم الشيوخ» للشيخ د. صفوان داودي (٩٨ - ١٠٥).





٦ - الشيخ محمد الصديق الرونده



شيخنا ومُجيزنا الأديب المسند المعمر الكريم المتواضع الشيخ محمد الصديق بن محمد عبد السلام الرندي الأندلسي ثم الرباطي المغربي. والرُّونده نسبة إلى «رندة» المدينة الأندلسية، بلدة أبي البقاء الرندي صاحب مرثية الأندلس الشاجية الباكية.

زرتَه مع ابني ناصر في دارته العامرة بالرباط، بتوصية من أخي الشيخ محمد حدود، فما إن اتصلت به حتى أجاب مرحبًا، واستقبلنا بسماحة وإكرام، وبقينا معه أصيل يوم جميل مائع، وأجازنا، وحدثنا بشيء من ذكرياته، وأهدى لنا بعض مؤلفاته، وأخبرنا أن لديه مخطوطات يريد إهداءها لمكتبة الحرم المدني، فتواصلت مع بعض إخواني من العاملين في الحرم المدني ليتولوا استقبالها منه وحفظها بطريقة رسمية.

وأعجبنا في الشيخ حيويته ونشاطه وعزيمته ويقظة ذاكرته، وهو يقارب التسعين من عمره.

ولد الشيخ في رجب سنة (١٣٤٨هـ)، ونشأ في كنف جده العلامة الفقيه المسند الوزير محمد بن عبد السلام الروندي، قال شيخنا عن جده: «ما بقي عالقًا بذاكرتي



عن جدي أكثر بكثير مما تحتفظ به عن والدي، فقد كنت أنا وأخي عبد السلام تربطنا به علاقة الأبناء بالآباء، لا علاقة الأحفاد بالأجداد، وكانت علاقتنا به علاقة بنوة وأبوة، نصحبه في أسفاره، ونكون معه في حله وترحاله، وكنت أنا وأخي عبد السلام إذا عدنا من المدرسة مساءً يعقد لنا حلقة في مجلسه الخاص لتلقى منه دروساً في النحو والصرف والفقه والسنة والأحكام والمنطق، إلى أن وافاه الأجل سنة (١٩٤٦م).

وكان كمن يريد أن يعرف نتيجة ما عندنا، فيطلب ممن يجالسه من العلماء أن يختبر معلوماتنا، ثم يسأله أن يجيزنا، فيقول: أجزهم. فيكتب جدي هذه الإجازة وتاريخها في كناشة عنده^(١).

وبذلك حصل الشيخ بعناية جدّه على إجازات عالية جداً، منها روايته عن العلامة أبي شعيب الدكالي، وعن الدكالي أخذ كبار المسندين، كمحدث الحرمين الشريفين الشيخ عمر حمدان المحرسي، وشيخ الجماعة بفاس أحمد بن الخياط الزكاري، والأديب أحمد بن العياشي سكيرج وغيرهم.

وبين وفاة بعضهم ووفاة شيخنا نحو سبعين سنة، وهذا علو نادر.

ويروي شيخنا الرونده عن أديب المغرب أحمد سكيرج الفاسي، وعن مفخرة الرباط محمد بن عبد السلام السائح، الذي تتلمذ عليه كبار علماء المغرب، كالعالم محمد المختار السوسي، ومحمد المكي الناصري، وعبد الهادي أبو طالب.

وشيوخ الشيخ الرونده ومروياته قد جمعها أخي د. محمد ححود التسماني في كتاب «إعلام أهل المودة بمرويات الشيخ الأديب محمد الصديق الرونده».

(١) من كتاب «المجالس العلمية برباط الفتح» للشيخ محمد الصديق الرونده مخطوط (١٠٣).



وقرأ شيخنا على جده على النمط العتيق النحو والصرف والفقه والفرائض والأحكام، كما حصل على دبلوم الكفاءة في التعليم، وشهادة الكفاءة في الحقوق. وتقلد عدة وظائف حكومية وعلمية، منها: أستاذ في سلك التعليم الثانوي، وكاتب عام للأمانة العامة لرابطة علماء المغرب، وعضو من أعضائها، وعضو مؤسس للفيدرالية المغربية لعلم الأنساب، وغير ذلك.

وللشيخ كتابات ومؤلفات بدأها كما ذكر ذلك فقال: «كان الفضل في ممارستي للكتابة وانكبابي على البحث والدراسة تعيني من العالم الجليل الأمين العام لرابطة علماء المغرب الشيخ المكي الناصري، فعيني مشرفاً على إدارة الرابطة، التي كانت تصدر صحيفة «الميثاق» ومجلة «الإحياء»، وبدأت محاولاتي في الكتابة ببضعة مواضيع في الصحيفة، ثم أعقبت بأبحاث في «الإحياء»، ما شجعني ودفع بي إلى التطرق لمواضيع تاريخية ودينية واجتماعية»^(١).

وللشيخ مؤلفات مطبوعة ومخطوطة:

فمن المطبوع:

١ - اعرف نبيك.

٢ - آيات محمد ﷺ الإعجازية في رؤيته المستقبلية وقيادته العسكرية ورحلته اليقينية.

٣ - ثلاثون عاماً من حياة رابطة علماء المغرب، التعريف بقانونها الأساسي ومؤتمراتها العامة، من منشورات الأمانة العامة لرابطة علماء المغرب، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ = ١٩٩١م).

(١) «إعلام أهل المودة بمرويات الشيخ الأديب محمد الصديق الروندة» د. محمد حُود (٥).



٤ - دليل الأسماء العربيّة والقديمة والحديثة.

٥ - الصّليب يترنّح.

٦ - العلامة محمّد بن عبد السّلام الرّوندي، ذو الوزارتين العدليّة والمعارف الإسلاميّة، طبع عام (٢٠١٠م).

٧ - من أغوار الماضي، طُبع عام (٢٠٠٥م).

٨ - المهدي المنبهي، الوزير الشّاهد على بداية الأزمة المغربية، من (١٩٠٠م) إلى (١٩٠٣م).

٩ - النّفق المسدود، وهو على شكل قصص، طُبع عام (٢٠٠٩م).

- ومن الكتب الجاهزة للطّبع:

١٠ - الخطابة عند العرب.

١١ - قواعد الرّسم.

١٢ - المجالس العلميّة في مساجد وزوايا مدينة الرّباط.

١٣ - المنهاج البسيط لتعلّم القراءة والكتابة.

وغيرها.

وللشيخ عناية بتعلم اللغة العربيّة وتعليمها تعليماً متقناً، وله خبرة في هذا المجال، وله فيه اقتراحات ووجهات نظر طرحها لتسهيل الكتابة العربيّة وتشكيل كلماتها.

وعاش الشيخ عمراً مباركاً مديداً، متمتعاً بقواه ويقظة ذهنه، حتى وفاته في جمادى الآخرة سنة (١٤٤٢ هـ)، غفر الله للشيخ الرّونده ورحمه وأكرم مثواه ومُنقَلَبه.



٧ - الشيخ محمد الأمين بوخبزة



شيخنا ومجيزنا الشيخ الشريف العالم الأثري المحقق محمد بن الأمين بن عبد الله الإدريسي الحسني التطواني، عالم تطوان ومحدثها وواعظها والمنظور إليه فيها. زرتة في بيته بتطوان مع الشيخ سلمان العودة وخالد القفاري، وفرح واحتفى وأجازنا بمروياته ومؤلفاته.

ثم زرتة مرة أخرى في بيته مع أخي صالح بن حمود الفوزان، وكان مجلساً رائعاً استروح فيه الشيخ في حديثه وذكرياته، وجدد لنا الإجازة مرة أخرى.

وحديث الشيخ حديث عن العلم والعلماء، وعن بعض العلوم التي كان يعتني بها في المغرب ولا يعتني بها في السعودية، خصوصاً ما يتعلق بالأقضية، والسبب أن وقائعها غير موجودة عندنا لاختلاف المذهب والبيئة ونمط الحياة.

وكان مولد الشيخ في مدينته تطوان في ربيع الأول سنة (١٣٥١ هـ)، من أسرة كريمة يغلب عليها طلب العلم، والقيام بالوظائف الشرعية كالتدريس والخطابة والإفتاء.

وزوجة الشيخ من الأسرة الغمارية الشريفة، وخالها هو الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري، فبين الشيخ وآل الغماري صلة مصاهرة وعلم.



حفظ الشيخ القرآن في الكتاب، وحفظ مختصرات العلوم كـ«الأجرومية»، و«المرشد المعين» لابن عاشر، و«ألفية ابن مالك»، وبعض «مختصر خليل»، ثم التحق بمعهد ديني بالجامع الكبير، وتلقى فيه دروساً نظامية متنوعة على مدرسيه المشهورين، وأخذ عن عدد كبير من علماء تطوان وغيرها، منهم: الشيخ عبد الله كنون، والشيخ محمد العربي الخطيب، والشيخ محمد الفرطاخ، والشيخ أحمد بن الصديق الغماري، أخذ عنه بالمجالسة والمراسلة، وكذا عن أخيه الشيخ عبد الله الغماري وغيرهم.

وأخذ عن الشيخ تقي الدين الهلالي الذي سكن تطوان ست سنوات، فتلقى عليه دروساً في التفسير والحديث والأدب، وتأثر بمنهجه الأثري، فقد كان الشيخ متصوفاً على الطريقة الدرقاوية، وسار في درب الطريقة سنوات، ولكنه ترك ذلك كله وتأثر واستفاد من شيخه الجليل تقي الدين الهلالي.

وقد كان للشيخ نشاط سياسي في مواجهة المحتل الإسباني ومحاربة سياسة الإقصاء الاستعماري، فأصدر جريدة «البرهان» الخطية لانتقاد السياسة الاستعمارية، وتعرض لملاحقة أمنية كادت تقضي بسجنه لولا تدخل بعض الوجهاء.

ولم يكن الشيخ في أول أمره مهتماً بالإجازات، ولو طلبها مبكراً لحصل أعلى الأسانيد من أساطين العلماء كالبشير الإبراهيمي، ومحمد بهجة البيطار، والشاذلي النيفر، وتقي الدين الهلالي، ومن مشايخه الذين درس عليهم في تطوان من أمثال الزواقي والرهوني والفرطاخ، ولكن الشيخ أدرك بعد ذلك إجازات مهمة، فهو يروي عن جمع، منهم الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري، وقد كان الشيخ بوخبزة معجباً بسعة اطلاعه ورسوخ قدمه في علوم الحديث، فكتبه وجالسه واستفاد منه علماً جمّاً، وأعطاه من وقته وكتبه ما لا يفعله مع غيره، وأجازة إجازة عامة.



ومنهم الشيخ عبد الحفيظ الفاسي الفهري، أجازته كتابةً ومشافهةً بمصيف مرتيل، ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز ابن عقيل الحنبلي، والشيخ محمد بن عبد الهادي المنوني المكناسي، سمع منه «الأولية» وأجازته عامة، ومنهم الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، أجازته شفاهاً عند زيارته لتطوان واعتذر عن الكتابة ووعد به.

ومنهم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، اجتمع به في المدينة المنورة في حجته الأولى سنة (١٣٨٢هـ) في منزله، وأعطاه رسائله، فاعتبرها المترجم مناولة، فاستأذنه في الرواية عنه بها فأذن له، وزاره بتطوان مرتين، وطلب منه الإذن بالرواية عنه فقال له الشيخ الألباني: «ارو عني إن شئت»، فاعتبرها إذناً وإجازة عامة من الشيخ الألباني، ولا نعرف للألباني إجازةً لأحد إلا للشيخ بو خبزة.

وقد عمل الشيخ مؤثّقاً بقسم المخطوطات بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، وظل موظفاً بها إلى أن أحيل إلى التقاعد، وقد مكّنه ذلك من الاطلاع على ذخائر المخطوطات والاستفادة من علومها.

وقد جمع الشيخ في مسيرته العمرية مكتبة ضخمة، وكان سخيّاً بها لكل من احتاج إلى شيء منها.

وكتب مقالات في الصحف السيارة في وقته، وفي الصحف التي أسسها، كما كتب مؤلفات عدة طبع بعضها، ولا يزال بعضها مخطوطاً، ومنها: الشذرات الذهبية في السيرة النبوية، والأدلة المحررة على تحريم الصلاة في المقبرة، ونظرات في تاريخ المذاهب الإسلامية، وإيثار الكرام بحواشي بلوغ المرام وغيرها.

كما كان للشيخ جهود في التحقيق لخبرته بالمخطوطات وتمكنه منها، وقد وقع بيده الكثير منها، ويمتلك في مكتبته عدداً من نوادرها.



وقد حقق الشيخ وشارك في تحقيق عدد من الكتب، منها تحقيق جزء من «التمهيد» لابن عبد البر، وتحقيق أجزاء من «الذخيرة» للقرافي، وتحقيق جزء من «النوادر والزيادات» لابن أبي زيد القيرواني، وتحقيق «شرح القاضي عبد الوهاب على رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، وغيرها.

وله ثبت خرّجه له تلميذه بدر العمراني، سمّاه «مظاهر الشرف والعزة المتجلية في فهرسة الشيخ محمد بوخبزة».

كما كان للشيخ عمله الدعوي، فقد كان خطيباً في مسجد العيون بتطوان طيلة خمسين سنة، واشتغل واعظاً بعدة مساجد منها مسجد العيون والمسجد الكبير.

وعرف الشيخ عند محبيه وقاصديه بالتواضع والكرم وخدمة العلم وأهله، وبذل علمه وكتبه لكل قاصد، وما زال على حاله الحسنة وسيرته الجميلة حتى وافاه الأجل في السادس من جمادى الآخرة سنة (١٤٤١ هـ)، رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ.



٨ - الشيخ زهير الشاويش

هو شيخنا الشهم الكريم، والسيد النبيل أبو بكر زهير بن مصطفى الشاويش. زرتة في بيته في بيروت، فلما جلست إليه أخبرته أن في مكتبة والدي بطاقة معايدة قديمة أرسلها الشيخ إلى أبي، وأن هذه البطاقة مما نحتفظ به، فكانت هذه فاتحة حديث رحب مع الشيخ، فمدَّ بساط الحديث، ونثر الذكريات، وتبع هذه الزيارة زيارات واتصالات.

وكان مما يلحظه فيه كلُّ من جلس إليه شهامة الأكابر من رجالات الأسر الكريمة الشامية، فهو يتلقاك بحفاوة، ويستضيفك بإكرام، ويفرح أن يقضي لك حاجة.

ومن كرمه: سخاؤه العلمي، فهو صاحب مكتبة هي من أكبر المكتبات الخاصة، زاخرةً بذخائر المخطوطات، ونفائس المطبوعات، ونوادير التحف والخطوط، دخلت معه هذه المكتبة، ورأيت بعض ما فيها من تحف ونفائس جمعها في عمر طويل، وبذل جزيل، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره، وكان سخيًّا بها لكل قاصد يريد الانتفاع بما فيها، فكم من الباحثين قصدوه في رسائلهم وبحوثهم! فوجدوه سمحًا بذاك مجيًّا^(١).

(١) ذكر أخي الشيخ محمد بن ناصر العجمي كثيرًا ممن كانوا يقصدون مكتبته ويستفيدون منها، ويشيرون إلى ذلك في مؤلفاتهم، يُنظر: «العالم المؤرخ الشيخ زهير الشاويش وخزائنه الشاويشية» للشيخ محمد بن ناصر العجمي (١٠-١٥).

وفي زيارتي له أجازني بروايته عن الأسياف الذين لقيهم، وهم أكابر الأسياف وأعلامهم سنداً، فكان الظفر بلقائه من غنائم العمر.

وللشيخ سيرة ومسيرة حافلة، وذخيرة من الأعمال الجليلة، فقد ولد الشيخ في حي الميدان الدمشقي سنة (١٣٤٤ هـ)، ولم يكمل دراسته النظامية، ولكنه حصل العلم من صحبة العلماء والأخذ عنهم، فله صحبة خاصة بالشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، وحضر وهو صغير مجالس محدث الشام وعالمها بدر الدين الحسني، وله إجازة منه، وإجازات من مشاهير علماء العالم الإسلامي كالمشايخ أحمد شاكراً، والبشير الإبراهيمي، ومحمد بن عبد العزيز بن مانع، وحبیب الرحمن الأعظمي، وعبد الرحمن المعلمي، وتقي الدين الهلالي، وغيرهم كثير، حتى بلغ عدد مشايخه المجيزين قريباً من مئة.

وكان الشيخ في بواكير عمره ثائراً مجاهداً، فقد حدثني أنه كان في فتوته كان يشارك في المظاهرات ضد الفرنسيين حين احتلالهم للشام، ويواجهون الجنود برشقهم بالحجارة إذا مروا بالترام.

وفي عام (١٩٤٨ م) شارك مع المجاهد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل، التي استشهد فيها الحسيني، وحكى لي قصة ذهابهم إلى فلسطين، وأنه ذهب بالأسلحة ليسلمها للمجاهد عبد القادر، فلما رآها صدم وقال: هذه هي التي أعطيت لي فرفضتها، ولا تصلح لمقاومة اليهود، فقال له الشيخ: هذا كل ما استطعنا الحصول عليه، فقاتلوا بلحم أيديهم وبأسلحتهم البدائية الرديئة، لتقع النتيجة المتوقعة.

وبعد ذلك ألقى سلاح القتال، وتدرع سلاح العلم والدعوة، فكان عضواً في جمعية التمدن الإسلامي، وفي جماعة مصطفى السباعي وعصام العطار، ودخل انتخابات البرلمان وفاز فيها.



وسافر إلى السعودية وتعرف بعلمائها، ودرس في كلية الشريعة، ولكنه لم يتم دراسته، وسافر إلى قطر مدرساً، فقويت علاقته بأمرها الشيخ علي آل ثاني، وعالمها الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، وأسهم في تأسيس التعليم في قطر، وتولى طباعة الكتب، وكانت تطبع على نفقة الشيخ علي آل ثاني.

وفي عام (١٣٧٠ هـ) افتتح المكتب الإسلامي للتحقيق والطباعة والنشر، فطبع فيه كتب المذهب الحنبلي، وكتب الحديث والأثر، ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرها من الكتب، كـ«روضة الطالبين» للنووي، و«زاد المسير» لابن الجوزي، وغيرها، كما طبع فيه مؤلفات الشيخ الألباني ونشرها وأشهرها.

ودور الشيخ الشاويش في نشر كتب السنة والحديث هو امتداد لعمل الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد رشيد رضا، وخاصة إحياء كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وكتب المحققين من أهل الأثر.

واستقطب في هذا المكتب أفاضل العلماء، وتكفل بتفريغهم للتحقيق العلمي، كالشيخ الألباني، والشيخ عبد القادر الأرنبوط، والشيخ شعيب الأرنبوط، والشيخ عبد القادر الحنّاوي الدومي الحنبلي، وغيرهم.

وهو الذي أشهر علم الشيخ الألباني وسماه محدث الديار الشامية، حتى قال الشيخ علي الطنطاوي: لولا زهير ما راجت آراء ناصر الألباني^(١).

وكان الشيخ واسع العلاقات بأعلام العالم الإسلامي زعماء وعلماء ووجهاء في السعودية والشام ومصر والمغرب، وهو كريم يألف الكرام ويهفو إليهم، حدثني فقال: أكرم من عرفت في الشام الشيخ محمد بهجة البيطار، وفي السعودية الشيخ عبد الملك بن إبراهيم.

(١) «رحيل الشيخ المجاهد زهير الشاويش» لأيمن أحمد ذو الغنى (٧).



وأخر رسالة كتبها وجيه الحجاز محمد نصيف ليلة وفاته كانت للشيخ زهير الشاويش، ووصلته بعد وفاة الشيخ نصيف.

وعندما زرته في بيروت تعجبت من سعة علاقاته، فهو يسكن في الحازمية في حي مسيحي، وله علاقات مع مطارنة النصارى، وعلماء الشيعة، مثل موسى الصدر، ومحمد مهدي شمس الدين، وبقي في بيروت أيام الحرب اللبنانية، وأدار فيها أمور مكتبه باقتدار عجيب.

ووصفه أستاذه الشيخ علي الطنطاوي فقال: «زهير هو ابن نفسه، علّمها وزكاها، قرأ الكتب وصاحب العلماء، وفتح عينيه على الحياة، وأذنيه للعلم، وأمّدت ذاكراً قل نظيرها، وذكاً ندر مثيله، ثم أقبل على طبع كتبها وتصحيحها، فبلغ ما تروونه مما تروونه منه الآن».

وكان الشيخ في بيروت مقصداً لأهل العلم والفضل، فكان من زواره الأدباء والعلماء، كخير الدين الزركلي، والشيخ سعدي ياسين، ثم الأجيال التي جاءت بعد ذلك، كأخي الشيخ محمد بن ناصر العجمي، والأستاذ الباحثة راشد العساكر، والذي أخرج كتاب «المخطوطات النجدية من المكتبة الشاويشية»، وغيرهم كثير، والمورد العذب كثير الزحام.

وكانت قد حصلت بينه وبين الشيخ الألباني خصومة مالية حول حقوق الكتب، ولجّت هذه الخصومة، فلما توفي الشيخ الألباني أخبرني أنه قد عفا عما جرى، وتنازل عما اختلفا فيه.

وعاش شيخنا عمراً مديداً ممتعاً بإدراكه وكامل وعيه، حتى توفي يوم السبت (٢٢) رجب عام (١٤٣٤ هـ)، غفر الله له ورحمه وأحسن مثواه ومنقلبه^(١).

(١) يُنظر في ترجمته مقال «رجل الشيخ المجاهد زهير الشاويش» لأخي الأستاذ أيمن أحمد ذو الغنى، وكتاب أخي العلامة المحقق الشيخ محمد بن ناصر العجمي «العالم المؤرخ الشيخ زهير الشاويش وخزائنه الشاويشية».

٩ - الشيخ محمد بن إسماعيل العمراني

علامة اليمن ومفتيها، المنقطع للتعليم والإفادة والإفتاء عُمره.

زرتة في اليمن في صحبة أخي الشيخ محمد العامري، فلما لقيته أول مرة رحبْتُ به واحتفيتُ بلقائه، ثم سألتُه فقلت: يا شيخنا، هل العمراني الذي تعقب الشوكاني في «الدراري المضية» وقال: «قد اضطربت أمواج محيط شيخنا في هذا البحث، فلم يصف مورده عن كدر» هو جدّكم؟ فانتعش الشيخ ونشط وتفاعل وقال: بل هو جد أبي، وانبسط في الحديث وبالع في الحفاوة^(١).

فلما طلبتُ منه الإجازة رحب جدا، وقال: ليست معي أوراق، ولكن خذها الآن فقد أجزتُك، ثم كتب لي الإجازة بعد ذلك. وقد تكرّر لقاءه بعد ذلك وزيارته، فزرتُه مرة أخرى ورويتُ له أخبار تلميذه الشيخ يحيى بن أحمد عاكش الضمدي من علماء مدينة جيزان، وكنت التقيته في مدينة جيزان في شيخوخته، وحدثني عن طلبه العلم على الشيخ العمراني، فلما ذكرتُ ذلك للشيخ تذكّره جيدا وانتعش بذكره، فتلاميذ الشيخ كأولاده يفرح لهم ويفخر بهم.

(١) يُنظر: «الدراري المضية» للشوكاني (٢٤)، والعمراني المتعقب هو محمد بن علي العمراني تلميذ الشوكاني، وجد شيخنا محمد بن إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي العمراني.

وسأله عن انتهاب صنعاء حين دخلها أحمد بن يحيى حميد الدين وأباحها للقبائل معه فقال: نعم، كنت في صنعاء ونُهبتُ فيمن نُهب.

وكان الشيخ منقطعاً طوال عمره المديد للتعليم، وتخرجت به أجيال إثر أجيال من جميع البلاد، ففي حلقة الطلاب من اليمن ومصر وليبيا والشام وغيرها.

وهو الامتداد العلمي لمدرسة الاجتهاد اليمنية المتمثلة في ابن الوزير والصنعاني والشوكاني.

والشوكاني شيخه في العلم، وكان معظماً له، متبعاً لمنهجه الاجتهادي، معجباً باستقلاله العلمي، وقد حصل بين الشوكاني وتلميذه محمد بن علي العمراني، جد شيخنا، جفوة، وتكلم العمراني بكلام فيه تحامل وشدة في حق الشوكاني، فكان شيخنا العمراني يميل مع الشوكاني وينصفه، ويقول: جدي تحامل على الشوكاني، وأنا أعرف، وقال: لئن كان القاضي محمد بن علي العمراني هو الجد الأعلى في النسب فإن الإمام محمد بن علي الشوكاني هو الأب الروحي في العلم والأدب^(١).

وقد تأثر به في استقلال نظره، ومنهجيته في الاختيار والترجيح، كما تأثر بمنهجية محمد رشيد رضا، فقد كان يتابع مجلة «المنار» وقرأ مجلداتها جميعاً، وكُتِبَ ابن القيم، وبخاصة «زاد المعاد» الذي كان يُقرأ عليه في دروسه.

ومن استقلاليته ووثوقه أنه كان في سن الطلب يقرأ على أحد شيوخه، فمر ذكر الشوكاني، فقال فيه الشيخ كلمةً فيها تنقص، فتغص الشيخ وتوتر، ولكنه احتبس غضبه في نفسه، ثم مر ذكر السيوطي في يوم آخر فتنقصه الشيخ فاستغزه ذلك ولكنه صبرَ نفسه، ثم مر في يوم ذكر الفاروق عمر، فذكره الشيخ منتقصاً من مقامه،

(١) ينظر: «الروض الندي» للشيخ أحمد الأسدي (٢٣).



فأغلق الشيخ كتابه بقوة وقام مغاضباً محتجاً وغادر المجلس وترك الدرس، فقال له شيخه: إلى أين؟ فقال: والله لا أدري أجئنا لتعلم أم جئنا لنكسر شرف العلماء ونُعَرِّض بالأئمة الأعلام؟! وكان هذا الموقف وشيخنا في التاسعة عشرة من عمره.

ومن صفاته التي عُرف بها تواضعه الجَم، ومن مظاهر ذلك حفاوته بطلابه وتسميتهم «مشايخ»، ورفقه بهم، وتقديمه لكتبهم، وتدريسه بعض كتب طلابه الذين تخرجوا على يده.

وكثيراً ما يقول لطلابه: أنا لست بعالم، أنا صلة بينكم وبين العلماء.

ولما التقيت به أول مرة ذهبنا سوياً إلى برنامج دعوي كان لي فيه كلمة، ولشيخنا الإفتاء والإجابة على الأسئلة، فألقيت كلمتي، ثم جلست مع الحضور، فلما جلس الشيخ ورآني طلب إلي أن أقوم فأجلس إلى جانبه، فاعتذرت بأنني جلست هنا عندما كنت أتحدث لأقابل من أحدثهم، أما إذا كنت أنت المتحدث فمكاني مع طلبتك، فألح إلحاحاً شديداً خضعت له، ورأيت أن هذا من تواضعه وإكرام زائره.

وطريقة الشيخ في التدريس أنه هو الذي يقرأ الكتاب، وهو الذي يشرحه، ولشرحه جاذبية لكثرة ما يورد من الطرائف والملح التي تنعش الطلبة، وتذهب عنهم السآمة والملل.

والشيخ من نوع الشخصيات الفكهة بلا ابتذال، ولكن بأريحية ولطف، وإذا كان في مجلسٍ فإن حديثه هو المشوق والجاذب والمُنصِتُ إليه، لما فيه من الظُرف واللطافة والإبهاج.



وهو من جنس العلماء الظرفاء، كالأعمش وصالح جزرة، وقد جمع بعض تلاميذه^(١) طرائف وأخباراً كان يحدث بها إيناساً، فعتب الشيخ عليه، وقال: جعلتموني قصاصاً. وكان هم الشيخ متوجهاً إلى التعليم وتأليف الطلاب والتلاميذ، وأما التصنيف فقد انشغل عنه ولم يتوجه إليه، وهو به جدير لو أراد.

ومن شيوخه: القاضي العلامة علي بن حسن المغربي، والقاضي العلامة عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، والقاضي العلامة عبد الله بن محمد السَّرْحِي، وغيرهم من علماء صنعاء كما أجازه جماعة من علماء اليمن كالسيد العلامة قاسم بن إبراهيم بن أحمد، والسيد العلامة عبد القادر بن عبد الله، والقاضي العلامة أحمد بن أحمد الجرافي، والسيد العلامة محمد بن محمد زبارة، والشيخ العلامة عبد الواسع الواسعي مؤلف «الدر الفريد الجامع لما تفرق من الأسانيد».

ومنها ما يرويه عن القاضي بن حميد عن شيخه العلامة علي السُّدَمِي عن شيخه القاضي العلامة محمد بن محمد العمراني جد شيخنا العمراني عن شيخه شيخ الإسلام الشوكاني جميع ما حواه مؤلف الشوكاني «إتحاف الأكابر في إسناد الدفاتر»^(٢).

وقد متعه الله بعمر مديد، وعافية ويقظة ذهن، ولم يمرض إلا في أخريات حياته، فانقطع عن التدريس، وتوفي عام (١٤٤٢ هـ)، رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.



(١) وهو د. محمد عبد الرحمن غنيم في «قصص وحكايات من اليمن».

(٢) ينظر: «الروض الندي بأجوبة القاضي العمراني عن سؤالات الأسدي» لأخي الشيخ أحمد بن غانم الأسدي ومنه اختصرت هذه الترجمة.





١٠ — محمد سالم بن محمد علي عدود



العالم الموريتاني الضليع صاحب المحاضرة المشهورة بموريتانيا، والشيخ رَحِمَهُ اللهُ من العلماء النوادير في علمهم واستحضارهم.

وكانت لي علاقة زمالة وصداقة مع ابنه أخي الشيخ الدكتور محمد بن محمد سالم عدود، ولما أخبرني بمجيء والده للحج وجدتها فرصة سانحة للقاء الشيخ والسلام عليه والاستجازة منه، فالتقيته في مكة أيام منى، ولما سألتني عن قبيلتي وأخبرته إذا به يُحبر بي في علم النسب وتفرعاته بما لا أدركه الآن.

ثم طلبت منه إجازة فكتبها لي ولابني ناصر، وكانت جلسة مائعة، فيها مع علم الشيخ لطفه ووده وشفافية روحه، وهو ممن إذا لقيته لأول وهلة رأيت فيه سمت الولاية، وسكينة عباد الرحمن وهونهم، فهو مع رسوخه العلمي في غاية التواضع والتنزل مع الناس إلى مقاصدهم حتى كأنه الطالب لا المطلوب.

ثم يسر الله اللقاء بالشيخ مرة أخرى حين زرت موريتانيا مع الشيخ سلمان العودة بدعوة من الشيخ عبد الله بن بيه للمشاركة في مؤتمر التجديد والترشيد، وحضر الشيخ ورأس إحدى الجلسات، وكانت فرصة أخرى لتجديد العهد به، وقد كان هو المنظور إليه في موريتانيا علماً وتعليماً وفتوى.



والشيخ هو نتاج التعليم العتيق في المحاضر الموريتانية، فقد ولد في شهر رجب سنة (١٣٤٨ هـ) في بلدة تُسمَّى الملتقى تبعد عن نواكشوط العاصمة قرابة (٧٠ كم)، وكان والده العلامة محمد علي عدود ممن انتهت إليه الرئاسة العلمية، وكذا جده المختار بن عبد الله الحاج، فهو من أسرة ذات مكانة علمية متميزة.

ونشأ الشيخ محمد سالم في كنف والده وتلقى عنه، فظهرت عليه معالم التميز والنجابة من سرعة الحفظ والشغف بالقراءة، وانتبه والداه لذلك فأخذوا يدرّبانه على قرص الشعر والمقارنة بين النصوص.

وكان طلبة والده يجلسون له بعد انتهاء الدرس ليذاكر لهم ما درسوه، وكان يحضر جميع دروس والده، مما سرّع وتيرة تحصيله العلمي.

ومن توفيق الله للشاب أن يكون برعاية أب عالم يرعى موهبته، كما كان ابن تيمية مع والده عبد الحليم، والتاج السبكي مع والده تقي الدين، وولي الدين العراقي مع والده عبد الرحيم وغيرهم، وهكذا كان الشيخ مع والده، فقد وضعه على الجادة واختط له الطريق، وصنّع على عينه، فاستقام على الطريق وتجنب عثاره.

ولما بلغ الشيخ العشرين من عمره اختير والده للتدريس في معهد الدراسات الإسلامية في مدينة أبي تلميت، فكلّف الشيخ ابنه الشاب بالتدريس مكانه في محاضرة آل عدود ببلدة الشّهلات.

وبعد استقلال موريتانيا رُشح الشيخ لدراسة القضاء، فكان ممن ابتعثوا إلى تونس لمتابعة تكوينه العلمي في هذا المجال.

وفي تونس التقى بكبار العلماء وتحصل على الإجازة منهم، كما كانت فرصة للاطلاع على كتب ومخطوطات لم تكن متوفرة في موريتانيا.



وبعد عودته إلى موريتانيا ترقى في المناصب القضائية إلى أن أصبح رئيساً للمحكمة العليا.

كما مارس الشيخ التعليم العالي في عدد من الكليات، مثل المدرسة العليا لتكوين الأساتذة، والمعهد العالي للدراسات الإسلامية، والقسم الجامعي لمعهد جامعة الإمام في موريتانيا.

وكان له درس يومي في مسجده بعد صلاة العشاء، فيتحول الصف إلى حلقة، ويشعر الشيخ في الدرس إلى هزيع من الليل.

وبعد تفرغه من العمل الحكومي تفرغ للتعليم في محاضرة أم القرى، وحبس نفسه للطلاب، وصار مقصداً لطلاب العلم، يرحلون إليه من أوروبا، ويتفرغ لهم، ويعاملهم بأبوة ورعاية بالغة، مراعيًا غربتهم واختلاف البيئة عليهم، وكان من شدة عنايته بهم يدع صيام التطوع، ويقول: الصيام يضعفني عن التعليم، وحق هؤلاء الغرباء أوجب، ولم يكن يصوم التطوع إلا إذا سافر.

وقد تحصل الشيخ على إجازات عالية، منها إجازته من والده الشيخ محمد علي عدود، ومن الشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ الشاذلي النيفر، والشيخ نعيم بن أحمد النعيمي الجزائري وغيرهم.

والشيخ من نوع العلماء الذين يظهر علمهم في دروسهم وتقاريراتهم، ولا يظهر في مؤلفاتهم، مثله مثل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، فمؤلفات الشيخ لا تُبين رسوخه العلمي، وإنما يظهر علمه في محاضراته ودروسه.



أما مؤلفاته فهي نظم لبعض المختصرات الفقهية، كنظم «مختصر خليل»، ونظم «عمدة الفقه» لابن قدامة، ونظم لجامع الشيخ خليل الذي هذبه واختصره، ونظم لفهرس «تبصرة الحكام» لابن فرحون، وغيرها من المنظومات والرسائل.

وبقي الشيخ على سُنَّته العلمية حتى وفاته ظهر يوم الأربعاء (٤) جمادى الأولى من عام (١٤٣٠ هـ)، رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.





١١- الشيخ محمد أمين سراج



السنون التسعون، والوجه الرضي، والسكينة النفسية، وعبارات الحمد والشكر والامتنان لله تسيل بين كلماته، وإشراق الابتسامة، وطلاقة الوجه، وطيب الكلمة يلقى بها كل من قصده، هزمت التسعون عافية البدن، ولم تهزم عزيمة النفس.

ذلكم هو شيخنا الزكي الرّضِيّ المسند المعمر محمد أمين سراج رَحِمَهُ اللهُ، والذي كان ذكره يصل إلينا في السعودية قبل أن نراه، لصلته القوية بعلماء العرب وقاصدي إسطنبول، وممن كان يحدثني عنه أستاذنا زين العابدين الركابي وغيره، ولذا كان من أشواقنا لقاءه عند زيارة إسطنبول، والشيخ لا يحتاج أن تسأل عنه أو تبحث عن مكانه، فهو أحد أعمدة جامع الفاتح، مكانه فيه ثابت معروف في غرفة شمال المسجد، هي مكتبته، ومدرسته، وأوقاته في ضحوات النهار وبعد صلاة الجمعة والظهر.

ولما قصدت الشيخ آنسني محياه قبل أن أسلم عليه، فاحتفى بي ومن معي كأنه يعرفنا، ورأيت حوله جمعاً من قاصديه من بلاد شتى، من جمهوريات آسيا الوسطى ومن الشام، وكلهم تسعهم نفسه الطيبة وخلقه الرّضِيّ، وفي هذا اللقاء أجازني بمروياته، وأعطاني ثبته، ولكن لم يُتَح لي استرواح الحديث معه لكثرة قاصديه.



ثم تكررت الزيارات للشيخ، فكنت آتية في الضَّحَوَات حيث أجده في غرفته وحوله جمع ليس بالكثير، يقرؤون في كتب الشمائل ونحوها، والشيخ يشرح لهم باللغة التركية، فإذا جلست إليه أستروح للحديث، فحدثني عن لقائه بالشيخ حسن المشاط في القاهرة، وأنه دعاه إلى مسكنه في فندق الرضوان في منطقة الحسين، وأعطاه الإجازة، وعن لقائه بالشيخ الكوثري الذي أجازه قبل وفاته بعشرين يوماً، وكان الشيخ آخر مَنْ يحمل إجازة من الشيخ الكوثري، وبه أدركت إجازة الكوثري التي فاتني أخذها من شيعي أبو غدة.

وكتبت في أثر هذه الزيارة في منصة تويتر (X) لاحقاً:

في مسجد الفاتح باسطنبول التقيت الشيخ العالم المعمر أمين سراج لفت نظري حيويته في التعليم على كبر سنه وضعف قوته.

حدثني الشيخ عن تعليم والده له القرآن سراً أيام المحنة الكمالية وأنه كان يوقظهم آخر الليل إذا قام للتهجد فيعلمهم فتعلموا القرآن والعمل به.

ثم أخبرني أن والده سجن ١٥ يوماً بتهمة تعليم القرآن، ثم قال الشيخ ولكن الآن في تركيا أكثر من ٨٠٠٠ مدرسة لتحفيظ القرآن! ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

كان الشيخ إذا أراد أن يقوم يحمله اثنان فيقول: هذه طفولتي الثانية، وفي طفولتي الأولى تحملني أمي، وفي طفولتي الثانية يحملني أبنائي.

التقى صدفة بالشيخ حسن المشاط في مصر فاحتفى به وأجازه، وبعد ستين سنة يذكر الشيخ أمين هذا اللقاء بالدعاء والذكر الحسن، ليتنا نُبقي أثراً كهذا في نفس كلٍّ من نلقاه.



أجازني الشيخ بمروياته فاكشفت أني وإياه زملاء من وجه، فشيخنا جميعاً الشيخ عبد الوهاب البحيري رَحِمَهُ اللهُ دَرَّسَهُ ودرَّسني فالحق الأصاغر بالأكابر.

دَرَسَ الشيخ على بقايا علماء الخلافة العثمانية ثم دَرَسَ في مصر، ولقيت عنده بعد صلاة الجمعة جمعا من طلاب العلم من آفاق شتى أتوه ليجيزهم فعقد لهم المجلس وشرعوا في القراءة، فما أعظم بركة العلم على أهله.

والشيخ كان مسيرة عمرٍ وأطوارَ تاريخٍ، فقد ولد الشيخ عام (١٣٤٨ هـ) في قرية طانوبا شرق تركيا، وأكمل حفظ القرآن الكريم في التاسعة من عمره، وكان والده الشيخ مصطفى سراج يعلمه القرآن في الليالي سراً، حيث كانت قراءة كتاب الله ممنوعة منعا باتاً، في تلك الأيام العصيبة والمرحلة السوداء من تاريخ تركيا في الأربعينيات الميلادية.

لقد نشأ الشيخ في أحلك الظروف وأشد الأيام على الإسلام وأهله في تركيا، حيث كان يحارب كل شيء يمت إلى الإسلام، فاستخدام الحرف العربي جريمة، ولبس العمامة جريمة، والحجاب ممنوع، والأذان بالعربية ممنوع، والسفر للحج ممنوع، وكل هذه تعتبر جرائم يعاقب فاعلها.

ولكن كل ذلك لم يمنع الشاب الناشئ أن يحفظ القرآن ويتعلم الدين ويتجاوز تلك المحظورات، ثم في عام (١٣٥٣ هـ) أرسله والده إلى إسطنبول لمواصلة دراسته على الشيخ علي حيدر أفندي، وكان عمر الشيخ حينها أربعة عشر عاماً، فأخذ عن الشيخ وعن علماء مسجد الفاتح، كالشيخ خسرو أفندي، والشيخ سليمان الرقوي، والعلامة مصطفى أفندي الكمولجينوي، وكان يلقب بالمكتبة السيارة لكثرة عكوفه في مكتبة الجامع، وغيرهم.



وفي عام (١٩٥٠ م)، وحين بلغ الشيخ الحادية والعشرين من عمره، ذهب إلى مصر بأمر وتوصية من شيخه علي حيدر، وفي مصر وأثناء دراسته الجامعية تلقى عن الكبار، كالشيخ عبد الوهاب البحيري، والشيخ محمد فهمي أبو سنة، والشيخ محمد حسنين مخلوف، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، وغيرهم.

والتقى خارج الجامعة بالشيخ مصطفى صبري، آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، وبوكيله الشيخ محمد زاهد الكوثري رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وكان للشيخ صحبة ومزاملة مع الشيوخ القادمين من سوريا، كالشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وله به علاقة خاصة ومودة خالصة، والشيخ نور الدين عتر، والشيخ وهبة الزحيلي، وغيرهم.

وبعد رجوع الشيخ إلى إسطنبول جلس للتدريس والدعوة بانتظام ودأب، وكان له جدول دراسي لم يتغير طوال حياته، فيه دروس صباحية ومساءية، والدروس الصباحية في يومي الجمعة والأحد تبدأ بعد شروق الشمس وتستمر ساعة ونصفاً، وفي بقية الأيام تبدأ من الساعة العاشرة إلى الثانية عشرة ظهراً.

أما الدروس المسائية فكانت من الساعة الثامنة إلى العاشرة مساءً من الاثنين إلى الجمعة، وكما كان يدرس كتب الفقه والأصول فقد اعتنى بتدريس كتب السنة ومنها: الأمهات الست، والشمائل للترمذي، واعتنى بالشفاء للقاضي عياض، فُقِرَ عليه مرات كثيرة.

واعتنى بتدريس كتب التفسير، كتفسير ابن كثير والبيضاوي، كما شارك في ترجمة «في ظلال القرآن» إلى اللغة التركية.



وقد انشغل الشيخ بالدعوة والتدريس عن الكتابة والتأليف، فألف أجيالاً من طلبته، هم اليوم علماء تركيا ودعاتها ومسؤولوها، وهم اليوم الذين يملؤون ساحة العمل العلمي والدعوي والسياسي.

وللشيخ إجازات عالية، منها إجازته من شيخه سليمان بن فضل الرقوي المدرس بمسجد الفاتح، كتبها له عام (١٣٦٧هـ)، وهي أول إجازة حصل عليها.

ثم حصل على إجازة من الشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ حسن المشاط، والشيخ عبد الرزاق الحلبي، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ محمد عبد الرشيد النعماني، والشيخ أبو الحسن الندوي، وغيرهم.

وكان على صلة وثيقة بالدكتور نجم الدين أربكان من أيام شبابه إلى آخر حياته، كما كان مع الرئيس رجب طيب أردوغان من أيام شبابه إلى أن أصبح رئيساً للبلدية، ثم رئيساً للوزارة، ثم رئيساً للجمهورية.

وقد عاش شيخنا عمراً مديداً ممتعاً بحواسه ويقظة عقله حتى وفاته يوم الجمعة السابع من شهر رجب عام (١٤٤٢هـ)، رَحِمَهُ اللهُ وَغُفِرَ لَهُ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ وَمُنْقَلَبُهُ^(١).



(١) يُنظر مقال د. خليل إبراهيم قوتلاي عن الشيخ محمد أمين سراج.





رابعاً وصايا في طريق الطلب





وصايا في طريق الطلب



وأذكر هنا وصايا لطالب العلم كشفتها لي تجاربُ الحياة، ومراقبة النابهين من زملاء الطلب، وحالُ الشيوخ الكبار الذين تلقيت عنهم، وفيها ما تمنيت أنه قيل لي وأنا في بداية طريقي فاستفدت منه في وقته، ولقد شعرت أنني كنت بحاجة إليها لو أدركتها، وأني لو استحضرتها في أوائل العمر لتجنّبت كثيرا من عثار الطريق، ولئن فاتني إدراكها فلن يفوتني الوصاة بها، فإن هذا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، عسى من يطلع عليها يدركها في فسحة الوقت وسعة العمر، ومنها:



١- القرآن أولاً:

أ- حفظ القرآن:

وذلك بالبدء بحفظ القرآن، وتقديمه على كل أولوية، واعلم أن القرآن إذا حفظته فهو الزاد الذي ستقتات منه بقية عمرك، وهو رأس المال الذي سيبقى لك إذا نفذ ما معك، والصاحب الذي سيلازمك إذا تفرق من حولك، والمؤانس لك إذا أوحشتك الوحدة، وأبعدتك الغربة، وأن كثيراً مما تتعلمه ستستغني عنه في مرحلة من عمرك إلا حفظك القرآن فهو الذي سيبقى معك ولك.

وحفظ القرآن باب لكل حفظ، وفهم القرآن باب لكل فهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما طلب حفظ القرآن فهو مقدّم على كثير مما يسميه الناس علماً^(١).

واحذر ممن يُبَطِّئ بك ويُغَرِّر بعزيمتك، ويقول لك: الأفضل أن تحفظ القرآن مع تفسيره، ويضع لك خطة طويلة الأمد، بعيدة المدى، فيتفارق العمر، وتضعف العزيمة،

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٣/ ٥٤).



وتتراحم الأشغال، وتكثر الصوارف، وتضعف الذاكرة، وتضيع الفرصة، وربما استدل لك بمثل خبر أبي عبد الرحمن السلمي، قال: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يَقْرَأُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْآخَرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»^(١).

وخبر ابن عمر أنه ختم البقرة في ثمان سنين، فاعلم أن هذه قراءة التعلم وليست قراءة الحفظ، وللحفظ قراءته المبادرة، وللتعلم قراءته المتأنية.

وقد أخرج البيهقي خبر السلمي وبوب له «بَابُ الْبَيَانِ أَنَّهُ إِنَّمَا قِيلَ: يَوْمُهُمْ أَقْرَبُهُمْ إِنْ مَنْ مَضَى مِنَ الْأَيَّامَةِ كَانُوا يُسَلِّمُونَ كِبَارًا فَيَتَفَقَّهُونَ قَبْلَ أَنْ يَقْرَؤُوا»^(٢).

وقال ابن عبد البر عن خبر ابن عمر: إنه كان يتعلمها بأحكامها ومعانيها وأخبارها فلذلك طال مكثه فيها، ومعلوم أن من الناس من يتعذر عليه حفظ القرآن ويُفتح له في غيره، وكان ابن عمر فاضلاً، وقد حفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ جماعة، منهم عثمان وعلي وأبي بن كعب وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم^(٣).

وقد كان الأسياف يسألون الطالب قبل أن يبدأ القراءة عليهم هل حفظ القرآن؟، فإن كان حفظه رتبوه فيمن يقرأ، وإلا طلبوا منه إتمام حفظه أولاً، وهذا ما سمعته عن الشيخ محمد بن إبراهيم عالم السعودية ومفتيها وشيخ مشايخها في وقته.

(١) «مسند أحمد» (٢٣٤٨٢)، و«شرح مشكل الآثار» (١٤٥٠)، و«المستدرک» للحاكم (٢٠٤٧).

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٦ / ٧٧).

(٣) «الاستذكار» لابن عبد البر (٢ / ٥٠٢).



وكان هذا المنهج هو المتبع حين كان التعليم والدرس على نمطه العتيق الأصيل في الأزهر الشريف، حيث يُجرى للطالب اختبار مطول يختبر فيه إتقان حفظه للقرآن، ولا يتم قبوله إلا بعد تجاوزه.

واعلم أن ورد الحافظ للقرآن ليس كورد مَنْ لم يحفظ، وشتان بين من يقرأ القرآن قائماً وقاعداً لا يحجزه عنه شيء فهو مع القرآن حالاً ومرتحلاً، وَمَنْ لا يقرأ القرآن إلا من مصحفه.

كما أن آيات القرآن هي أساس العلم وعموده، وقاعدته وذروته، ولذا شتان بين متحدث حافظ للقرآن إذا انطلق في حديثه وإذا كلامه منور باستدلالات القرآن والاستشهاد بها في مواضعها، تجري الأدلة على لسانه كالنهر المتدفق، كما نجد ذلك في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه إذا تحدث في أي موضوع تتابعت الآيات في كلامه فإذا به يقول: «لقلوه تعالى» و«كما قال تعالى»، «ولذا قال **جَلَّ وَعَلَا**» وهكذا في تدافع عجيب في آيات القرآن حتى كنت أقول: لو أن أحداً قرأ لابن تيمية وهو لم ير المصحف لظنه مئة مجلد لكثرة ما يستدل به منه.

وكذا كان شيخنا ابن باز **رَحِمَهُ اللهُ** إذا ألقى أي كلمة في أي موضوع كان لُحْمَتِهَا وسُداها آيات القرآن ونصوص السنة.

أما إذا تكلم غير الحافظ فإن كَلِمَتَهُ تخرج كمقالة أي صحفي، مُطفأة الأنوار، واهية القوى، ظامئة الرؤى لقلة حضور القرآن فيها.

ومما ينبّه عليه في هذا عدم الاغترار بدورات الحفظ التي تغريك بأنك يمكن أن تحفظ القرآن في أيام، وأن هناك تقنية للحفظ لن تعرفها حتى تدفع رسوم هذه الدورة، فقد حضرت بأولادي دورة من هذا النوع، فعلمت يقينا أنها نوع من التآكل بالقرآن، وأكل أموال الناس بالباطل، وهناك قواعد تُتَّبَع لمن أراد الحفظ، أهمُّها:



• تلقي القرآن عن مقرئ، وقراءته على معلم ماهر حتى تتقن النطق ومعرفة الكلمات الموهمة في الخط، فتحفظ بالأداء الصحيح، فإن لم تجد من تحفظ عليه فعليك بالاستماع إلى المصحف المرتل، وبخاصة قراءة الشيخ الحصري أو المنشاوي رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

• تخصيص وقت محدد للحفظ والمراجعة بحيث يفرغ الطالب نفسه فيه لا يزاحمه فيه غيره.

• المراجعة المستمرة، وهي التعاهد الذي أمر به النبي ﷺ في قوله «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا»^(١).

• ويفيد في ذلك كتاب الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق «القواعد العشر الذهبية لحفظ القرآن الكريم».

ب - صحبة القرآن:

إذا حفظت القرآن فأدم التعبد به في صلاتك وقيامك، ولتكن به حالاً مرتحلاً، فذلك أدعى لدوام حفظه، وحضور تدبره، والقيام بين يدي الله به، ولا تحفظه كالعلماء، وتصلي كالعوام.

ما قيمة حفظ لا يتعبد به؟ وقرآن في صدر لا يُقام به؟ وإجازات تترا لا يتجلى أثرها؟ قال ابن عطية: قرأ رجل القرآن على بعض العلماء، فلما ختمه أراد الرجوع به من أوله.

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٣٣)، و«صحيح مسلم» (٧٩١).



فقال له الشيخ: اتخذت القراءة عليّ عملاً! اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليالك وانظر ماذا يُفهمك منه فاعمل به^(١).

وعند قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ألقي الزمخشري موعظة بليغة، يهيب بمجتمع الحفاظ والعلماء وأن يأخذوا مواقعهم في جنح الليل، ويرفعوا راية العزائم، ويتعدوا عن خور التراخي وجالبات الهزائم، فقال: «وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويتغنّون فيها، ثم يُفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء»^(٢).

ووصف الحسن البصري رجلاً استظهر القرآن ولا يقنت به: ذاك رجل يتوسد القرآن لا غير، ولمح من قول الله لعبده: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] أن يدرك مكانته فيما يحمل من علم الكتاب^(٣).

فاستثمر حفظك، وأصلح به عجلة صلاتك، وجوّد به تعبدك، وكن عند مستوى الوصف الإلهي لك: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَتٌ بَيِّنَتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]^(٤).

(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية (١/١٥٣).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (٤/١١٧).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٩٦).

(٤) من مقال للشيخ د. الخضر حليس.



وَمَنْ أكرمهُ الله بحفظ القرآن فليحسن صحبته في الدنيا، حتى ينال منزلة صاحب القرآن في الجنة، كما قال ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^(١).

إن قوله: «لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ» يدل على أن له مع القرآن صحبة ملازمة ومدائمة، وأنه كان في الدنيا أكثراً من قراءته وتلاوته، ولذا قيل له: «كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا»، فرقي بهذه الصحبة إلى المنازل العلى من الجنة.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يخالون^(٢).

وقال عبد الله بن عمرو: لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن لأن في جوفه كلام الله تعالى^(٣). ومعنى ذلك أن حامل القرآن ينبغي له التحلي بالأخلاق الفاضلة، تعظيماً للقرآن، وإجلالاً له.

فقد قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشماثل وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقرآن»^(٤).

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٧٨٠)، و«سنن أبي داود» (١٤٦٤).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٥٨٤).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢١ / ١).

(٤) «التيبان في آداب حملة القرآن» للنووي (٥٤).



ج - الورد القرآني:

الصلة اليومية بالقرآن بالمحافظة على ورد ثابت في كل يوم يزيد ولا ينقص، ويُقدَّم على الواجبات والعوارض، فإن ضاق الوقت قضيته في آخر اليوم، وليس في يوم آخر، فلكل يوم وظيفته.

ويختلف مقدار الورد باختلاف قدرات الناس وأشغالهم، ولا أقل من جزء في اليوم بحيث يختم القرآن في كل شهر.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية، على انشغاله بالتأليف والتدريس وقيامه بأمر العامة، وكثرة أعبائه ومشاغله، ملتزماً بوردي يومي هو ثلاثة أجزاء، فكان يختم القرآن في كل عشرة أيام، ثم قال في آخر عمره: «ندمت على تضييع أكثر الأوقات في غير معاني القرآن»^(١).

وكثير من آيات القرآن واضحة المعنى، بليغة الموعظة، لا تحتاج إلى تفسير بقدر ما تحتاج إلى اعتبار وادّكار، كآيات ثناء الله على نفسه، وذكر أوصاف عظمتها، وآياته في خلقه، وآيات وصف الحياة الدنيا، وآيات وصف الآخرة وأحوال الجنة والنار، ونحو ذلك، قال شيخ الإسلام: إن القرآن فيه ما هو بينٌ بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها، فربما يطالع الإنسان فيها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها^(٢).

ولذلك فإن مما يفيد في ورد القرآن جعل وظائف لختمات القرآن، فهناك قراءة ثابتة هي ورد التلاوة، وهناك قراءة لوظيفة يحددها، ومن ذلك:

(١) «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» لابن عبد الهادي الحنبلي (٤٤).

(٢) «العقود الدرية» (٤٣).



التلاوة لفهم الكلمات الغريبة في القرآن، فلا يَجْمُلُ بقارئ القرآن أن يكرره مراراً وهو لا يعلم معنى كلمات فيه، مثل: ﴿كَهَشِيمِ الْمَحْتَضِرِ﴾ [القمر: ٣١]، ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، ونحو ذلك، والكتب في غريب كلمات القرآن كثيرة قديماً وحديثاً، ومن أيسرها وأشهرها «كلمات القرآن تفسير وبيان» للشيخ محمد حسين مخلوف.

• تكرار تفسير مختصر، ولعل مختصر تفسير ابن كثير للشيخ أحمد شاكر هو العسل المصفى والثمر المدلى، ويمكن أن يُنَوِّع بعد ذلك من صحبة التفاسير، فلكل تفسير ميزته وخصوصيته، وقد تنوعت كتب التفسير وتعددت بحيث يلاقي كلُّ منها حاجة عند فئة من القراء تحتاجها، فتنوعها كتنوع أطياب الثمار، ونفضل بعضها على بعض في الأكل.

• الوقوف مع الاستشكال في معاني الآيات، وهذه مرحلة يصل إليها المتقدم، فتواجهه تساؤلات لا تسعفه فيها المختصرات، فيفزع إلى الكتب المطولة، وقد تزيّن القرن الرابع عشر الهجري بثلاثة تفاسير هي غاية في التجويد والتحرير، وهي: تفسير القاسمي «محاسن التأويل»، وتفسير الطاهر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، وتفسير الأمين الشنقيطي «أضواء البيان»، ولهذه البحار الكبار يكون المفزع في حل ما يُستشكل من معاني الآيات، ثم يسر الله لنا تطبيقات موسوعات التفاسير على الهواتف المحمولة، فما إن تكتب طَرْفَ آية حتى ينهال عليك كلام المفسرين من أي التفاسير تختارها، وتيسر العلم، ولم نعد بحاجة في البحث إلى جمع المجلدات، وتقليب الصفحات، وصارت مكتباتنا بين أصابعنا.



• وهناك قراءة للبحث عن موضوع واحد، فيقرأ القرآن وفي ذهنه قضية يريد أن يعرف كيف عرضها القرآن، ويجمع شواهدا ومواقع ذكرها والإشارة إليها، وكان شيخنا الشيخ صالح الحصين رَحِمَهُ اللهُ يقرأ ختمات من القرآن لكل ختمة قضية يبحثها، فيُفتح له من المعاني ما لا يجده في غيرها، فالصلة بالقرآن ذخيرة عظيمة، وقد قال ابن مسعود: «إذا أردتم العلم، فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»^(١).



(١) يُنظر: «الزهد» لابن المبارك (٨١٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٠١٨).



٢ - الاستعراض الأفقي للسنة:

ومن المهم في سن الطلب الأول التروّي من صحيح الأحاديث واستعراض السنة استعراضاً أفقيّاً يمرّ على الأحاديث من غير تعمّق في مباحثها، وإنما يقف عندما يُشكّل منها، حتى تتكامل من مجموعها صورة الحياة النبوية، وهدى النبي ﷺ وهده في شأنه كلّ، قال الشّيخ جمال الدّين القاسمي: المرءُ يَفْخَرُ وَيُنَافِسُ أقرانه إذا لقي رجلاً من كبار العلماء، وحادثه ساعة من الزمان، فكيف إذا استطاع أن يقيم معه، ويحادثه مدّة حياته؟

وهكذا من نظر في كتب الحديث فهو محادث للنبي ﷺ، ومطلّع على هديّه وأخباره، كما لو ساكنه وعاشره وشافهه، وما أقربه وأيسره لمن روى تلك الكتب ودراها، ولذلك قال الترمذي عن سننه: «مَنْ كان في بيته، فكأنما في بيته نبي يتكلّم»، وهكذا يقال في بقية الجوامع الحديثيّة، فاعلم ذلك^(١).

ولن تجد في كتب السنة أنقى وأجمع وأحسن اختياراً وأدقّ فهماً من صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ، فإن لهذا الكتاب شأنًا عجيبًا جمع الله فيه ذكاء البخاري وفقهه،

(١) «قواعد التحديث» للقاسمي (٢٢٥).

وشدة تحريه الصدق فيما يرويه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا»^(١). ومكانة صحيح البخاري بين كتب السنة كمكانة أبي بكر بين الصحابة^(٢).

والداخل لصحيح البخاري كالدخل إلى مستشفى متخصص، سيجد كل ما فيه نظيفاً ومعقماً^(٣).

والذي يُدمن القراءة في صحيح البخاري سوف يتكون لديه تذوقٌ لصحيح الحديث، ومعرفةٌ بسياقه ولغته، فيميز صحيحَ الأحاديث من سقيمها لكثرة إماره الصحيح النقي المنتقى، فإذا جاء ما يخالفه شعر بالغرابة أو النكارة قبل أن ينظر في الإسناد.

وكان صحيح البخاري هو الكتاب الحاضر، والورد الثابت في كل دروس الشيخ عبد العزيز ابن باز، لا ينتهي منه إلا أعاده، ولا ينقطع عنه، تتغير الكتب بعده ولا يتغير مكانه، وكان مما يكرر العلماء قراءته وترداده.

فقد قرأه غالب بن عطية المحاربي (٧٠٠) مرة، وقرأه سليمان العلوي (٢٨٠) مرة، وكان اليونيني يقرؤه في كل شهر مرة، وغيرهم كثير^(٤).

والقراءة في أصل الصحيح شأن العالم المتخصص، أما غير المتخصص في الحديث فيقرأ في الكتب التي قربت صحيح البخاري واختصرته، ومن أشهرها مختصر الزبيدي «التجريد الصريح»، و«اختصار صحيح البخاري وغريبه» لأبي العباس القرطبي، و«مختصر صحيح البخاري» للألباني، وغيرها.

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٩٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٧).

(٢) من كلمة للمحقق د. بشار معروف.

(٣) يُنظر: «الإمام البخاري وجامعه الصحيح» لشيخنا د. خلدون بن محمد سليم الأحذب حفظه الله.

(٤) يُنظر: «المتلذذون بالعلم» للشيخ راشد البdach (٤١٢)، فقد ذكر جمعاً ممن قرؤوا البخاري مئات أو عشرات المرات.



ولكن أجمعها وأكثرها إفادة فيما أحسب هو «مختصر صحيح البخاري» للشيخ د. سعد الشثري، حيث جمع ألفاظ الروايات المتفرقة في مكان واحد، وجمع تبويبات البخاري على الحديث، فجمع حديث البخاري وفقهه.

وكذلك الجمع بين الصحيحين لعبد الحق الإشبيلي، فإنه من أحسن ما جمعت فيه أحاديث الصحيحين مع دقة في جمع الألفاظ، وعناية بالترتيب، حيث رتب الأحاديث على ترتيب صحيح مسلم، وذكر من تبويب البخاري ما فيه معنى فقهه.

وكتاب «معالم السنة النبوية» فقد جمع فيه مؤلفه الشيخ صالح الشامي الأحاديث المقبولة من غير تكرار، فكانت قريباً من أربعة آلاف حديث ومثله «جامع السنة» للشيخ د. عبد العزيز بن عبد الرحمن المقحم، فالإمرار عليهما استعراضٌ لصحيح السنة وحسنها، مع مراعاة اختلاف الاجتهاد في التصحيح والتضعيف، فقد يعتبر المؤلف حديثاً حسناً، ويخالفه غيره فيعتبره ضعيفاً.

ولقد قرأت في أول المرحلة الجامعية مختصر البخاري ومختصر مسلم، ولازلت أقتات من تلك القراءة وأجد إفادتها إلى يومي هذا.

وطمّرت المعلومات الركامية قراءاتٍ كثيرة غيرها، ولذا فإن على طالب العلم في مسيرته الأولى أن يكون له مع ورد القرآن قراءة منتظمة في مختصر البخاري ومختصر مسلم أو الجمع بين الصحيحين للإشبيلي، وكلما اتسع علمه اتسعت المعاني أمامه.

ومن المهم في حال الإمرار أن تكون القراءة متوازية مع الفهم بدون تعمق في التفاصيل، فلا يلزم أن تقرأ الحديث مع شرح تحليلي، ومعرفة بالخلاف في أحكامه، ولكن من المهم فهم معنى الحديث الإجمالي، وتفسير الكلمة الغريبة فيه، وإذا كان في المعنى إشكال بُحِث حلُّ هذا الإشكال، وستجد أن لكل قراءة فتوحها، ولكل قراءة استشكالاتها، وبتوالي القراءة تتكامل المعاني، وتتراكم المعارف.



٣ - الامتتان لله بسلوك طريق الطلب:

فإنه أفضل مقام يقيم الله عبده فيه، فإذا كان أفضل البشر هم الأنبياء فإن أفضلهم بعدهم هم ورثتهم، والعلماء ورثة الأنبياء.

قال ابن المبارك: «لا أعلم بعد النبوة أفضل من تعليم العلم»^(١). وقيل لابن المبارك: لو قيل لك لم يبق من عمرك إلا يوم ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أعلم الناس^(٢).

وقال الإمام سفيان الثوري: «ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»^(٣).

وقال مهنا: قلت لأحمد: حدثنا ما أفضل الأعمال قال: طلب العلم قلت: لمن، قال: لمن صحت نيته قلت: وأي شيء يصحح النية قال ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل^(٤).

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٨ / ٣٨٧).

(٢) «المدخل إلى علم السنن» للبيهقي (٢ / ٧٢٦).

(٣) «مسند الدارمي» (٣٣٥).

(٤) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» لابن مفلح (٢ / ٣٧).



فإذا فتح الله لعبده هذا الباب فقد أراد به خيراً، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

واستشعار هذه النعمة من الله يوجب على العبد الامتنان لله بها، فهو الموفق والمعين سبحانه، وشكره على هدايته وتوفيقه، وتعاهد نيته بالإخلاص، وعزيمته بالجد، وسلوكه بالوقار، والحشمة وعدم الابتذال برديء القول وسيئ العمل، صيانة لمقام العلم ومكانته.

فسلوك هذا الطريق المبارك الذي تضع الملائكة أجنحتها لسالكه رضى بما يصنع نعمة عظيمة من الله.

وهو أيضاً مسؤولية وتكليف وتبعة يتحملها من سلكه، ليكون لائقاً به مؤدياً لواجباته ومتطلباته.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ، وَتَخَشُّعِهِ، وَلِسَانِهِ، وَيَدِهِ، وَصَلَاتِهِ، وَحَدِيثِهِ، وَزُهْدِهِ»^(٢).

وقال ربيعة بن عبد الرحمن: ينبغي لمن آتاه الله شيئاً من العلم ألا يضيع نفسه^(٣).



(١) «صحيح البخاري» (٧١)، «صحيح مسلم» (١٠٣٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٧٩)، و«سنن الدارمي» (٣٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧ / ١).



٤ - توطين العبادات في طليعة العمر:

كان ابنُ عمر شابًا عَزَبًا ينام في المسجد، وكان يرى أصحابَ النبي ﷺ يجتمعون إلى رسولِ الله ﷺ بعد صلاة الفجر فيقُصُّون عليه رؤاهم، فتمنَّى أن يرى في منامه رؤيا ليقصَّها على النبي ﷺ، وجعل يدعو الله أن يُريَه رؤيًا، فرأى ليلةً في منامه كأنَّ ملكين أخذاه فذهبا به إلى النار، فإذا هي مطوية كطيِّ البئر، فجعل يقول: أعوذ بالله من النار، فلقيهما ملكٌ آخر فقال: لن تُراعَ، فقصَّ رؤياه على أخته حفصة، فقصَّتها على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «نعم الرَّجُل عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»، فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا^(١).

لقد حرَّكت هذه الكلمات النبويَّة هِمَّةَ شابٍّ لا يزال في طليعة شبابه وقوة فتوته، فأثبت في ليله ورداً طويلاً من قيام الليل، واستمرَّ على ذلك دِيمَةً عمره حتى روى مولاه نافع حاله بعد أن تقدَّم به العمر فقال: كان ابن عمر ينام مثل إغفاءة الطائر، ثم يقوم فيصلي، ثم يرجع فينام مثل إغفاءة الطائر، ثم يقوم فيصلي، وهكذا يقضي ليلةً إلى السَّحر، ثم يفرغ للاستغفار.

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).



إن اعتياد القيام قد وطَّنه ابنُ عمر في برنامجهِ اليومي في بُكور الشباب، فبقي راسخاً في حياته وصاحبهُ في مراحل عمره، وهكذا تَوَطَّنُ العبادات والعادات الحسنة في طلائع العمر وبُكور الشباب هو الذي يساعد على استصحابها بقيةَ العمر.

ولذلك مثال معاصر، وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، فقد عُرِفَ عنه قيام الليل الطويل الذي يتجاوز ثلاث ساعات، وقد سأله ابنه الشيخ عبد المحسن: هل كان ذلك بتوجيه شيخك لك؟ فقال: لا، ولكني قرأت كتاباً عن فضل قيام الليل، وأنا في السابعة عشرة من عمري، فما تركت قيام الليل بعدها، وحدثت زوجته أنه قام ليلة زواجه مثل الليالي الأخرى^(١).

ولذا فإنَّ على طالب العلم استجماعَ عزمته في المحافظة على عبادات يومية ثابتة، كقيام جزءٍ من الليل، والمحافظة على وِرْدٍ يوميٍّ من القرآن، وعلى أذكار الصباح والمساء، وصيامِ النفل الأسبوعي أو الشهري ونحو ذلك، فإنَّه إذا وطَّنها في بدايات الشباب سَهَّلَ عليه استصحابُها بقيةَ عمره، وصارت جزءاً ثابتاً من برنامج حياته، وهكذا كان هديُّ النبي ﷺ في عبادته، ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن عبادة النبي ﷺ: كان عمله ديمة، أي أن هناك عباداتٍ ثابتةً يداوم عليها، ولا يفرط بها.

وتثبَّتُ العبادات الدائمة والعادات الحسنة إنما تكون في مرحلة الشباب؛ لأنَّ الإرادة قوية، والطبيعة طيِّعة يسهل تشكُّلها، أمَّا إذا تقدَّم العمر فإنَّ الإرادة تضعف، واللياقة تستعصي وتقاوم التغيير.

(١) الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم أحد نجباء تلاميذ مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم، وتخرج على يديه، وعمل مع والده في جمع وإخراج فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم عمل على جمع رسائل وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، وغيرها، توفي عام (١٤٢١ هـ). يُنظر: «العالم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم» لعبد الملك القاسم (٢٧٢).



ولقد عرفتُ بعضَ الصلحاء والعباد، وعجبتُ من إدامتهم برنامجهم العبادي، فلما سألتُ عنهم أقرانهم أخبروني أن هذا كان شأنهم الذي لزموه منذ طلائع أعمارهم. ولذا فإن أهم منجزات مرحلة التكوين تَوطينُ العبادات والعادات الحسنة في مسيرة الحياة منذ طلائع العمر.

ويمكن الاستفادة في تكوين هذه اللياقة وتثبيت العادات الحسنة من كتاب «العادات الذرية» لجيمس كلير، فهو مفيد في طريقة اكتساب عادة حسنة، أو التخلص من عادة سيئة.



هـ - اللهج بالذكر:

وذلك بالمبادرة إلى توطين ذكر الله في بدايات العمر، وإدمان الذكر واللهج به، فهي وصاة رسول الله ﷺ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ أَمْرِ يَتَشَبَّثُ بِهِ فَقَالَ لَهُ: «لَا يُزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

واعلم أن ذكر الله ليس عمل المتقاعدين والفارغين، ولكنه زاد يُستصحب في مسيرة العمر كله، وإذا نظرت إلى الذين فتح لهم في الذكر وجدت أنهم ألفوا ذلك في طلائع أعمارهم، وبداية مسيرتهم فصحبهم بقية عمرهم، ولقد رأيت من فُتح لهم في الذكر وكأنهم في الجنة، يجري ذكر الله على ألسنتهم كالنَّفس، ورأيت آخرين كبروا وهرموا وأضاعوا بقية أعمارهم على نواصي الطرق ومناضد المقاهي، تمر أعمارهم وتنقضي أوقاتهم لا يذكرون الله فيها إلا قليلا، وما ذاك إلا لأنهم لم يوطَّنوا هذه الوظيفة في برنامج حياتهم، ولم يتلقوها في طلائع أعمارهم، فصعب عليهم التدارك والتطبيع، ولذلك فإن المبادرة بإحلال هذه الوظيفة المباركة هو كسب لأيام العمر وساعات الوقت،

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٧٩٣)، و«سنن الترمذي» (٣٣٧٥).

ومدّد وعون لبقية وظائف الحياة، وقد أوصى عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي أحد طلابه فقال: أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه ييسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. قال: فجربته كثيراً، فكنْتُ إذا قرأت كثيراً ييسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم ييسر لي^(١).

وقد شاهدت ذلك عياناً، فإني لم أر أكثر لهجاً بالذكر من شيخنا عبد العزيز بن باز، حتى لا تكاد تغفل منه لحظة في يقظة لا يذكر الله فيها، ومع ذلك كان أكثر من رأيناه عملاً، وأضحى إنجازاً، مع السكينة والهدوء وعدم التوتر، وما رأيت لذلك سبباً إلا أنه مدد من الله بكثرة الذكر، فبورك له في وقته وعمله.

وعندما اشتكت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى أبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشقة العمل في بيتها، وسألته خادماً قال لها ولزوجها علي: «أَلَا أَذْلُكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»^(٢).

قال ابن القيم: قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات لم يأخذه إعياء فيما يعانیه من شغل ومن غيره^(٣).

وهذا مما يزيل العجب في أن العلماء السالفين كانوا يعيشون قلة في الإمكانيات، وازدحاماً في الأشغال والانشغالات، ومع ذلك تركوا تراثاً علمياً هائلاً كالطبري، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، وابن تيمية، وابن حزم، والذهبي، وابن حجر،

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٣/ ٢٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣٦١).

(٣) «الوابل الصيب» لابن القيم (٩٧).



وغيرهم، فإن تراثهم العلمي مما تقصر عنه الأعمار، ولكنها البركة في قواتهم وأوقاتهم بكثرة الذكر لله، فاستنزلوا مدده وعونه.

والذكر يجدد الإيمان في القلب كما قال ابن مسعود: «الذكر يُنبت الإيمان في القلب كما يُنبت الماء الزرع»^(١). وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة^(٢).

وفي «المسند» عن النبي ﷺ قال: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ» قالوا: كيف نجدد إيماننا؟ قال: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).



(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٢١٠٠٧).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٣٦٣).

(٣) «مسند أحمد» (٨٧١٠).



٦ - عبادة السر:

العبادة الخفية هي كنز المؤمن وخبيئته التي يحتفظ بها بينه وبين ربه، يستحضرها عند الدعاء، ويلقى الله بها يوم يلقاه فتكون له شفيعاً عند ربه. ومن أعظم ما يرسخ الإيمان في القلب، ويظهره من آفة النفاق، أن يكون للعبد عمل لا يطلع عليه أحد، وعبادة مستترة لا تشهدا العيون، ولا تسمع بها الأذان.

فالعبادات الخفية برهان صدق الإيمان، ومن أظهر أمثلتها الوضوء؛ فهو عبادة لا يراقبها الناس، فمن أتى المسجد بغير وضوء لم يشعر به أحد، ولذلك قال النبي ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^(١)، وقال: «لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٢).

ومنها قيام الليل، فهو شاهد على حياة القلب، وعلامة على صحة اليقين. جاء رجل إلى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أبا عبد الله، إني أخشى أن أكون منافقاً، فقال له حذيفة: تصلي إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنبت؟ قال: نعم. قال حذيفة: اذهب فما جعلك الله منافقاً^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (٨١٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٣٧٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧٧).

(٣) «الترغيب والترهيب» لقوام السنة الأصبهاني (١ / ١٦٧).



وقال قتادة: ما ساهر الليل منافق^(١).

وتأمل قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فلم يستطيعوا الخروج، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، وكانت كلها أعمالاً خفية بينهم وبين الله، فلما دعوه بها كشف عنهم الكرب العظيم.

وكذلك حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ تجد أن صفاتهم كلها قائمة على الإخلاص والخفاء: إمام عادل لا يتزين للناس، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، وكل هذه عبادات خفية لا نصيب فيها للمدح أو الشهرة أو الرياء، وإنما هي أعمال خفية خالصة لله.

وهذا المعنى كان ظاهراً في حياة الصحابة؛ فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يجمع في يوم واحد الصيام وعبادة المريض واتباع الجنازة والصدقة، ولم يُعرف ذلك عنه إلا بسؤال النبي ﷺ له، وكلها أعمال خفية لم يقصد بها اطلاع الناس.

وكذلك أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان يقرأ القرآن في خلوته، لا يدري أن النبي ﷺ يستمع إليه، حتى أثنى عليه رسول الله ﷺ، فعلم حينها أن النبي ﷺ قد سمع تلاوته.

فهذه الأعمال المستترة هي التي تزيد الإيمان، وترفع إلى مقام الإحسان، وعلى طالب العلم في بداية طريقه أن يتكثّر منها، ويجعلها جزءاً حاضراً في عمل يومه وليلته، وبذلك تخلص نيّته، ويصدق إيمانه، ويلتذ بالطاعة، إن طاعات الخفاء وعبادات السرّ من أعظم ما يزكّي النفس ويعصمها من شهوات النفوس ومراداتها الخفية،

(١) «مسند ابن الجعد» (١٠٥٣).



﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وهي زاد الطريق، وذخيرة الآخرة، وهي العبادة السالمة من شوائب الرياء، البعيدة عن أهواء النفس، التي يدخرها المؤمن ليلقى بها ربّه، واعتيادها في بداية طريق السير وبكور العمر تزكية للقلب، وتربية للنفس على الإخلاص، ودوام المراقبة لله، حتى تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.



٧ - تحديد الهدف:

كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في بداية طلبه يخرج إلى علماء الحديث الذين تبدأ دروسهم بعد صلاة الفجر، وكانت بغداد واسعة متباعدة النواحي، ولذا فلقي يُدرك حِلَقَ شيوخه كان لا بد أن يخرج قبل الفجر، فكانت أمّه تأخذ بثوبه، وتقول: حَتَّى يُؤَدِّنَ الْمُؤَدِّنُ^(١)، وذلك من خوفها عليه، لأنه في سِنٍّ لا تطمئن عليه إذا خرج وحده.

وهنا نتساءل: ما الذي يوقظ فتى في بُكور عمره وأوائل شبابه في هزيع الليل الآخر ليلحق بحِلَقِ العلم ومجالس الشيوخ؟.

إن هذا يبيّن لنا أن أحمد بن حنبل - وهو في هذا العمر الباكر - كان قد رسم طريقه، وحدّد هدفه، وعرف غايته، ولذا بدأ بهذا الجدّ وهذه العزيمة، وقد أدرك بعد ذلك حصيلة هذا السعي وثمره هذا الجهد الواضح المرسوم، فكان إمام أهل السُّنَّة، وعالم الفقه والحديث، المُشار إليه بين أقرانه.

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١ / ٣٠٦).

ومثل ذلك ما قاله المنذريُّ عن ابن عساكر حين ذُكر له كتابه «تاريخ دمشق»، فطال حديثه في أمره واستعظمه، وقال: ما أظن هذا الرجل إلّا عَزَمَ على وضع هذا التاريخ منذ عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه. قال ابن خَلَّكان: ولقد قال الحقُّ، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول^(١).

ومثل ذلك حال أحمد ابن تيمية في فتوّته، فقد طلب إليه أبوه أن يخرج مع إخوانه إلى نزهة خارج دمشق يُروّحون فيها عن أنفسهم، فاعتذر من أبيه وتعلّل بحاجته إلى البقاء، فلما عادوا مساءً عاتبه أبوه بأنّه قد حرم إخوته مشاركته لهم في هذه النزهة، فقال لأبيه: يا أبي، إنني اليوم حفظتُ هذا الكتاب، لكتابٍ معه، فقال أبوه: حفظته! كالمنكر المتعجّب من قوله، فقال له: استعرضه عليّ فاستعرضه، فإذا به قد حفظه جميعه، فأخذه وقبّله بين عينيه، وقال: يا بني، لا تُخبر أحداً بما قد فعلتَ^(٢).

وهنا نسأل: ما الذي يجعل فتى في سنّ الفتوة يجِدُّ هذا الجِدِّ حتى يستغلّ فترة النزهة في الحفظ؟

إنّ هذا يدلّ على وضوح الرؤية وتحديد الهدف، ولذا نضج الشيخ سريعاً، وجلس للتدريس، وأُذِنَ له بالفتيا وهو في العشرين من عمره، ثم صار شيخ الإسلام، وتتابع العلماء على تعظيمه ورفع منزلته والتسليم لإمامته، رَحِمَهُ اللهُ.

وإنّ هذه المشاهد لتبيّن لنا أهميّة تحديد الهدف ووضوح الرؤية منذ بداية الطريق. وتحديد الهدف ووضوحه يسهّل وضع خارطة الطريق، ومراحل السير، وخطة الوصول، وهذا الهدف ممّا تُكتشف ملامحه في حياة أصحاب المنجزات الكبيرة.

(١) «وفيات الأعيان» لابن خَلَّكان (٣/ ٣١٠).

(٢) «الرد الوافر» لابن ناصر الدين (١٣٣).



ولذا فإنّ على طالب العلم في بداية الطريق تحديد الهدف ومعرفة الغاية، وإذا حدد هدفه نظر في حاله وطريقة سيره: هل توصّل إلى هذا الهدف الذي قصد إليه؟ وما الذي عليه فعله حتى يصل إلى هدفه؟ فيضع خارطة الطريق، وخطة السير، ومراحل الإنجاز، ويحسّن كتابة هذه الخطة ومراجعتها وتعديلها، فإنّ هذا يعطي طاقةً دافعة، وتحفيزاً قوياً، كما يكشف في مرحلة مبكرة استقامة السير، ومؤشّر الإنجاز ليتدارك ما يمكن إدراكه.

أمّا إذا سار في حياته بلا هدفٍ محدد ولا خطة سير واضحة فإنّ العمر يتفرّق، ويعيش في استرخاء الانتظار، فليس ثمّ إنجازٌ محدد، ولا مراحل واضحة، ولا خطوات متتابعة، ويقتل التسويف عزائم العمل، فتضيع الفرص، ويصعب التدارك.



٨ - التأصيل في التحصيل:

وذلك بتأسيس قاعدة معرفية صلبة للعلوم، وعدم التشتت بجمع المعلومات الركامية المتفرقة من غير تأسيس لأصول العلم.

ويكون التأصيل بقراءة معمقة للكتب الأصول المختصرة في كل علوم الشريعة من الفقه والحديث والأصول والاعتقاد واللغة، وهضم هذه الأصول جيداً، بحيث تتضح أمامه خارطة العلوم، فيلحق بعد ذلك كل معلومة بأصلها، ويبينها على أساسها.

ثم يمكنك بعد ذلك اختيار المسار المناسب والذي تجد نفسك فيه، وكلُّ له مشربه، فهذا يجد نفسه في الحديث، وآخر في الفقه، وآخر في الأصول والمقاصد، ومهما كان التخصص الذي تختاره، فلا بدّ من قاعدة مؤصّلة في بقية العلوم، فإن هذه العلوم متصلةٌ ببعضها، وبينها ترابط وثيق واشتراك لصيق، لا يغني بعضها عن بعض، ولا ينفك بعضها عن بعض، وهكذا تكون الاستزادة من العلم تشييداً بنائياً، وليست فوضى ركامية.

وهذه طريقة العلماء في دراستهم على شيوخهم وفي مدارسهم، فكان النووي في وقت الطلب يقرأ في اليوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً،



منها درسان في الوسيط، وثالث في المذهب، ودرس في الجمع بين الصحيحين، ودرس في صحيح مسلم، ودرس في اللُّمَع لابن جني في النحو، ودرس في إصلاح المنطق، ودرس في التصريف، ودرس في أصول الفقه، ودرس في أسماء الرجال، ودرس في أصول الدين، قال: «وكنْتُ أعلِّقُ جميع ما يتعلّق بها، من شرح مُشكِّل، ووضوح عبارة، وضبط لغة»^(١). وذكر الشيخ عبد الله العنقري^(٢) محفوظاته في بداية الطلب بعد حفظ القرآن، فقال: حفظت ثلاثة الأصول، وكتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وآداب المشي إلى الصلاة، والواسطية، والحموية، والتدمرية، ومن كتب الحديث متن الأربعين النووية، وبلوغ المرام، ومن متون الفقه زاد المستقنع، وبعض عمدة الفقه، و متن الرحبية، والآجرومية، والملحة، و متن القطر، والألفية لابن مالك، ونخبة الفكر، والبيقونية، وفي أصول الفقه ورقات الجويني، وفي التجويد الجزرية، فهذه جملة محفوظاتي^(٣).

وبذلك ترى هذا الشمول والتنوع والتكامل في تكوين الحصيلة العلمية.

ومن المهم أن يكون ذلك في بداية طريق الطلب بجدية والتزام، فأوائل العمر وفراغه هي المرحلة الذهبية للحفظ والتأصيل، والموفق من اغتنمها فيما هو أليق بها. وقد تخطف طالب العلم في بداية الطلب لطائف العلم ومُلَحُّه، وكتب الفنون المتنوعة، فتجذب به إلى قراءة مقدمات الكتب والسير والتراجم وجمع الملح والطرائف،

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١٧٤ / ٤).

(٢) الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري ولد سنة (١٢٩٠هـ) في إحدى قرى الوشم بنجد، وأخذ العلم عن علماء الرياض، حتى تخرج وفاق، وولي قضاء ثرمداء، ثم قضاء سدير، وتخرج به جمع من العلماء، منهم شيخنا حمود التويجري، والشيخ سليمان بن حمدان، وغيرهم، وألف حاشية الروض المربع، جمع فيها حواشي علماء الحنابلة على الروض، وتوفي سنة (١٣٧٣هـ).

(٣) من ترجمة الشيخ لنفسه أملاها على تلميذه سليمان بن حمدان.



ولها جاذبية وشهوة، خصوصاً أن المولع بها يتميز سريعاً بين أقرانه بما يُغرب به عليهم، وتجذب به سهولة تحصيل هذا النوع من المعارف عن الاجتهاد في تعميق المعرفة وتحصيلها.

وقد كان العلماء المرَبون يحوطون طلبة العلم أن يستكثروا قبل أن يتأصلوا، وحدثني شيخنا عبد الله بن عقيل رَحِمَهُ اللهُ عن مشايخه في بلدته عيزة أنهم كانوا يغلقون خزانة الكتب عن الطلبة في طور التأسيس حتى لا يقرؤوا ما يشغلهم عن مقررهم الذي يدرسون، ويوجهونهم إلى جمع الهمة على مقرراتهم، وأما ما بعده فسيذكره.

وحدثني أبي - أكرمه الله - عن زميله في المعهد العلمي الشيخ حسن بن مانع رَحِمَهُ اللهُ، وكان كفيف البصر أن عمه أحضره إلى الشيخ محمد بن إبراهيم ليلتحق بالطلبة الذين يقرؤون عليه، فقال له: احفظ القرآن يا ولدي. قال: حفظته أحسن الله إليك. قال: فاحفظ الأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، قال: حفظتها أحسن الله إليك. قال احفظ كتاب التوحيد. قال: حفظته. ففرح الشيخ به، وقال: إذن ترتب مع الإخوان في زاد المستقنع غداً.

وقديماً قيل: إنَّ اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم مضلة للفهم^(١). وأوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده فقال: روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم^(٢).

فكانت لمراعاة التراتبية في تحصيل العلم وتأصيله أهميتها لديهم، ولذا لاحظنا في بعض مشايخنا الذين درسوا على هذه الطريقة أن معلوماتهم ربما كانت قليلة، ولكنها مؤصلة ومنظمة، فتسعفهم عند الحاجة، وتصاحبهم في مراحل العمر.

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ١٨٣).

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ٤٨).

٩ - الإثراء اللغوي:

وذلك أن يكون له عناية في طور التكوين بقراءة الكتب المتينة لغويا وأديبا، والقراءة لأمرأ البيان قديماً وحديثاً كالبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، والكامل للمبرد، والبصائر والذخائر للتوحيدي، ومن المتأخرين: نظرات المنفلوطي، ووحى القلم للرافعي، ووحى الرسالة للزيات، وعيون البصائر للبشير الإبراهيمي، ورجال من التاريخ للطنطاوي، ونحوها، وبذلك يتطور أسلوبه الأدبي، وتتسع ثروته اللغوية، ويكون عنده بعد ذلك إبانة لما يريد بيانه من العلم، ويحسن التعبير عما تعلمه، ولا يكون ضَعْفُ البيان حاجزا عن إيصال ما ظفر به من علم، ولذا نجد العلماء الذين لهم مشاركة في الأدب يكتبون بلغة مشرقة وجاذبة ومؤثرة، مثل ابن حبان، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن القيم، وغيرهم، ومن المعاصرين البشير الإبراهيمي، والطاهر بن عاشور، والخضر حسين، وبكر أبو زيد، وغيرهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

١٠ - كتب أدب الطلب:

كتب أدب الطلب لها أهميتها في بكور الطلب، فيستفيد منها الطالب تحفيزاً وتسديداً، فإن رغبت في شيء منها فخذ ما كتبه علماء راسخون، كتبه بعد أن ساروا في الطريق ونضجوا وأنتجوا. مثل مقدمة المجموع للنووي، و«مختصر الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» للشيخ بكر أبو زيد، و«لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» لابن الجوزي، و«أدب الطلب» للشوكاني، و«حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد، و«الخطبة البراقة لذي النفس التواقة» للشيخ صلاح الخالدي، و«الطريق إلى النبوغ العلمي» للشيخ صالح آل الشيخ، ونحوها.

ومن المفيد لطالب العلم تعاهد هذه الكتب الفينة بعد الفينة.

فإن فيها شحذاً للهمة، وترشيداً للمسار، وإفادة من تجربة ذوي التجارب الناجحة.

وكما يحتاج الجسم إلى تعاهده بالتغذية والرياضة فكذلك تحتاج العزيمة إلى تعاهدها بما يجدد طاقتها، ويُرشِّدُ مسارها.

على أن بعض ما يذكر فيها ليس قاعدة مطردة لكل أحد، فلكل شخصيته وملكاته ومواهبه الخاصة، وما يُنصح به طالب قد لا يناسب غيره، فقد جعل الله لكل شيء قدراً، ولكن المهم سلوك مسارات الطلب الأساسية.

١١ - أدب مخالطة العلماء:

عند مخالطة أهل العلم فلا بد أن تكشف لك الخلطة شيئاً من الجانب البشري لديهم، وبعض عيوب النقص الإنساني، فكل بشر من البشر فيه عوارض النقص، وهو مظنة للضعف والخطأ، فينبغي على طالب العلم أن يحوط ما يراه بالستر والكتمان، وعدم إفشاء العيوب لخاصة الناس فضلاً عن عامتهم، إن العلماء إنما يكشف لك عيوبهم تقرّبهم لك، فلا يكون جزاء هذا المعروف منهم العقوق لهم.

وإنما يذكر المتعلم عمّن أدركه من أهل العلم كمالاته، ومواقع القدوة منه، قال العلامة الصنعاني رحمته الله: لئيم الطلبة وخبيث الحضّار عند العالم متّبع العثرات وكاشف العورات ودافن الحسنات وما أكثر هذا النوع - لا كثرهم الله - فإنهم الذين أفسدوا معالم العلم، وبسّس الجزاء أن يجازي التلميذ شيوخه بإشاعة هفواتهم وزلاتهم، فإنه لا بد لكل جواد من كبوة ولكل صارم من نبوة:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه
فخير الناس من أشاع الخير عن العلماء وأذاعه ودافع عنهم إن سمع قادحاً فيهم^(١).

(١) «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني (٩/ ٥٢٨).

وكما ينبغي علينا ستر النقائص وعدم ذكر عيوب الشيوخ فإن علينا أيضاً التوازن بعدم ذكر هذه العيوب على أنها كمالات، ومواطن اقتداء، وهذا من الأخطاء القاتلة عندما يقلد طالب العلم أشيأخه في ما ليس من كمالاتهم وإنما هو من نقصهم البشري، لكن هذا النقص في العلماء مغمور في بحار فضلهم، فإذا وقع من غيرهم جرف ما يمكن أن يكون في طريقه من حسنات صغيرة، وصار أكبر ما يشاهد في هذا الطالب هذا الخلق الذي يحسب أنه تشبه ببعض أخلاق العلماء، وهو مما يتتقدون فيه، فقد يقلد الطالب شيخه في شدة العبارة، أو سوء الظن بالناس، أو الحدة في التعامل، ونحو ذلك، وهذه قد تكون في الشيخ قطرة مغمورة في بحر فضله، لكنها من هذا الطالب سوءة لا يوجد ما يسترها من فضائل كانت عند شيخه وليست عنده.



١٢ - الأقران في المسيرة العلمية:

وكما يحتاج المتعلم إلى الشيوخ في مرحلة الطلب، فكذا يحتاج إلى الأقران في مسيرة التحصيل والتكوين، ويحتاج إلى التلاميذ في مرحلة النضج والعطاء.

وأهمية الأقران لطالب العلم أنهم هم الذين يذكرونه، ويحفزون، ويوردون عليه ما يستثير ذهنه، فتحيا معلوماته بمذاكرتهم، وكانت مذاكرة الأقران من برامج التكوين عند السلف، ولهم في ذلك أخبار عاجبة، فعن عطاء بن أبي رباح قال: كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث^(١).

ومن ذلك أن وكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدي تذاكرا ليلة في المسجد الحرام فلم يزالا حتى أذن المؤذن أذان الصبح^(٢).

وقال محمود بن آدم المروزي: رأيت وكيعاً وبشر بن السري يتذاكران ليلة من العشاء إلى أن نودي بالفجر^(٣).

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٥ / ٤٨١).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢ / ٢٧٤).

(٣) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١ / ٢٢١).

وقال السَّديدُ الدِّمياطي: اجتمع علاء الدين ابن النفيس ليلة هو وجمال الدين ابن واصل، وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح^(١).

وقال الحافظ سراج الدين البلقيني: لما قدم شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي مصر نزل في قصر بشتك، فدعاه شخص إلى الجيزة، فحضرت معه في جماعة من علماء القاهرة، منهم بدر الدين الزركشي، وابن العنبري، والطنبذي، فلما صليت العشاء قال لي شرف الدين ابن قاضي الجبل: يا سراج الدين أينما أحفظ، أنا أم أنت؟ فقلت له: سبحان الله، أنتم كذا وكذا، أتواضع له.

فقال: أستمحضر أنا أو أنت؟ فقلت له: إن أنا استحضرت شيئا - يعني حديثا - تذكر له طريقه، وكذا بالعكس، لكن اذكر أنت على حدة وأنا كذلك، فقال ابن قاضي الجبل: اذكر أنت.

فأخذت أذكر أحاديث معللة من أول أبواب الفقه، ولا زلت أذكر إلى أن طلع الفجر، وقد وصلت إلى كتاب النكاح، فقام ابن قاضي الجبل وقبَّل بين عيني وقال: يا سراج الدين، ما رأيت بعد الشيخ - يعني شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية - أحفظ منك^(٢).

ففي صحبة الأقران من طلبة العلم العجادين ومذاكرتهم تحفيز على الاستمرار والاستزادة، وإنما تتجدد الهمة وتنشط بالفاعل والمذاكرة والمناقشة المحفزة.

كما أنَّ في مذاكرة الأقران إحياء للمعلومات وتجديداً لها، وحفظاً لها من الذبول والموات، ولما التقى ابن أبي ليلى وعبد الله بن شداد بن الهادي، فتذاكرا الحديث فقال أحدهما للآخر: يرحمك الله قرب حديث أحييته في صدري كان قد مات^(٣).

(١) «مسالك الأبصار» لابن فضل العمري (٩ / ٦١٨).

(٢) «لحظ الألفاظ» لابن فهد (٢١٢).

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢ / ٢٧٣).



وقال المأمون العباسي: العلم على المناقشة أثبت وأصح منه على المتابعة^(١).
وعندما قرأت سوانح الشيخ جمال الدين القاسمي لاحظتُ علاقته الوثيقة بالشيخ
طاهر الجزائري، ولقاءاته اليومية به، والتي كانت مجالس علم ومذاكرة وبحث.
كما أن في صحبة الأقران ومذاكرتهم حفظًا لتوازن طالب العلم، فإذا نَدَّتْ مِنْ
المتعلِّم أبدَّةٌ شاذةٌ فإنه بالمذاكرة مع أقرانه يكتشف عوارها، فيستعيد توازنه العلمي؛
لأن الأقران يجرؤ بعضهم على بعض من غير تحفظ ولا احتشام.
وكم يضر بطالب العلم أن يكون ذا همة وعزيمة ومضاء، ولكنه من دون رفقة يتذاكر
معه، ويصقل حصيلته العلمية بالنقاش الجريء مع من يجرؤ عليهم ويجرؤون عليه،
ولذا فإني أحسب أن من أسباب الشذوذات التي وجدت عند بعض الفضلاء الذين كان
لهم همة وعزيمة فائقة أنهم حلّقوا وحدهم فلم يكن معهم من يذاكرهم ويناقشهم،
فبدرت منهم آراء شاذة لم تمحص بالحوار الجريء.
ومن أدب الصحبة بين أهل العلم: السخاء بالفائدة العلمية وعدم كتمانها والاستئثار
بها، وإنما يدل عليها ويُفشيها، فإن العلم يزكو بالبذل ويكثر بالعطاء، وإذا ظفر بسماع
أو إجازة مُجيز عالية أن يرشد إليها غيره، فإن كتمان ذلك لؤم يقع فيه جهلة الطلبة،
ويُخاف على كاتمه عدم الانتفاع به، فإن بركة العلم في إفادته.
قال الإمام مالك: إن العلم إذا مُنِع عن العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة^(٢).



(١) «الخطابة» للشيخ محمد الخضر حسين (١٧٣).

(٢) «كشف المغطأ» لابن عساكر (٣١ / ١).



١٣ - العطاء المبكر:

ومن أعظم ما يزكي العلم بذله والسخاء به، والتعليم هو أعظم روافد التنمية الذاتية، ومن المهم لطالب العلم ألا يؤخر بذل العلم انتظاراً لعمرٍ معيّن يُبلّغه، أو مستوى أعلى يصل إليه، وليس للنفع بالعلم عمرٌ خاص ولا مستوى خاص، وفي أي مرحلة كنتَ سيكون هناك من هو أعلم منك ومن هو دونك، فليكن دأبك الاستفادة ممن هو أعلم منك، وإفادة من هو أقلّ منك، وإذا كانت زكاة المال (٥, ٢%) فإن زكاة العلم (١٠٠%)^(١)، وليس أحد أكبر من أن يستفيد، ولا أحد أصغر من أن يفيد.

وكان الشوكاني يقرأ على مشايخه، فإذا فرغ من كتابٍ قراءَةً أخذَه عنه تلاميذه، بل ربما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة الكتاب على شيخه، وكانت تبلغ دروسه في اليوم ثلاثة عشر درساً، منها ما يأخذه عن شيوخه، ومنها ما يأخذه عنه تلامذته^(٢).

(١) كلمة لأخي عبد الله بن عمر في برنامج «أسمار وأفكار».

(٢) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢١٨).



ولقد عرفتُ من حال شيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ أنه كان حين طلبه العلم على شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم يعيد للطلبة المبتدئين ممن هم دونه، فكان في حلقة الشيخ متعلِّماً ومعلِّماً في آن.

وكذا كان شيخنا محمد بن إسماعيل العمراني يجثو عند الشيوخ ويجلس عند الطلبة، قال رَحِمَهُ اللهُ: وبينما كنت أختلف إلى مشايخي للأخذ عنهم في كتب التخصص كنت أستعين بالله وأفتح حلقات علمية لطلاب أقلّ مني تحصيلاً في الكتب الأولية من المتون والمختصرات التي تشمل كتب الفقه واللغة والحديث، وبهذا حصلت على فوائد جمّة، وعلوم نافعة قيمة، أكثر مما لو كنت مقتصرّاً على التحصيل فقط^(١).

والتعليم لمن هو دونك بما عندك من علم هو أول درجات الصعود، ومن إعداد اللياقة للبذل العامّ والنفع العامّ.

وقد رأيتُ من الأكاديميين أصحاب الشهادات العليا من يحتار إذا سُئِلَ عن مسألة فقهية من مشهور العلم، مع أنه بدرجة أستاذ في الفقه المقارن، وسبب ذلك أنه لم يتعوّد التفاعل مع مسائل الناس ومعرفة واقعهم، فيقع في حيرة عند تطبيق ما تعلّمه على ما سُئِلَ عنه.

والتعليم والإفادة للآخرين من أقوى المحفّزات لازدياد والتميّز، وقد سُئِلَ أحد العلماء عن سبب انهماكه في التحصيل فذكر أن أعظم ما يحفّزه وجود من ينتظره ليتعلّم منه، وهذا يدفعه إلى تنمية حصيلته حتى لا يكرّر نفسه، ولذا اشتهرت كلمة أحد العلماء: «أنا تلميذ تلامذتي».

(١) «الروض الندي» لأحمد غانم الأسدي (٤٣).



وكم رأيتُ من الفائقين في تحصيل الدرجات العلمية في التخصصات الشرعية، ولكنهم تباطؤوا في المشاركة العامة والنفع العام وبذل العلم لمن يحتاجه تورّعاً، أو تباطؤاً وكسلاً، حتى تفارط بهم العمر، ولم يظهر إشعاع العلم على من حولهم، لا في دروس يجلسون لها، ولا كلمات يلقونها، ولا بحوث يُبدعون فيها، وإنّما كان علمهم سُلمًا وظيفيًا، وترفًا معرفيًا، ولذا عاشوا بقية أعمارهم كالعوام، ليس للعلم حضور في حياتهم، ولا تأثير فيمن حولهم، ولا أعلم سببًا لذلك إلا تأخير المبادرة للبذل العام حتى تجاوزهم الوقت، وفقدوا اللياقة لذلك، وشُغلت الساحة بغيرهم ممن هو دونهم علمًا وفهمًا، ولكنه أكثر منهم جرأة وعزمًا.



١٤ – قوّة الإرادة:

من القواعد التي يذكرها من كتب في التنمية البشرية أنّ النجاح يحتاج إلى ثلاثة أسس: الرغبة، والقدرة، والإرادة.

أمّا الرغبة فهي موجودة عند كل الناس، وأمّا القدرة فهي عند كثير من الناس، وأمّا الإرادة فلا توجد إلا عند قليل من الناس، وهم الذين يملكون طاقة الاستمرار والمواصلة ويصلون في النهاية.

والرغبة بدون إرادة أمنيّات، والقدرة بدون إرادة طاقةٌ معطّلة.

وكم جمعنا طرق الحياة بنوايح هم شُعْلُ ذكاءٍ وتوقّد، ثم غابوا في الزحام، ولقيتُ بعضهم فإذا وهجهم قد انطفأ، وانغمروا في ماجريات الحياة ومعتادها، ولا أحسب لذلك سبباً إلا ضعف الإرادة، ولذا يتحوّل الذكاء إلى تبرير للكسل وتسويغ للفشل.

كما رأيتُ من أصحاب الإنجازات مَنْ إذا جالسته لم تشعر بتمييزٍ في الذكاء ولا الحفظ، ولكنك تجد الحزم والعزم في استغلال ما وهب له، ولذا تتابع إنجازاته، ويحقّق ما لم يحقّقه من يملكون قدرات أكثر ولكن بإرادة أضعف،

وكم من تفوّق أكسبته المواظبة والمصابرة وطول الدأب، والصمود على أبواب العلم، حتى فُتحت لهم المغالق، وقد قيل: بالعزم يتبدى مؤهلك، وبالدوام يزداد تقدمك^(١).

وقد قيل: العبقريّة واحد بالمئة منها موهبة، وتسع وتسعون اجتهاد وعرق.

إن الفكر لا يفتر، واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن، فإن لم تشغلها بالعظام شغلتك بالصغائر، وإن لم تُعملها في الخير عملت هي في الشر، ولذلك تجد كثيرين يظهرون الانشغال وكثرة الأعمال، ولو فحصتها لوجدتها حزمة من الأعمال التافهة حضرت في حياتهم لفراغها مما هو أهم منها، ولذا فعلى الإنسان أن يتفكر في أهمية ما يشغله، وما هي أولويته في حياته، وما هي خدمته لمشروعه الأكبر؟ كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لأمقت الرجل أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا الآخرة»^(٢).

«إن في النفوس ركوناً إلى اللذيد والهين، ونفورا من المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورُضها وسُسها حتى تألف جلائل الأمور، وتطمح إلى معاليها، ثم تنفر من كل دنية، وتربأ عن كل صغيرة، علمها التحليق تكره الإِسفاف، وعرفها العز تنفر من الذل، وأذقها اللذات الروحية العظيمة تحتقر اللذات الحسية الحقيرة»^(٣).

ولذا فلا بدّ أن يتعاهد طالب العلم إرادته ألاّ تخبو، وعزيمته ألاّ تضعف، وليتذكر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ،

(١) من مقال د. الخضر حليس اليافعي.

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٥٦٢).

(٣) «الشوارد» عبد الوهاب عزام (٧).



اُخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ^(١). ومما يشحذ الهمة ويجدد العزيمة القراءة في سير العلماء، ومن أجمع ذلك كتاب شيخنا الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ «صفحات من صبر العلماء»، وكذلك صحبة الجادّين من الطلبة المتميّزين بجِدِّهم، فإنَّهم يدفعونك بعلوِّ همَّتْهم، وسرعة خطوهم.

ومن أعظم المعوّقات صحبة العاطلين البطّالين، والكسالى الأذكياء الذين يسخّرون ذكاءهم في تبرير كسلهم وتسويغ فشلهم، وانتقاد غيرهم، فاحذر عدواهم، فإنَّهم سُراق الأعمار ومروّجو مخدّرات التسويف والكسل.



(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).



١٥ - الشخصية النامية:

قال الإمام إبراهيم الحربي: صحبت أحمد بن حنبل عشرين سنة صيفاً وشتاءً وحرّاً وبرداً وليلاً ونهاراً فما لقيته لُقاءً في يوم إلا وهو زائد عليه بالأُمس^(١).
إنّ هذا الوصف هو صفة الشخصية النامية المتطورة صعوداً، والمتقدمة إلى الأمام دائماً.

وقد قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، فالإنسان له حالان: إمّا تقدّم وإمّا تأخّر، أمّا التوقّف فهو في حقيقته تأخّر ورجوع إلى الوراء.

وعلو الهمة والطموح المتوثّب هو القوة الدافعة للنمو والتقدم، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(٢). وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تصغرَنَّ همّتكُم، فإنّي لم أر أقدع عن المكرمات من صغر الهمم^(٣). وقال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفساً تواقة، لا تعطى شيئاً إلا تافت إلى ما هو أعلى منه،

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١ / ٩٢).

(٢) يُنظر: «المعجم الأوسط» للطبراني (٢٩٤٠)، و«المستدرک» للحاكم (١٥١).

(٣) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٣١٩).

وإني لما أعطيت الخلافة تاقَت نفسي إلى ما هو أعلى منها، وهي الجنة^(١). وقال ابن الجوزي: «من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دني»^(٢).

ولذا فمن المهم أن يكون طالب العلم الطَّمُوح في حالِ استزادةٍ علميةٍ، ونموٍّ وتطوُّرٍ مستمرٍّ، وألا تشغله كثرة الأعمال والمشاكل اليومية المعتادة عن تطوير نفسه، والاستزادة من القراءة والتعلُّم، وقد قيل: الجهل لا يحتاج إلى أكثر من ترك التعلُّم.

ومن أعظم المحفزات للنمو والتطور: المنافسة مع الذات، وذلك بأن يراقب الإنسان إنجازاته، ويدخل في منافسة مع نفسه أن يحقق في المستقبل أكثر مما حقق في الماضي، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وأَيُّ صاحب علمٍ إذا ترك تطوير نفسه وتنمية علمه تَقادم وتجاوزته الوقت، وأصبحت معلوماته قديمة مكرورة، فيصبح مألوفاً ثم مملولاً.

ولذا كان العلماء وأصحاب الإنجازات هم أصحاب النمو المتسارع المستمرّ، كما قال الإمام أحمد وقد سُئِلَ: إلى متى تطلب الحديث؟ فقال: «مع المحبرة إلى المقبرة»^(٣). وقال أبو الوفاء بن عقيل: إنِّي لأجد من حرصي على طلب العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ ممَّا كنتُ أجده وأنا ابن عشرين سنة^(٤).

وقال ابن القاسم: كنت أسمع من مالك كل يوم غلساً إذا خرج من المسجد ثلاثة أحاديث، سوى ما أسمع مع الناس معه بالنهار^(٥). وسمعت عن الشيخ عبد الرحمن حبنكة أن درسه بعد الفجر هو الدرس اليومي الثالث، وقبله درسان قبل الفجر،

(١) يُنظر: «حلية الأولياء» لأبي نُعَيْم (٥ / ٣٣١).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (٢٨).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٧).

(٤) «المنتظم» لابن الجوزي (١٧ / ١٨١).

(٥) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٣ / ٢٥٠).

وحدثني الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان رَحِمَهُ اللهُ أن درسهم على الشيخ حسن المشاط كان قبل الفجر في المسجد الحرام.

وزرتُ يوماً الشيخ يوسف القرضاوي رَحِمَهُ اللهُ في أواخر عمره المديد، فأتيناه على الموعد الذي حدّده لنا، ففتّح الباب وكان ينتظرنا في مكتبته، فلا أنسى منظر استغراقه، وقد أقبلنا عليه، وهو بين أوراقه المنشورة أمامه في حال استغراقٍ فلم يشعر بنا حين اقتربنا منه، فتساءلتُ: ما هذا النّهم العلمي في هذا العمر؟! ما هذه المشاريع المتتابعة التي استغرقت وقته وغمرت تفكيره؟!

وزرت الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ في آخر عمره على موعد متأخر بعد العشاء، فدخلت عليه في المكتبة، فإذا قارئه الأخ صلاح قد نشر الكتب وهو يراجع معه حديثاً، ويبحث مسألة كنت أظنها من مشهور العلم، فعجبت من لهف الشيخ على التحقيق والبحث مع تقدم العمر وإجهاد العمل.

وفي المقابل عرفت أناساً في طليعة العمر كانت عليهم مخايل النبوغ والتألق، وكانوا يُعجِبُونَ كُلَّ من عرفهم أو سمع منهم، ثم مضى بنا وبهم العمر، فلقيناهم بعد ذلك فإذا هم يَمْضَغُونَ نفس الكلام، ويكرّرون نفس الأفكار، وقد سار الناس وتغيّرت الأحوال وهم يراوحون مكانهم، وعادوا كالعوامّ في اهتماماتهم وأحاديثهم، وليس ذلك إلا بسبب التوقّف عن النموّ والتنمية. ومن لم يتقدّم تقادم.



١٦ — اكتشف لياقتك:

وذلك أن يعلم طالب العلم أن المواهبَ أرزاقٌ من الله، وأن هذه المواهب لا تجتمع كلها في شخص، فإن الله قسم بين الناس مواهبهم كما قسم بينهم أرزاقهم وأخلاقهم، وهذا من حكمة الله في عمارة الكون وتسيير الحياة.

ولذا فلم يكن كلُّ الصحابة في حفظ أبي هريرة، ولا بفقهِ معاذ، ولا بقراءة أبي بن كعب، وإنما توزعت هذه المواهب بينهم.

وأمَّ خالد بن الوليد الجيش في الحيرة فقرأ لهم من سور شتى، ثم التفت فقال: «شغلنا الجهادُ عن تعلُّم القرآن»^(١).

ولذا فليس كل من أحب العلم وسعى إليه أدركه، وعلى من أراد طلبه أن يختبر نفسه واستعداده ولياقته في أول الطريق، ليتأكد من لياقته لما أراد.

وقد يكون هناك أناس لديهم رغبة في العلم وحبُّ له، وليس لديهم أدواته، فيجهدون أنفسهم من غير أن يظفروا بطائل.

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٨٨٢١).

وقد كان الفراء يقول: «لا أرحم أحداً كرحمتي لرَجُلَيْن: رجل يطلب العلم ولا فهِمَ له، ورجل يفهم ولا يطلبه، وإني لأعجب ممَّن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم»^(١).

وكان ابن عبد الحكم يدرّس في مصر، فكان الطلبة يستأذنونَه بعد رمضان في الذهاب إلى الحج، فيأذن لبعضهم ولا يأذن لآخرين، فسأله الذين لم يأذن لهم عن ذلك، فقال لهم: هؤلاء الذين أذنتُ لهم هم الذين لا يستفيدون من الدرس، فإذا ذهبوا قَضَوْا فرضهم ودَعَوْا لغيرهم، أما النجباء من الطلبة فبقاؤهم وتحصيلهم العلم أولى، ثم يؤدون حجبهم بعد ذلك.

فمن كان لديه اللياقة الذهنية والقدرة على التحصيل، فخير ما تُصرف إليه هذه الموهبة هو تحصيل العلم الشرعي والعمل به وتعليمه. ومن لم يكن لديه هذه الموهبة، فقد ادَّخِر له مواهب أخرى عليه أن يكتشفها ويفعلها. لقد ترك د. عبدالرحمن السميّط العمل طبيباً بعد تخرجه، ولم يكن فاشلاً فيه، ولكن فُتِحَ له مجالٌ أرحب وهو الدعوة، فتوجّه لها، وكان لاثقا لها، فحقق فيها ما لم يحققه غيره.

وكذلك من لا يأنس من نفسه قدرةً على التحصيل العلمي قد يكون مبدعاً في المجال الإداري أو التجاري أو الدعوي أو الإغاثي ونحو ذلك.

ولذا فإن تأكد الطالب من وجود القدر المتوسط من الرغبة والقدرة مهمٌ في تحقيق الطموح.

وما لم يكن مع طالب العلم هذه اللياقات الذهنية، فربما أجهَد نفسه وأضاع عمره، ثم اكتشف بعد وقت طويل أنه وضع السلم على الحائط الخاطئ، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٤٢٩).

١٧ - التعامل مع وسائل التقنية:

كتحديث برامج الحاسوب وتطبيقات وسائل التواصل، وتقنيات الذكاء الصناعي، وتعلّمها هو للاستفادة منها في اختصار الوقت والجهد، وليس للانشغال بها، وما فيها من مُشَتّتات.

فإنّ التطوّر في هذه الوسائل سريع ومتجدّد، والاستفادة منها تختصر كثيراً من الجهود والأوقات.

ويروى عن محمد رشيد رضا أنّه قال لما صدر كتاب مفتاح كنوز السنة: لو كان هذا الكتاب عندي لاختصر لي نصف عمري. يعني في البحث عن الأحاديث.

ثم صدر بعده المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، فكان نقلةً هائلةً في بحث المُخرّجين، ثم خرجت برامج البحث عبر الكمبيوتر، حتى قيل حينها: «إن الكمبيوتر حافظ العصر»، ثم خرجت تطبيقات الأجهزة الجوّالة التي اختصرت هذا كلّهُ، فالبحث يتمّ في ثوانٍ من خلال برامج التطبيقات العلمية.

والذكاء الصناعي يعدّ بقفزات مدهشة، وعلى طالب العلم أن يكون واعياً لهذا التطوّر، يتابعه ويحسن الاستفادة منه.

علماً أنّ الذي يستفيد منها هو مَنْ عنده ذخيرة معرفية جمعتها القراءة المكثفة، فإنما يبحث عما اختمر في ذهنه من مذخور قراءته وتحصيله، فهذه وسائل مساعدة تُعين ولا تُغني.

١٨ – اكتساب المهارات:

والتي صارت لها طرائق في اكتسابها وممارستها، ومنها مهارات الإلقاء والخطابة، ومهارات الحوار، ومهارة الذكاء العاطفي، ومهارة التخطيط، ومهارة القيادة، ومهارة التعامل مع الآخرين، وفيها دورات تدريبية، ويفيد منها كتاب ديل كارنيجي «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس» وكتاب لس جيلين «كيف تتمتع بالثقة في التعامل مع الناس»، ومهارة الحوار وخاصة عند الاختلاف في الرَّأي، لأن العالم والداعية كثيرا ما يتعرض للاختلاف في الرَّأي مع الآخرين.

وغير ذلك من المهارات مما يناسب احتياجات طالب العلم، وهذه المهارات تُكتسب عن طريق الدورات التدريبية أو عن طريق القراءة والاستفادة من خبرة الممارسين. وهذه المهارات مهمّة في إيصال رسالة الداعية والعالم، وتفعيل أثره، وإقناع الناس بدعوته.

ومما سمعت به عن كليات اللاهوت المسيحي والتي تخرّج المنصّرين أن أكثر موادّها هي هذه المهارات، وطرق التأثير والإقناع، وأما المضامين العلمية فالديانة المسيحية محدودة التعاليم، ولذا فتركيزهم على طرائق التأثير ووسائل الاحتواء والإقناع.

١٩ - تعلّم لغةً أجنبية:

أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلّم كتابة لغة اليهود، فتعلّمها في أسبوعين، لأن لغتهم معروفة في المدينة، فهم يعيشون معهم، ولكنه تعلم الكتابة في هذه المدة اليسيرة، وصار يقرأها ويكتبها، وذلك للمكاتبة التي كانت بين النبي ﷺ ويهود، فكانت معرفته باللغة تعزيزاً للتواصل واحترافاً من المكيدة.

ويظهر من حال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كان يُحسن مع العريّة لغاتٍ أخرى كالعبرية والتركية، وكذا ابن حزم وغيرهم.

علماً أن العلماء قديماً لم يكونوا بحاجة إلى تعلّم اللغات لضعف التواصل بين الشعوب، ولأنّ العرب كانوا في حال استغناء علمي، ولذا كان الأوروبيون هم الذين يتعلّمون العريّة، ليتعلّموا علوم العرب في الأندلس.

أمّا اليوم فقد صارت البشريّة في حال تواصلٍ يبلغ حدّ الاندماج، وصارت المعلومات سيّالة تصل إلى كلّ بلدٍ فور صدورها في بلدها.

ولذا فإنّ معرفة اللغة، وخاصة الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، مصدرٌ إثراءٍ معرفيٍّ، وتواصلٍ أوسع مع العالم.

إنَّ إجادَةَ لغةٍ أخرى هي إطلالة على أفقٍ معرفيٍّ واسعٍ يتيح لك معرفة الجديد وهو جديد، والتفاعل مع الموجات الثقافية المتسارعة، كما أنَّها وسيلة تواصلٍ مع مساحة واسعة من إخوانك المسلمين، وإفادتهم ونفعهم.

قال الشيخ ابن عثيمين: أتمنى أن أعرف اللغة الإنجليزية لأنني وجدت فيها مصلحة كبيرة، يأتي رجل ليسلم بين يديك، فلا تستطيع أن تتفاهم معه، فلا ينكر الآن مدى احتياج الناس إلى تعلم اللغة الإنجليزية، وأنها قد تكون وسيلة بالغة للدعوة إلى الله عَزَّجَل^(١).

وكان شيخنا أبو عبد الرحمن ابن عقيل يتحسر على فوات تعلمه لغة أجنبية، وكان يقول لو كنت أجيد لغة أجنبية لقلت لهؤلاء قفوا مكانكم، يشير إلى الأدباء الذين كانوا يساجلون في الصحافة.



(١) لقاء الباب المفتوح رقم (٦١).





٢٠ - منطقة التأثير ومنطقة الاهتمام:



من العبارات الملهمة: ركّز على منطقة التأثير، وليس على منطقة الاهتمام، فمساحة الاهتمام واسعة، هناك اهتمامات سياسية ورياضية واجتماعية كثيرة تستهلك متابعتها الإنسان، مع أنها خارج نطاق تأثيره، ولن يستطيع أن يغيّر شيئاً في مجراها. فالانهماك بها والتفاعل النفسي معها، بعيداً عن التأثير إنما هو استنزاف للوقت، واستهلاك للطاقة النفسية من غير جدوى حقيقية.

ومن أمثلة ذلك: انشغال طالب العلم في وقت الطلب بمتابعة الشأن السياسي والتعليق عليه وتوقعاته ونحو ذلك، مع أن مساحة التأثير الحقيقية هي في بناء ذاته، لا في متابعة عمل غيره التي لا تجدي، ولا يُجدي هو فيها. ومن عبارات الشيخ الطريفي: «الأخبار محرقة الأعمار».

وللشيخ إبراهيم السكران كتابٌ تربوي ممتع رائع بعنوان «الماجريات» في هذا الاتجاه أيضاً.

ولم أجد في الاستغراق في الحديث السياسي والرياضي ونحوه فائدة، إلا إشغال من لو لم يتحدث فيها لتحدث في الغيبة والنميمة، فمن كان بين هذين الخيارين لا محالة،



فليَنغمس في أفلهما شراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأحسنَ الله عزاءه في ثروة العمر ونعمة الفراغ.

إن متابعة هذه الأخبار والاستغراق فيها والتفاعل معها يلاقي شهوةً نفسيةً في التشاغل عن الواجبات المهمة، وتسويغ ذلك بهذه المتابعة، وربما وجد فيها البعض إحساساً بالأهمية والتميز إذا خاض في هذه الأمور، وأنه بمتابعة الأخبار والتحليلات صار قريباً من فهم ما يجري.

وكثيراً ما يُزهد ذلك في الأعمال التي هي في مجال استطاعته ومساحة تأثيره، وهذا من كيد الشيطان؛ حيث يمدّ بصر الإنسان إلى ما لا يستطيع، ويزهده فيما يستطيع، فيتفارب عمره، وهو لم يحقق أمله، ولم يُنجز عمله، فالذي يحاوله لا يستطيعه، والذي يستطيعه قد زهد فيه، فلا يبقى في يده إلا قبض الريح، وهشيم العمر.

ولقد عرفتُ في مسيرة الحياة من كانوا في غاية الحماس والتفاعل مع الشأن السياسي، وكأنهم بهذه المتابعة يديرون الفلك، وسارت بنا وبهم الأيام، ورأيانهم في خريف العمر، وإذا ذاك الحماس قد خمد، وما كانوا يعرفونه ويتابعونه صار تاريخاً، وما كانوا يتوقعونه لم يقع، وما وقع لم يكن متوقعاً، وأنهم والجاهل بالشأن السياسي والغافل عنه سواء، وصار حديثهم عن وظائف الأولاد، وحالة الطقس، وزواج الميسار، وعلاج الضغط والسكر، ويا الله حسن الخاتمة.

ولذا فاجعل همّك التركيز على مساحة التأثير والممكن، فإنها بالتركيز عليها تتسع، ويتراكم إنجازها.

واجعل شعارك كلمة خطيب الأنبياء نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. وكلما تحركت تحت سقف الاستطاعة أنجزت وأدركت.



٢١ - تجنّب الهيشات العلمية:



والسالك في طريق الطلب قد ينحرف إلى بنيات الطريق، وقد تعلق به بعض الأشواك الجارحة، وليس كلّ الجراحات تندمل.

ولذا فلا بدّ أن يكون على يقظةٍ من هذه المزالق، ومن أكثر ما عاصرتَه وبالأخصّ ضرراً: الفرع مع الهيشات، وكما حذّر صلى الله عليه وآله وسلم من هيشات الأسواق، وهي ما يحدث فيها من صخبٍ ومنازعاتٍ وخصومات، فكَذلك طالب العلم يتجافى عن الهيشات العلمية، وهي المسائل التي تخرج عن السكينة إلى الخصومة والاصطفاف مع أو ضدّ.

وهذه الهيشات يُغرم بها الطلبة، وقد ينجرّفون إليها وكأنّهم يشجّعون فريقاً رياضياً، وقد يتضخّم الخلاف فيها ويعظّم، وتخالطه مُراداتُ نفوسٍ وأهواؤها، فتخرج المسألة عن مساقها وحجمها الحقيقي.

وهذه الهيشات تخدم مع مرور الوقت وتصير رماداً، وترجع إلى مكانها في مساق البحث العلميّ الهادئ، وقد أحرقت معها أعماراً وجهوداً ومودّات.



والدخول في هذه المعارك الجانبية طريق مضمون إلى الضياع، ورغم شعبيتها وسرعة انتشارها فإنها لا تلد إلا ضجيجاً، ولا تنتج إلا استنزافاً للوقت والوعي والطاقات، وهي ليست دليل غيرة ولا علامة وعي، بل هي في كثير من الأحيان ثمرة صغر الهمة^(١).

«والزمان أقصر من أن يضيع في الأغلوطات والتغليطات، وفي تحقيق الحق ما يستغرق الوقت»^(٢) وتلك المعارك اللفظية التي يلمع فيه اللسان، ويبهت فيها العقل، وأخطر ما يفعله المرء بعمره أن يسخره للهوامش، وأن يجعل فكره مطيةً إلى الجدل لا إلى الحق^(٣).

وقد مرّت بنا مسائل كثيرةٌ كُثِرَ فيها الأخذُ والردُّ، وخرجتُ عن سياقها العلميّ إلى ساحةِ الصخب والهيشات، ومنها مسألةُ «العذر بالجهل» و«التوقّف والتبَيّن»، وهل «الفرقة الناجية» هي «الطائفة المنصورة»؟ و«حكم التمثيل» و«الأناشيد»، و«هل وسائل الدعوة توقيفية؟» ونحو ذلك، وأكثرُ هذه المسائل انطفأَ لهبُها وعادت إلى سياقها الطبيعي.

وقد حصلتُ في نجدٍ قديماً مسألةٌ كُثِرَ فيها اللغَطُ والأخذُ والعطاء، حين صرّح الشيخ عبد الرحمن السعدي برأيه في «يأجوج ومأجوج» وكتب فتياه فيها، فثارت ثائرةٌ وصخبٌ وصل إلى الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، فاستدعى الشيخَ إلى الرياض وعالج المسألة بحكمته المعروفة، وطلب من الشيخ الكفَّ عن طرح هذه المسألة، فاستجاب الشيخُ لذلك عن قناعةٍ ورضا.

(١) من مقال د. محمد بشير حدّاد.

(٢) «الجدل» للطوفي (١٤).

(٣) «ميقات الروح» لعلي بن ناصر آل حوّاء (٥٣).



ومنذ سنواتٍ طُبعت فتوى الشيخ السعدي، فرأيتها في إحدى المكتبات كحمامةٍ
وادعة في عَشَّها، لم تَلَفْتُ نظراً ولم تُحَدِّث أثراً، ولم يتجدد الحديث عنها ولا البحث
فيها، لأن المسألة حضرت بلا تداعياتها، فصارت كغيرها من مسائل العلم.
ولذلك فعلى طالب العلم ألا تستثيره هذه الهيشات، ولا تجذبه ضوضاؤها
وصخبها، ويبقى في مسيرته مُقبلاً على شأنه^(١).



(١) تُنظر مقالة «رعونات نفسية» د. سليمان العبودي.



٢٢ - تجنب فضول العلم:

كان شيخنا العلامة الأصولي عبدالله بن غديان رَحِمَهُ اللهُ يدرس طلابه كتب الأصول، وخاصة «الكوكب المنير شرح مختصر التحرير» ومما يلاحظه طلابه تجاوزه لبعض المباحث، ويقول: هذه لا ثمرة لها.

ولا أزال أتذكر شيخنا الشيخ صالح الرشود رَحِمَهُ اللهُ، وكان يدرسنا شرح العقيدة الطحاوية، فلما وصلنا إلى مبحث الخلاف في تفضيل صالح البشر على الملائكة تجاوزه وقال: هذا مبحث لا طائل منه.

وصدق رَحِمَهُ اللهُ، فلم نختر أن نكون بشراً، ولم يختاروا أن يكونوا ملائكة. ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

وهكذا كان شأن العلماء الربانيين المربين في توجيه من يعلمونهم، فقد سأل رجل الإمام مالكا عن زبور داود، فقال له: ما أجهلك وما أفرغك! أما لنا في نافع عن ابن عمر عن نبينا ﷺ ما يشغلنا بصحيحه عما بيننا وبين داود؟! ^(١).

(١) «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي (٦٣).



وقال الإمام أحمد: الاشتغال بالأخبار القديمة تقطع عن العلم الذي فرض علينا طلبه^(١).

وربما أولع بعض طلبة العلم في سني التحصيل بالدخول في مباحث لا فائدة فيها، أو غيرها أولى وأهم منها، وتُصرف فيها الأوقات والخلافات، وإذا تساءلت عن الثمرة والنتيجة المتوخاة لم تجد ثمَّ حاصلًا ولا ثمرة.

ومن أمثلة ذلك نزاعٌ ثار منذ أمد: هل دم النبي ﷺ طاهر أو نجس؟ وهل بوله طاهر أو نجس؟ والذي أراه أن طرح هذه المسألة لا يليق بمقام النبي ﷺ، ولا بما فُرض علينا من توقيره وتعزيزه، ولا أدري يوم طُرحت هذه المسألة وانشغل البعض بها، وكأنَّ أمامنا دمًا نبويًّا ونحن حائرون أنتبرك به أم لا؟ هل هذه مكانة النبي ﷺ في نفوسنا وهذا قدره؟.

ومن ذلك إثارة تساؤلات لا يترتب عليها جدوى، مثل: هل كان في الأرض أحد قبل بني آدم؟ وهل غطى طوفانُ نوح جميع الأرض؟ وهل حمل نوح جميع الحيوانات والحشرات في سفينته؟ ونحو ذلك مما هو من فضول العلم التي لا ثمرة منها.

وقد جرت مسألة من هذا النوع بين عالمين من علماء الشام، كانا على سنن واحد، وكانا متواذنين متصافيين، ثم اختلفا في مسألة مستنكرة وهي: هل يمكن أن تقع زوجة نبي في الفاحشة؟ واختلفا وتعصب كلُّ لرائيه، ودافع عنه حتى وقعت الوحشة بينهما والردود العلنية. وقد ماتا، عفا الله عنهما، وبقي ما سوّدا به الصفحات من خلافهما.

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٢٢).



ووالله إنَّها مسألة بشعة أن تُطرح أو تُثار، وليست من التوقير لأنبياء الله الكرام، وجدير أن يُعزَّر من خاض فيها ويُقال له: «احفظ عرض محارمك، ودع حرمت الرسل لمن أرسلهم».

ومثل ذلك ما يثار حول مصير أبوي النبي ﷺ، وإعلان ذلك وإشهاره، ويا لله! لو كنا بحضرة النبي ﷺ فهل يليق بنا أن نتحدث بذلك، أو نذكره عنده؟! فلماذا لا نوقره في غيبته، كما نوقره في حضرته؟! وما يضر أحدنا لو مضى عمره ولم يتكلم في هذا الأمر، ولا تخوِّض فيه.

ومثل ذلك الدخول في أسئلة الشرِّ ووقوعه في هذه الحياة، والحكمة من ألم الأطفال والحيوانات، وتصور معرفة حكمة الله، وهو غيب مستور عنَّا، ويكفيينا الإيمان اليقيني بأن الله أحكم الحاكمين، وأنه لا يقدر شيئاً لعباً ولا عبثاً، بل له الحكمة البالغة والحجة البالغة.

ورحم الله شيخنا الشيخ ابن باز، فقد سألته وأنا في المرحلة المتوسطة عن بعض ما جرى بين الصحابة، فقال: أنا لا أحب البحث فيها، لأنها تحزن القلب، ولم يجبني بشيء، وعلمت أن إعراضه عنها انشغال بالأهم، وترك للحديث في أمر قد مضى وانقضى وطويت صحفه، ولا يترتب على الرأي فيه حكم ولا عمل.

وكان أئمة العلم والورع إذا سُئلوا عن مسألة قالوا: «هل وقعت؟» فإن لم تقع قالوا: «دعوها حتى تقع، فإن وقعت اجتهدنا لها». وهذا توجيه للاشتغال بالأجدى والأهم، وبالعَملي لا الافتراضي.



٢٣ - شهوة تصنيف الناس:

ومن مزالق الطريق التي تستهوي بعض الناشئة: الوَلَعُ بتصنيف الناس وامتحان آرائهم ومعتقداتهم، والاصطفافُ مع هذا ضد ذاك، والنظرُ إلى الناس من ثقب الاختلاف الضيق، وقد كنا في عافيةٍ منها دهرًا مديدًا، ثم فَشَتْ وانتشرت، ودخلها أناسٌ عن قصدٍ حسنٍ أحيانًا، أو عن هوىٍ وحبٍّ للمغالبة، وانتشر الامتحانُ بـ«ما تقول في مَنْ يقول؟» و«ما قولكم في فلان؟»، وصار التبديعُ قرينَ التكفير.

ولقد سمعت في اليوتيوب ناشئًا يذكر رأيه في الشيخ عبد الرحمن البراك، مع أن عُمر الشيخ في العلم أكبر من عمر هذا الناشئ منذ ولدته أمه، ولكنها سكرة الغرور، وشهوة القول، حتى يظن أنه إذا تكلم في الكبار صار أكبر منهم.

وتصدى لهذه الفتنة شيخنا الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع النافع «تصنيف الناس بين الظن واليقين».

وسببُ الانجذاب إلى هذه الخصومات العلمية: شهوةُ الكلام في الأشخاص، فإن شهوةَ الكلام في الناس لها قَرَامَةٌ كقرامة اللحم، ولذا ذكر الله الغيبة بهذا المثل فقال:

﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، فهو لحمٌ، لكنه لحمٌ أخيك الميت، وهو ميتٌ لغيابه، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

وكنْتُ أذاكر بعضَ أصحابي في غلواء هذه الفتن، وأقول لهم: لو أن عالماً أصدر كتاباً في الردِّ على عالم آخر لتخاطفته الأيدي فضولاً واستشرفاً، ولو أصدر كتاباً علمياً متيناً كامل الدسم ل بقي جاثماً على الرفوف، لا تمتدَّ إليه إلا أيدي الجادِّين والحاذقين؛ لأنه لا يلاقي شهوة الفضول والتلذذ بأكل لحوم الأحياء والأموات.

وأشدُّ هذه الخصومات ضراوةً وضرراً ما رُوج باسم الدين والسنة، وألبس لبوسَ «الجرح والتعديل».

ولقد رأيتُ من انزلقوا في هذا السبيل، ومضت أعمارُهم وهم مشغولون بالقليل والقال والجدل والخصومات، فلمَّا ماتوا لم يورثوا إلا رماداً تذروه الرياح، وخفت ذلك الضجيج، وذهبت تلك اللجاجات، وما كان لله بقي.

ولذا فعلى طالب العلم التجافي عن هذه التصنيفات والخصومات، والنظر إلى كلِّ أحد من مساحة المتفق عليه الواسعة، وليس من ثقب المختلف فيه الضيق، وأن يحبَّ الخير لكلِّ أحد، وقد كان الإمام أحمد رحمه الله يدعو لكل طالب حقٍّ أصابه أو أخطأه، فيقول: «اللهم مَنْ كان من هذه الأمة على غير الحق، وهو يظن أنه على الحق، فَرُدَّه إلى الحق ليكون من أهل الحق»^(١).

وذكروا له شيخاً فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخ صالح. فقالوا له: إنه يطعن عليك. قال: فأَي شيءٍ حيلتي؟! شيخ صالح قد بُلي بي^(٢).

(١) «العقيدة رواية أبي بكر الخلال» (١٢٨).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥٥ / ٥٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١١ / ٣١٧).

٢٤ - الرحمة والرفق:

قرن الله الرحمة مع العلم في آيات كثيرة، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

ولما ذكر الله عز وجل لقاء موسى بالخضر قال عز وجل: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. وهنا نلاحظ اجتماع الرحمة مع العلم، وإذا نُزعت الرحمة من العلم حل محلها الفظاظة والنفرة، ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالرحمة وعاء العلم تعلّمًا وتعليمًا ودعوة، ولذا كانت الرحمة صفة أعظم معلم للناس الخير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧] [الأنبياء: ١٠٧].

ومن ذلك الرحمة في التعليم، بالحلم على المتعلمين، والرفق بهم، والصبر عليهم. والحذر الحذر من النظر إلى جاهل بازدراء؛ فإنّ المسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يحقره، أو أن تتسرّب إلى النفس مشاعر العُجب والغرور فتمحق العلم، وتذهب البركة. فَرَحْمَةُ الْجَاهِلِ بِتَعْلِيمِهِ، وَرَحْمَةُ الْعَاصِي بِدَعْوَتِهِ وَالدَّعَاءِ لَهُ.

ومن مظاهر الرحمة الرفق والتلطّف في التعلّم، فقد كان ابن عباس يذهب إلى الأنصار في بيوتهم، فإذا وصل البيت قيل له: «إنه نائم»، فيتوسد رداءه ينتظره حتى يستيقظ، فإذا خرج ورآه قال: «يا ابن عباس، ألا أذنتني حتى أخرج إليك؟ فيقول ابن عباس: «بل أنا أحق أن أنتظرك». وكان يقول: «وكنْتُ أفعل ذلك حتى أستطيب نفسه».

وعندما أراد سؤال عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ، ترقّب ساعة صفو يفرغ فيها أمير المؤمنين وتطيب نفسه، فانتظر حتى ذهب عمر للوضوء، فحمل إداوة الماء وجعل يفرغ الماء عليه، فلما آنس طيّب نفسه سأله، فاستروح عمر بسؤاله، وأجابه جواباً مفصلاً مطولاً، وعاه ابن عباس، فحفظه ورواه. وكانت هذه براعة من ابن عباس في اختيار الوقت المناسب، وحسن التلطّف في السؤال.

ومتى حُرِم الطالب الرفق فاته كثير من علم الشيخ، وقد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: «لو رفقتُ بابن عباس لاستخرجتُ منه علماً كثيراً»، وذلك لأنه كان يعارضه في بعض ما يقول.

وكما يكون رفيقاً في تعلّمه يكون رفيقاً في تعليمه، ويعرض العلم بما يشوّق إليه ويرغب فيه، ويستشعر فضل الله أن آتاه علماً وجعله معلّماً.

ومن ذلك التلطّف مع العامة عند الإجابة على أسئلتهم، وعدم التعنّت بما ينفرهم أو يجرح مشاعرهم.

وإذا وصف الله المؤمنين بأنهم «رُحَماء بينهم» فإنّ أولى الناس بإظهار هذه الرحمة وبذلها هم أهل العلم: علماء وطلاب. وإنما يرحم الله من عباده الرُحَماء.

٢٥ - تذوق لذة العلم:

على طالب العلم تذوق لذة الدراسة والتحصيل والانغماس فيها باستمتاع، والنظر إلى كمالات الشيوخ وإيجابيات الزملاء، والحفاوة بهم، وعدم النظر إلى سلبيات الشيوخ أو تنافس الأقران أو رتابة الدرس بتضجر، فكل ذلك ممّا يعيق الاستفادة ويسرّع بالضجر ثم الانقطاع.

أمّا النظر إلى الجوانب الحسنة والتفاعل مع الإيجابيات فهو ما يجعل رحلة التعلم ممتعة، وذكرياتها بعد ذلك مشوّقة وجميلة^(١).

وعليه الاستمتاع بالمرحلة الجامعية، فهي من أجمل مراحل العمر وأزهاها، والطالب فيها بكامل قواه الجسدية والعقلية، مع خفة الظهر من كثير من المسؤوليات، واحذر أن تقتل جمال الاستمتاع بها بالتذمر والتركيز على بعض المنغصات، والوقوف أمام العوائق بانتظار أنك سترتاح منها بالتخرج والتوظيف، فتعبّرها وما ذقت أ لذّما فيها.

وليحذر الطالب من ذكاء الكسالى من الطلبة، الذين يبرّرون انقطاعهم وتباطؤهم بأنّ الدراسة النظامية منزوعة البركة، وأنها لن تُخرّج عالماً، ونحو ذلك من مخدّرات الهمم، ومسوّغات البلادة والكسل.

(١) يُنظر: «المتلذذون بالعلم» للشيخ راشد البдах.

وربما أطنبوا في مدح طرائق التعليم عند السلف وأنها هي التي تُخرج العالم الحقيقي، وهم بذلك يتمدّحون بنمطٍ لم يُدرِكوه ولم يعرفوه، وهم لا يعلمون أن الدراسة عند السابقين كانت أكثر صرامةً وجِدًّا، والذين برزوا منهم أفرادٌ نوابغ أصحابُ جِدٍّ ومثابرة، ولكن انقطع كثيرٌ بدؤوا معهم ثم توقفوا، فلم نعرفهم ولم نسمع بهم.

ولا يمكن أن ندرس في هذا العصر كما درس السلف بذات الهيئة والنظام، وأن يتخرج الطلاب من حلقاتٍ تُدار عند أعمدة المساجد، كما كان السلف يتعلمون ويعلمون.

فقد تغيّر نمط الحياة كلّهُ، فلا يعقل أن تحمل جهاز الاتصال المحمول، وتجلس إلى الكمبيوتر، وتتابع وسائل التواصل، وتحضر من بيتك محاضرةً في المغرب وأنت في مصر، بينما يبقى نمط التعليم جامداً راكداً لا يتغير!.

ولذا فإن التعليم في المَحاضِر^(١) أو الحِلَق في المساجد مجالسُ ذكرٍ مباركة، ينبغي أن تكون رافداً في التعلّم ومدداً له، لكنها لن تُكوّن بحالها هذه عالماً، ولن تؤسّس علماً، وهي بلا نظام ولا التزام.

ولو نظرت على سبيل المثال إلى برنامج النووي في دراسته في مدارس الشام لوجدته من أكثر البرامج صرامةً وجديةً وحزمًا، فقد كان له في اليوم ثلاثة عشر درسًا، فمن هو الطالب الذي يدرس اليوم ثلاث عشرة مادة في اليوم؟!.

وقد سألت شيخنا عبد الله بن بيّه عن محاضِر العلم في شنقيط، التي خرّجت علماء شنقيط الفحول، فقال: كثيراً ما نُسأل: ما العشبة التي يستعملها الشناقطة للحفظ؟ والحق أنه ليست هناك عشبة ولا وصفة خاصة، ولكن هناك الانقطاع الكامل للعلم والدأب في تحصيله.

(١) هي المدارس التعليمية العتيقة، وتكون غالباً في بوادي المغرب الأقصى وموريتانيا.



كان الطلبة يدرسون في محاضر متفرقة في قرى البادية، فيعيش الطلبة في عزلة عن العالم لا يدرون ما يحدث وراء الكتيب.

وكل ما حولهم سكون مطبق، لا صوت حولهم إلا صوت الصمت، ولا حركة إلا ورق الكتب، ولا نعمة إلا دويّ القراءة.

ولا مذياع، ولا تلفاز، ولا مجلة، ولا صحيفة، ولا هاتف محمول ولا موضوع، ولا شاشة حاسوب، وإنما ينتهي الطالب من الدرس ليتجهّز للدرس بعده، وينتهي من القراءة على الشيخ ليقرأ على الشيخ الذي بعده.

فصار تلقّي العلم غذاءً، واعتياده إدماناً، وبذلك يترع الطالب حفظاً وفهماً وعلماً. هذا النمط الذي ذكره الشيخ عن التعلّم في المحاضر في زمنه ليس هو الموجود الآن ولا قريباً منه، وليس هو المطلوب، ولا المناسب لزماننا، فقد زاحمت الطالب في حياته مؤثراّت وشواغلٌ ما كانت موجودة من قبل، وتغيّر نمط الحياة، ولكل حالٍ ما يلائمها، ويناسب ظروفها.



٢٦ - التنمية البشرية:

انتشرت كتب التنمية البشرية حيناً من الزمن في حياتنا، ويصاحبها دورات عن النجاح والتفوق، وكان فيها نوع من تكييف وسائل النجاح وتحقيق الأهداف بخطوات محددة، ومسارات واضحة، ولكنها كانت مصحوبة بتسويق تجاري، وككل عمل تجاري يختلط فيه الجيد بالرديء، والأصيل بالمغشوش.

ولقد صحبت كثيراً من هذه الكتب، وحضرت كثيراً من هذه الدورات، ولمست جانب الإفادة فيها، كما اتضح لي كذلك الجانب التجاري والترويجي في كثير منها. أمّا الكتب فإنّ الفكرة التي يمكن أن تقدّم في فئان يقدمونها لك في برمّل، وجزء منها حقيقة، وكثير منها نفخ وترويج، والدورة التي يمكن أن تقدّم في ساعة تُمطّ في أربعة أيام.

كما يؤخذ على بعضها وصف النجاح وفق عقائدهم وثقافتهم ونظرتهم للحياة، ولذا نجد تصوير النجاح أحياناً على أنه التفوق في هواية فنية أو رياضية، أو كسب تجاري، ونحو ذلك من المطامح الأولية بالنسبة لهم.



كما أن فيها تسويقاً للنجاح على أنه مضمار يسلكه كل أحد، ويصل إلى نهايته كل من سار فيه.

والحق أن وصفات النجاح إنما هي لمن يملك أدواتها، وليس كل من طبق الطريقة وصل إلى تلك النتيجة، ولولا ذلك لازدحم الناس في القمة، وتعطلت مصالحهم الأساسية، وقد قسم الله بين الناس مواهبهم وقدراتهم حتى يتكامل أداؤهم وعطاؤهم، ﴿لَخَنَّ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

والبراعة في معرفة الإنسان قدراته، وتحديد أهدافه، وتفوقه فيما يحسنه. ثم تطور الأمر إلى تسويق الوهم، وأن النجاح لا يحتاج إلا أن تثق بقدراتك، وتطلق العملاق الذي في داخلك، وسيحقق لك كل ما تتمنى بعد ذلك.

وتطور بيع الوهم إلى الشعوذة بعلوم الطاقة والذبذبات وطقوس الزن وغيرها. وأما المدربون فمنهم القديرون الصادقون والمقتنعون المُقنعون بما يقولون، وتسلسل معهم أولئك الذين يحملون شهادات الدكتوراة المزورة ويرأسون شركات وهمية، والسؤال الفاضح لهم: قد عرفنا النجاح الذي وصفت فما هو النجاح الذي حققت؟ وقد راجت هذه الكتب وتلك الدورات فترة معينة، ثم خفت وهجها.

ولكن الحق أن منها بعض المنتجات الجيدة التي تشبه كتب الحكم والوصايا عند السلف، ولذا فإن هناك ما يُنصح به منها، ومن ذلك: «دع القلق وابدأ الحياة» لدليل كارنيجي، وهو كتاب قديم أصيل سبق هذه الموجة، وتداوله علماء بإعادة صياغته كالشيخ السعدي في «الوسائل المفيدة»، والغزالي في «جدد حياتك»، ومنها «العواد السبع» لستيفن كوفي، وقد اختصره بلغة رشيقة ابنه شين كوفي في كتاب «العواد السبع للمراهقين»،



وأعاد صياغته وتأصيله شرعياً أخى د. أيمن أسعد عبده في كتاب «التغير من الداخل»، ومنها بعض كتب جون ماكسويل، كما قام بعض المتخصصين بالانتقاء من جيدها وإعادة صياغتها بطريقة متزنة وعملية، ومنهم الدكتور أحمد البراء الأميري في «اللياقات الست»، والدكتور إبراهيم القعيد في «العادات العشر للشخصيات الناجحة»، والدكتور ساجد العبدلي في «كلمة وكلمتين»، وهذه وتلك كتب محفزة، ولكنها كتبٌ لمرحلةٍ تأخذ خلاصتها، ثم تتجاوزها إلى مشروعك وإنجازك.





٢٧ - العلم للعمل:



كان من فضل الله عليّ لقاء أشياخ نقرأ أحوالهم، كما نقرأ علومهم، وكانت أحوالهم تعظ قبل أقوالهم، وكان مما تتواطأ عليه أحوالهم تمثّل العلم سلوكاً، وتألهاً، وورعاً، وخشيةً.

كنت أرى لهج الشيخ ابن باز بالذكر، وتبتل الشيخ الداود في الصلاة، وبذل ابن جبرين نفسه في نفع الناس، فكان العلم عندهم حالاً يتمثلونها، وليس علوماً يروونها. وكانت وصاتهم التي يتواطؤون عليها لنا نحن طلابهم التأكيد على الإخلاص، وتعاهد نية الاحتساب في طلب العلم، ثم العمل بما نعلم.

وهذا ما تتابعت عليه وصايا العلماء جيلاً إثر جيل، جاء أصحاب الحديث إلى بشر بن الحارث فقال لهم: «ما هذا الذي أرى معكم، قد أظهرتموه؟»، فقالوا: «يا أبا نصر، نطلب العلم لعل الله ينفع به يوماً»، فقال: «هل علمتم أن عليكم فيه زكاةً كما يجب على أحدكم إذا ملك مئتي درهم، فكذلك يجب على أحدكم في الحديث أن يعمل منها بخمسة أحاديث، والا فانظروا أي شيء يكون هذا عليكم غداً»^(١).

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٧/ ٥٤٥).



وقال الإمام أحمد: «ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به ولو مرة، لئلا يكون عليّ حجة»^(١).

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: «ما تعلمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمته ليجتاح الناس إلي، وكذلك كان الناس»^(٢).

وقال الخطيب البغدادي: «إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يُعَدَّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلّ نصيبك منهما.

والقليل من العلم مع القليل من العمل أنجى في العاقبة إذا تفضّل الله بالرحمة، وتمم على عبده النعمة، والعلم يراد للعمل كما العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً، قال بعض الحكماء: لأن أدع الحق جهلاً به أحب إلي من أن أدعه زهداً فيه.

وهل أدرك من أدرك من السلف الماضين الدرجات العلى إلا بإخلاص المعتقد، والعمل الصالح؟!.

وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب المنهوم بهما الجشع عليهما؟!.

وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها؛ كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها، وراعى واجباتها.

(١) «أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني (١٠٩ - ١١٠).

(٢) «المدخل إلى علم السنن» للبيهقي (١/ ٢٣١).



فليُنظر امرؤ لنفسه، وليغتَنم وقته، فإنَّ الشَّاءَ قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقال الحسن البصري: «وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ الْعَمَلُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾» [فاطر: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ» (١) (٢).

إنَّ العلم ليس ترفاً معرفياً، ولا وجهةً اجتماعيةً، ولكنه تزكيةٌ للنفس، وتحفيزٌ للعمل، وَمَنْ جَمَعَ العلم وتكثَّر منه من غير أن يصحب ذلك صالحُ عمل فإنما يستكثر من حجب الله عليه، وقد قيل: علم المنافق في قوله، وعلم المؤمن في عمله.

ومما يعين على حضور أثر العلم في العمل اليقظةُ في تعاهد النفس وتذكيرها وسؤالها عن أثر ازدياد العلم في العمل، وهل انتفعتُ بما تعلمتُه ونفعت به، وهل تغيَّرتُ وغيَّرت، إن هذا التساؤل يعيد التوازن بين العلم والعمل، ويُرشِّد ترتيب الأولويات في الحياة، ومما يعين على ذلك قراءة كتب التزكية والسلوك، كأبواب الرقاق وأحوال الآخرة في كتب السنة، وقسم السلوك من فتاوى ابن تيمية، ومختصر مدارج السالكين لابن القيم، ويعين على ذلك قراءة سير العلماء الربَّانِيِّين الذين عاشوا العلم عملاً وسلوكاً، فإنك إذا قرأت تراجمهم وجدت حضور التعبّد والمراقبة والخشية حاضرة في حياتهم، عرفها فيهم مَنْ عرفهم (٣).

(١) «جامع الترمذي» (٢٤١٧).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (١٥-١٨، ٤٢).

(٣) يُنظر فصل «برنامج اليوم الكامل في حياة العلماء» [من هذا الكتاب].



٢٨ – اقرأ وإن كنت كارهاً:

قال رسول الله ﷺ لرجل من بني النجار: «يَا حَالُ، أَسْلِمَ».

قال: «أجدني كارهاً».

فقال ﷺ: «أَسْلِمَ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهاً»^(١).

إن هذا التوجيه النبوي يبين أن المبادرة الإيجابية في الحياة تحتاج إلى اقتحام، وليس انتظار حالة مزاجية، فقله ﷺ: «أَسْلِمَ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهاً» قاعدةٌ ينبغي أن تواجه بها كل تردد أمام عزائم الأمور، اقرأ وإن كنت كارهاً، واكتب وإن كنت كارهاً، واعمل وإن كنت كارهاً، وسيأتي التقبل والاعتقاد بعد ذلك، وسيخفّ عليك ما كنت تستثقله، وتألف ما كنت تتهيبه.

«هناك سبب يجعلك لا تبدأ، يدفعك إلى التسويف والتأجيل، وهو خاطر مراوغ، فلن يقول لك: لا تبدأ، بل سيقول: ليس الآن، لست مستعداً، انتظر اعتدال حالتك النفسية، انتظر حتى يهبط الإلهام، أو أي شيء آخر إلا أن تبدأ، لكن هذا الاستعداد لن يأتي، وهذه الحالة النفسية لن تعتدل.

(١) يُنظر: «مسند أحمد» (١٢٠٦١)، و«مسند أبي يعلى» (٣٨٧٩).



ولن يتحقق الاستعداد، وتعادل النفسية، ويأتي الإلهام، إلا حين تجلس وتبدأ في العمل، فاجلس وابدأ، وبمجرد أن تضع يدك على العمل يتغير كل شيء، ستظهر الأفكار التي لم تكن موجودة، وتشكل الحلول الغامضة، ليس لأنك تغيرت، ولكن لأنك بدأت.

والإلهام لا يأتي في البداية، بل يأتي وأنت تعمل لا قبله، ولذا إذا كنت جاداً اجلس وابدأ، ودع العمل يقودك.

فالترددون ينتظرون المزاج، والإلهام، واللحظة المناسبة، لكن تلك اللحظة لن تأتي ما دمت تنتظرها.

وأما الجادون فيجلسون ويدؤون، ثم يأتي كل شيء بعد ذلك^(١).

ولا أزال أتذكر بداية عملي في رسالة الدكتوراه، والتي أجلتها كثيراً بادعاء الانشغال بمشغل اكتشفت أنني كنت أهرب إليها كحيل نفسية للتأجيل، ولما أردت أن أبدأ شعرت أنني أدخل صحراء رمال متحركة بلا طرق ولا معالم، وانفتحت أمامي أبواب حيل التسويق حتى أتسلل منها لواءاً، ولكنني ألزمت نفسي، والتزمت بسبب صرامة النظام وتناهي المدة والتمديد، فما هو إلا أن بدأت بدأب حتى بدأت المعالم الغامضة تتضح، والأبواب المغلقة تفتح، ثم تحول العمل من مجاهدة إلى متعة، ومن صبر إلى ظفر، وهكذا كل مشروع تتهيئه، لن يُفتح لك إلا إذا اقتحمته، ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣].



(١) باختصار وانتقاء من كتاب «حرب الفن» لستيفن برسفيلد.



٢٩ - الالتزام والاستمرار:

حين سُئِلَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان عمل النبي ﷺ؟ هل كان يخصّ شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمة، وأَيْكُمْ يطيق ما كان ﷺ يطيق؟^(١). وقالت: كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ ما دِيمَ عليه وإن قلَّ^(٢).

إنّ الالتزام والاستمرارية هي وصفة النجاح، ولا إنتاج ولا إنجاز بلا انضباط، وإنّ القاسم المشترك بين الناجحين في كل مجالات الحياة على تنوّع أعمالهم وتفاوت مواهبهم وقدراتهم هو القدرة على الالتزام والديمومة، فيتتابع العمل ويتراكم الإنجاز. قال الشوكاني في ترجمة شيخه عليّ الشهيد: كنتُ أتعجّب من سرعته في كتابة ما يكتبه من الكتب بخطّه مع شغله بالتدريس، فسألته عن السرّ في ذلك، فقال: إنّهُ لا يترك النسخ يوماً واحداً، وإذا عرض ما يمنع فعل من النسخ ما يستطيع، ولو سطرأ أو سطرين. قال الشوكاني: فلزمتُ قاعدته هذه فرأيتُ منفعةً عظيمةً^(٣).

(١) «صحيح البخاري» (١٩٨٧).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٨٥٦)، و«سنن النسائي» (١٦١٦).

(٣) «البدر الطالع» للشوكاني (١/ ٤٢٠).



وقد عرفنا ذلك في حياة عظماء العلماء الذين أدركناهم، فقد كانت حياة شيخنا عبد العزيز بن باز منظّمة رتيبةً، ثابتةً الوظائف اليومية، حتى تستطيع أن تتوقّع ماذا كان يفعل في هذا اليوم قبل عشر سنين، وماذا سيفعل فيه بعد عشر سنين، من شدّة التزامه وانضباطه.

وعُرف الشيخ ابن عثيمين بصرامته في انضباط العمل والمواظبة على برامجهِ اليومية، فقد جاء مرّةً من سفر طويل عن طريق البرّ قبيل صلاة المغرب، وكان درسه اليومي بعد صلاة المغرب، فسأله طلابه: هل هناك درس اليوم؟ وظنّوا أنّ قدومه من السفر ووعثاء الطريق سيكون سبباً لتأجيل درس ذلك اليوم، فإذا بالشيخ يجيئهم بحزم وعزم: «نعم، بالتأكيد إن شاء الله» وتوجّه إلى الجامع وألقى درسه المعتاد.

بل في يوم وفاة والدته تأكّد طلابه أنّه لن يُلقّي درسه ذلك اليوم، فإذا بالشيخ يحضر ويُلقّي درسه كعادته.

وقد ترك الشيخ دروساً كثيرة طُبعت كتباً بعد وفاته، وكنا نتلقاها جزءاً جزءاً كأن الشيخ لم يمت، فهذا شرح زاد المستقنع في (١٦) مجلداً، وهذا شرح بلوغ المرام في (١٥) مجلداً، وهذا شرح صحيح البخاري في (٩) مجلدات، وشرح صحيح مسلم في (١٠) مجلدات، وشرح كتاب التوحيد، وشرح العقيدة الواسطية، ومجلدات التفسير، وكل هذه حصيلة شروحه لدروسه بعد المغرب، والتي يستعد لها ولا يفرط فيها، ولذا اجتمع من هذا الدوام وهذا الالتزام هذه الثروة العلمية الهائلة، وقد قيل الكثير من القليل كثير.



فهذه الصرامة والانضباط والالتزام هي وصفة النجاح والإنجاز، ونعجب من أنفسنا في تفويت فرص النفع والانتفاع لأدنى عارض، ولن تُنال نتائج المجتهدين بسلوك البطّالين^(١).

وهذا الانضباط هو دأب الناجحين المنجزين في كل مجالات الحياة، فقد وُصف الكاتب الشهير بي. جي. وودهاوس أنّه كان يكتب يومياً عدّة ساعات، ولم يخرم هذا العمل يوماً واحداً^(٢).

وحين استعرضت كتاب «يومٌ من حياة كاتب»^(٣) وجدتُ الصفة المشتركة بينهم هي هذا الثبات في الإنجاز اليومي، بحيث تكرر وصف الكتاب لعدم إخلالهم بوجبة الإنجاز اليومي، ولو في يوم العيد، واتفقوا على أنه لا يوجد عندهم يوم نموذجي للإنجاز، ولكن ينجزون حسب ما يتفق وظروفهم، ولا ينتظرون ساعة الإلهام وهطول الخواطر، ولكن الالتزام وانتظام العمل يستدعي الخواطر ويولّد الإبداع.

كما أنّ القراءة اليومية المنتظمة والملتزمة ولو لمدة ساعة أو نصف ساعة، مع تدوين الأفكار الرئيسة واستثمارها في الحياة، تخلق معرفةً متينة، والاستمرار المنتظم، ولو بالقليل أثبتَ فعاليةً وأثراً من الجهد الكبير غير المنظم^(٤).



(١) «المعارف المتداخلة» د. سليمان العبودي.

(٢) من حساب الدكتور عبد الله الشهري على فيس بوك.

(٣) «يوم في حياة كاتب» ترجمة: علي زين.

(٤) من تغريدة د. عبد الكريم بكار.



٣٠ - حفظ الوقت:

الوقت هو العمر، وما فات منه لا يمكنك تداركه، وأصحاب الإنجازات هم الأشخّة بالأوقات، والذين ينظرون إلى أيامهم وساعاتهم على أنّها خزائن يجب ألاّ تمضي منهم فارغة بلا عمل، بل يملؤونها بما هو الأجدى والأهم، وسرعة النمو إنما هي بقوة العزم في حفظ الوقت، وعدم تسرّب الساعات في الغفلات.

وقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

والوقت منقضي بذاته، منصرم بنفسه، فمن غفل تصرّمت منه أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت، وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟!^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٦٤١٢).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٥/ ١٣٠).

قال الحسن البصري: «أدركتُ أقواماً كان أحدهم أشحَّ على وقته منه على دراهمه ودنانيره»^(١).

وقال د. عماد الدين خليل: «لقد تعاملت بالجد المطلوب مع الزمن، وسعيت إلى توظيف ساعاته ودقائقه بكل ما أقدر عليه في ساحات الفكر والقلم، وكنت أكره الكسل والاسترخاء وقتل الوقت، وأقول لطلابي على مدى خمسين عاماً من التدريس الجامعي: إنكم إذا أردتم أن تكونوا شيئاً فعليكم باحترام الزمن وحسن توظيفه»^(٢).

وقد قيل: إياك أن يفاجئك المستقبل وأنت تنظر إلى الماضي.

«واعلم أن الأيام تُبْسَطُ ساعات، والساعات تُبْسَطُ أنفاساً، وكل نفس خزانة، فاحذر أن يذهب نفسٌ بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم.

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيس: «قِفْ أَكْلَمُكَ»، فقال: «أمسك الشمس»^(٣). أي: أن الشمس تسير والوقت يمضي، ولا يريد أن يفرط في وقته.

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ وهو يتحدث عن تضييع كثير من الناس لأعمارهم، وعدم استيعابهم لذلك: «لقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين والغلاء، فعلمت أن الله لم يُطْلِعْ على شرف العمر إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك»^(٤).

(١) «الزهد والرقائق» لابن المبارك (٤ / ١).

(٢) «مذكرات د. عماد الدين خليل» (١١).

(٣) «لفتة الكبد» لابن الجوزي (٣٩).

(٤) «صيد الخاطر» (٢٤١).



ولقد رأيتُ من جدِّ أصحاب العزائم في حفظ الوقت عجباً، فقد زرت شيخنا عبدالله بن جبرين رحمه الله يوم عيدٍ بعد العصر، فوجدته جالساً يستقبل زوّاره في فناء المنزل، وبين يديه ملازمٌ كتابٍ كان يراجعُه، فلما جلستُ إليه وتحدّثنا قليلاً حديث الترحيب والتهنئة، ناولني الملمزة التي بين يديه، وقضينا بقية الوقت في مراجعة الكتاب. وكانت المعاملات تُقرأ على الشيخ عبد العزيز بن باز وهو في السيارة وفي الطائرة، ولم تكن مسافة الطريق تذهب هدرًا، بل هي جزء من وقت العمل والإنجاز.

وكان الشيخ يوسف القرضاوي يكتب وهو في الطائرة، فبعض كتبه كُتب في الأرض، وبعضها في السماء.

وكان الشيخ ابن عثيمين يقطع الطريق إلى المسجد ماشياً، وهو قريب من كيلومتر، فلا ينشغل في طريقه مع أحد، ولا يسمح لأحد أن يشغله، لأنه يكمل في الطريق قراءة جزء من ورده القرآني، وإذا لم يكمله تباطأ في الدخول حتى يتمه.

وفي طريق الرجوع يجيب على أسئلة الذين يصحبونه، ويشرح بعض الكتب اليسيرة في طريقه هذا، وكان الطلبة يقرؤونها وهم يسرون معه، فإذا كان وقت السير يُحفظ بهذا الحزم والتنظيم فكيف ببقية أوقات اليوم؟!.

واشتهر الشيخ جمال الدين القاسمي بحزمه في حفظ الوقت، وقد توفي رحمه الله في التاسعة والأربعين من عمره، ومع ذلك تجاوزت مؤلفاته مئة كتاب، مع ما كان له من دروس وأعمال أخرى، وكان إذا مرّ بالمقاهي ورأى الجالسين فيها يقول: «ألا بيعني هؤلاء أوقاتهم؟».

ومما يفيد في حفظ الوقت البعدُ عن المشتتات، وبخاصة وسائل التواصل الاجتماعي، فمن احتاج إلى متابعتها فليجعل لها وقتاً محدداً، ويتعامل معها بانتقاء، ولا يسمح لها باستدراجه إلى تصفّح الفضول ولغو القول.



ومن المهم في حفظ الوقت أن لا تتصفح وسائل التواصل في هاتفك إلا بعد أن تقرأ أذكارك ووردك القرآني، وتُنهي مهمّاتك وواجباتك اليومية حسب خطّتك، وتُبقي لهذا التصفح الإلكتروني فضلةً وقتك، وبقيّة جهديّك، فإن هذه البرامج تبدّد الوقت، وتشتّت الذهن، وتُربك التخطيط ما لم يُرشّد استخدامها وتصفحها.

وكذا الابتعاد عن مجالس اللغو واللغو، فهي استنزاف لأعظم ثرواتك، وهو عمرك. وعدم مصاحبة البطّالين الذين ليس لهم هدف ولا طموح سوى إهدار فائض الوقت لديهم.

ومما يفيد في شحذ العزيمة لذلك قراءة الكتب المحفّزة على ذلك، ومنها كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» لشيخنا عبدالفتاح أبو غدة، وكتاب «سوانح وتأمّلات في قيمة الزمن» لشيخنا د. خلدون الأحذب، وغيرها، وقبل ذلك كلّ استمداد التوفيق من الله بالأوراد النبوية، كقول النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»^(١)، وقوله لمعاذ: «لَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢).



(١) «صحيح مسلم» (٢٧٢٥).

(٢) «سنن أبي داود» (١٥٢٢)، و«سنن النسائي» (١٣٠٣).



٣١ - لليوم أهميته:

فَمَنْ لَمْ يُحَسِّنِ الاستفادةَ مِنْ يومه لم يستفد من عمره، وهل عمرك إِلَّا أَيَّامُ حياتك؟! وكلُّ يومٍ تغرب عليك شمسُه فهو مرحلةٌ قطعَها تُقَرِّبكُ إلى نهايةِ العمر، وقال الحسن البصري: «إنما أنت أَيَّامٌ، وكلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك»^(١). فما هي حصيلتنا حين نصل إلى عَقَبَةِ النهايةِ ومحطَّةِ المغادرة؟.

ولذا كان أصحابُ البصيرة والعزيمة يأخذون أنفسهم في استغلالِ مراحلِ اليوم، ويجعلون لها وظائفَ وأعمالاً تعمُرُها، ويراقبون إنجازهم اليومي بكاملِ القِطعةِ وغايةِ المراقبةِ.

قال ابن مسعود: «ما ندمتُ على شيءٍ كندمي على يومٍ غربت شمسُه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي»^(٢). وقال عمر بن عبد العزيز: «إِنَّ اللَّيْلَ والنَّهَارَ يعملان فيك فاعْمَلْ فيهما»^(٣). ويروى عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ خَرَّانَتَانِ،

(١) «الزهد» لابن حنبل (١٥٨٦).

(٢) «قيمة الزمن عند العلماء» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة (٤٧).

(٣) «الشكوى والعتاب» للثعالبي (٢٢٥)، و«ربيع الأبرار» للزمخشري (٣/ ٤٦١).

فانظروا ما تضعون فيهما»، وكان يقول: «اعملوا الليل لما خُلِقَ له، واعملوا النهار لما خُلِقَ له»^(١).

واليوم هو رأس المال الذي في اليد، فالماضي قد فات، والمستقبل غيبٌ محجوب، ولك يومك الذي بين يديك.

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها^(٢)
ولهذا اليوم اجمع تفكيرك، واشحذ هممك، واستقبله بتحفظٍ وتفاؤل، وسوف تجد بتتابع الأيام إنجازاتٍ متراكمةً، ونجاحاتٍ متتابعة، والرضا عن النفس والاعتباط بما حققت وأدركت.

ومما يعين على ذلك:

أ.. إعداد برنامج اليوم: بتحديد المهمات قبل موعدها، فلا تستيقظ إلا وقد عرفت برنامجك وعيّنت أعمالك.

فتستقبل يومك وأمامك وضوح تام، ما الذي ستنجزه في يومك هذا؟ وما أهم مهمّاتك؟ ثم البدء بالأهم أولاً.

أما الذي يستقبل اليوم وهو لا يدري ما عمله ولا مهمّته، مستغرقاً في كل ما يشغله ويلهيه، فهذا الذي يتسرب وقته، ويضيع عمره من بين يديه يختطفه كل شغل ويلهيه كل لهو، فيصل إلى محطة العمر الأخيرة وهو لم يصل إلى هدف، ولم يحقق إنجازاً.

ب.. استقبال اليوم من أوله: فلا تسبقك الشمس بالحضور، فإن البركة في البكور، واليوم مثل ورقة العملة الكبيرة: إذا صرفتها ضاعت منك، وكذا اليوم إذا أضعت أوله تفارط منك باقيه، وأثمن اليوم بكوره وأوله.

(١) «الزهد» لابن أبي الدنيا (٤٢٣).

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٣ / ٧)، «المنتظم» لابن الجوزي (٢٥٨ / ١٧).



قال د. صالح بن حسين العايد: «كانت لقاءاتي بالشيخ جعفر إدريس كثيرة ومتكررة، وقد رأيته يحب اللقاءات، ويستجيب للدعوات وجلسات الحديث والمؤانسة والمذاكرة، فقلت في نفسي: ما دام هذا العالم يُمضي هذه الأوقات الطويلة في اللقاءات والجلسات، فمتى يقرأ؟! ومتى يبحث؟! ومتى يكتب؟! وكنت أراه ويده مجلد ضخمة، ثم أسأله عنه بعد مدة، فيُخبرني أنه أنهى قراءته، فزادت حيرتي، وسألته عن ذلك، فقال:

أنصحك بأن تستغل الأوقات الميتة، فتحيتها بالقراءة والبحث والكتابة، واستمر على ذلك، عود نفسك على عدم النوم بعد الفجر، واستفد منه في القراءة والبحث والكتابة، فهذا وقت لا يمكن أن يزورك خلاله أحد، ويكون فيه ذهنك صافياً مستعداً للبحث... وكذلك ما بعد العصر إلى المغرب، وإن من يتعود على النوم بعد الفجر وبعد العصر تذهب عليه أفضل أوقاته سُدى»^(١).

ج.. البداية بالأهم والأصعب: فإن النفس تميل إلى تأجيل المهمات والتشاغل بالأمور السهلة والمسلية، ولذا كان شعار إدارة الوقت: «ابدأ بالأهم أولاً».

وللكاتب الأمريكي بريان تريسي كتاب بعنوان «ابتلع هذا الضفدع» وخلاصته: ابدأ بالأهم ولو كان صعباً، ابدأ بالإنجاز الأصعب والأشق على نفسك، وستجد الوقت بعد ذلك للأشياء السهلة والمريحة.

وخذ مثلاً على ذلك، لو وضعت برنامجاً يومياً تقرأ فيه صفحتين من القرآن مع تفسيرهما من تفسير مختصر كتفسير ابن جزي، أو «مختصر تفسير ابن كثير» لأحمد شاكر، وعشرة أحاديث من كتاب «معالم السنة» تتأملها وتبحث عن معنى الغامض منها،

(١) باختصار من مقال: «استغلال الأوقات الموات» أ. د. صالح بن حسين العايد.



فإنك خلال سنة تكون قد أنهيت القرآن وتفسيره، وأنهيت استعراض متون السنة، فأی ثمرة ستظفر بها من هذا الالتزام!.

د.. مما يُعين على الإنجاز اليومي الاستعانةُ بمصفوفة «مهمّ/ عاجل» وقد بسطها ستيفن كوفي في العادات السبع، وسبقه إليها ابن القيم في الجواب الكافي^(١).

وخلاصتها: أن الأعمال منها ما هو مهمّ وعاجل، ومهمّ غير عاجل، وغير مهمّ عاجل، وغير مهمّ غير عاجل.

فالحازم منشغلٌ بالمهمّ غيرِ العاجل، وهو عادةً طويلُ المدى عظيمُ الأثر، كالتحصيل العلمي للطالب، والتصنيف للعالم، ونحو ذلك.

ثم الانشغال بالمهمّ العاجل.

في حين أن أكثرَ الناس منشغلون بغير المهمّ وغيرِ العاجل؛ وهؤلاء الذين تراهم على طاولات المقاهي، أو أمام الشاشات، أو غارقين في متابعة وسائل التواصل والأخبار السياسية والرياضية، وكأنّ ساعات الوقت فائضٌ عمرٌ يتفننون في إهداره وبعثرتّه.

ومن المفيد في ذلك قراءة كتاب «اليوم أهميّة» لجون ماكسويل.



(١) يُنظر: «الجواب الكافي» لابن القيم (٢٧١)، وعبر عنها بـ «مهمّ يفوت، ومهمّ لا يفوت، وغير مهمّ يفوت، وغير مهمّ لا يفوت».



٣٢- أيام العلماء:

البرامج اليومية للعلماء هي التطبيق العملي لوصاياهم التي أوصوا بها، وهي أثر العلم في حياتهم، وهي وعاء الإنجاز ومسار العطاء.

وكنت جمعت ضميمة من برامج العلماء الذين كان لهم أثرهم وإنجازهم، وقد عاشوا في أزمنة متفاوتة، وأفطار متباعدة، وظروف مختلفة، وكان لكل منهم طريقته في إدارة يومه، وترتيب برنامجه فيه.

وكانت هذه البرامج اليومية في وقت نضوج هؤلاء العلماء، واستوائهم واستقرار حياتهم، فهي خميرة الخبرة، وثمرات التجربة، واتضح كيف يصنع كل واحد منهم يومه وفق إمكانياته وزمانه وبيئته.

ومن خلال هذا التنوع الزمني والجغرافي والاجتماعي نلاحظ القاسم المشترك بينهم، والذي هو وصفة الإنجاز وسر النجاح.

وليس القصد من التعرف على هذه البرامج تقديمها على أنها النموذج المثالي لكل أحد، ولا جعل يومياتهم برنامجاً لحياتنا، ولكن لأخذ العبرة من حالهم،

ومعرفة النظام الذي ساروا عليه، والوقوف على عوامل نجاحهم وبقاء أثرهم، فنقتدي بهم، ونتبع سبيلهم وفق ما ينفعنا في أزمتنا وأمكتنا^(١).

وممن حفظت لنا برامجهم اليومية المفصلة من أئمة الزمان:

المنذر بن سعيد البلوطي^(٢)، وابن الجوزي^(٣)، والنووي^(٤)، وابن حجر^(٥)، وغيرهم. ومن علماء العصر الشيخ عبد الحميد بن باديس^(٦)، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ^(٧)، والشيخ عبد العزيز بن باز^(٨)، والشيخ محمد بن عثيمين^(٩) رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وغيرهم. وعند تأمل برامج العلماء اليومية نلاحظ معالم هادية في سيرهم ومسيرة حياتهم، ومنها:

أ- الثبات والمداومة، فالثبات في توطين أوقات العمل، فليس للأعمال المهمة فضلات الأوقات وأشتات الحياة، وإنما لها وقت ثابت هو الأنسب لأدائها، ومع هذا الثبات فهناك الدوام والانضباط، ولهذا وُجد في تراث كثير منهم ما تعجز المجامع العلمية عن تحقيقه، فكيف بتصنيفه؟.

- (١) يُنظر: «البرامج اليومية لأعلام الأمة الإسلامية» لإبراهيم بن فريهيد العنزي، و«يوم في حياة كاتب» ترجمة علي زين، و«طقوس فنية، كيف يعمل المبدعون؟» لماسون كاري.
- (٢) يُنظر: «أخبار القاضي منذر بن سعيد البلوطي وسيرته» لابن عبد البر (١٠١ - ١٠٥).
- (٣) يُنظر: «لغة الكبد» لابن الجوزي (٥٠ - ٥٦).
- (٤) يُنظر: «المنهل العذب الروي» للسخاوي (٤٢).
- (٥) يُنظر: «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي (٣ / ١٠٥٣).
- (٦) يُنظر: «الرد النفيس على الطاعن في العلامة ابن باديس» للشيخ محمد حاج عيسى الجزائري، و«الشيخ عبد الحميد بن باديس» لمحمد بن أحمد المنصوري، و«إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس» لعبد القادر فضيل ومحمد الصادق رمضان.
- (٧) يُنظر: «مشاهير علماء نجد» للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (١٧٠).
- (٨) يُنظر: «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد (٦١).
- (٩) يُنظر: حديث للشيخ د. سامي الصغير عن الشيخ ابن عثيمين موجود على يوتيوب.



ب- لكلّ منهم برنامج الذي يناسبه، ولكلّ ظروفه وبيئته، ولذا تجد من هو مُتَرْفَعٌ في حياته كابن الجوزي، والمتقشف كالنووي، ومنهم من يبدأ برنامجه بعد الفجر، ومن يسهر الليل وينام في الصباح، ومنهم من توجّهه إلى التأليف أكثر من التعليم، ومنهم من شغله التعليم عن التصنيف، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

ج- حضور التعبد في حياتهم من الذّكر، وورد القرآن وقيام الليل، وهذا قاسم مشترك بينهم، فمنهم من ظهر ذلك في حياته، ومنهم من حجب ذلك حرصه على إخفائه، وفي حياة كل منهم مشهد من الشّك والتّأله عاجب.

د- الحزم في استغلال الوقت، فلا تجد في أوقاتهم فجوات تضيع بلا فائدة، بل كلّ منهم في حالة استنفار، يعيش كل يوم كأنه اليوم الأخير في حياته، فهو مزدحم بالأفْع والأهم، وقد قيل عن حماد بن سلمة بن دينار، لو قيل له: إنك تموت غداً لَمَّا استطاع أن يزيد في العبادة.

هـ- النفع العام، والصلة بالناس عند أكثرهم، وهناك من صلته واسعة مع العامة وطلبة العلم ورجال الدولة، مثل البلوطي، وابن باديس، ومحمد بن إبراهيم، وابن باز، وهناك من صلته بالعلماء وطلبة العلم، مثل ابن حجر والإشبيلي، ولكل امتداده الذي يناسب لياقته وقدراته وإمكاناته.

و- تأملت أحوال الأشياخ في برامجهم اليومية، فوجدت عمارة الوقت في كل مراحل العمر، فليس هناك مرحلة اسمها التقاعد والقعود، ولا التوقف والفتور.

كان شيخنا عبد الرحمن الكتاني يعقد مجالس السماع وقد جاوز المئة، وكان الشيخ ابن باز يداوم ويفتي وينهي المعاملات إلى يوم وفاته في التسعين من عمره، واستمرت دروس شيخنا ابن عقيل مزدحمة في يومه إلى أن دخل في غيبوبة الموت، وقد بلغ الرابعة والتسعين.



ز.. أكثر هذه البرامج اليومية تصف هؤلاء العلماء في مرحلة النضج والعطاء، وينبغي أن نعلم أن هذا العطاء مسبق بجهد مضاعف في مرحلة الطلب، وأنه لولا طلب العلم بجِدٍّ وتعب ما حصل بذله بعد ذلك بسخاء.

إن برنامج الطالب سابق لبرنامج الأستاذ، وأن هذا الجهد في التصنيف مسبق بجهد في التحصيل، ولولا الأخذ ما حصل العطاء.

وعندما أخرج كاتبٌ عدة مؤلفاتٍ متينة في مدة قصيرة قيل: إن الوقت الذي كان يقضيه في القراءة صار يقضيه في الكتابة، وكلُّ ينفق ممَّا عنده.

ح.. من القواسم المشتركة بينهم استغلال صباح الصباح، وبركة البكور، واستقبال طلائع اليوم بأفضل الأعمال من ذكر أو تلاوة قرآن أو تعليم علم.

والأصل في ذلك فعل النبي ﷺ، أنه كان إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس حسناء^(١).

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يدع أحداً من أهله ينام بعد الفجر، ويرى أن النوم في هذا الوقت من الغفلة^(٢)، فأول النهار وقت بركة ونماء، وهو أنفع أوقات التحصيل والعمل.

وهذا ما يؤكد خبراء الفعالية وجودة الإنتاج، وفيه كتب خاصة مثل «معجزة الصباح» لهال إلرود، و«متى يستيقظ الناجحون؟» للأستاذ زياد الدريس والأستاذ علي الحَكَمي، وغيرها.

(١) «صحيح مسلم» (٦٧٠).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٣٨١).

٣٣- وصايا العلماء:

للعلماء على تتابع الزمن نصائح قيمة، فيها صدق اللهجة، ومحض النصيحة، وخلاصة التجربة، بعد أن تقدم بهم العمر، واتضحت الرؤية، وعركتهم الحياة.

وجاءت هذه النصائح في وصاياهم لأبنائهم أو تلاميذهم أو أصحابهم، ومنها:

وصية ابن الجوزي لولده^(١)، ووصية ابن قدامة التي كتبها استجابة لطلب بعض إخوانه^(٢)، ووصية شيخ الإسلام ابن تيمية (الوصية الصغرى)^(٣)، ووصية ابن القيم لأحد إخوانه^(٤)، ووصية الذهبي^(٥)، ووصية الشيخ ابن عثيمين^(٦)، وغيرها.

(١) واسمها: «لغة الكبد في نصيحة الولد» كتبها لولده بدر الدين علي، وفيها شفقة الوالد وحكمة الناصح، وقد طبعت مفردة بتحقيق أشرف عبد المقصود.

(٢) طبعت هذه الوصية مفردة بتحقيق الشيخ محمد رمضان خير يوسف، وقد اختصرتها وتجاوزت الحكايات والأخبار التي يناسب اختصارها.

(٣) طبعت في مجموع الفتاوى (١٠/٦٥٣-٦٦٥) وطُبعت عدة طبعات مفردة، وشرحها أخي الشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد فتمم مراد الشيخ، وبيّن ما أجمله، وبسط ما اختصره.

(٤) هي وصية كتبها الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إلى علاء الدين، أحد إخوانه، يوصيه فيها بوصايا جامعة، وقد طبعت بتحقيق الشيخ عبد الله بن محمد المدبفر.

(٥) هي رسالة مختصرة كتبها الذهبي لمحمد بن رافع السّلامي ولغيره من طلبة العلم، وقد طبعت مفردة بتحقيق د. جمال عزون.

(٦) هي رسالة كتبها الشيخ لأحد طلابه لما سأله النصيحة، وهي نصيحة مفصلة مختصرة، وصورتها منتشرة على شبكة الإنترنت بخط الشيخ.



خامساً الإجازات



نشأة الإجازات وتطورها^(١)

الأصل في الإجازات: الرواية بالإسناد، والذي هو خصيصة هذه الأمة، فهذه الأمة لا تقبل حديثاً عن نبيها ﷺ حتى تستوثق من روايته عنه: من الذي سمعه منه؟ ومن الذي رواه عمّن سمعه؟ ثم تتعرف على سلسلة الرواة وعدالتهم وضبطهم ليُقبل الخبر أو يُردّ.

وقد بدأت العناية بروايات الحديث عن رسول الله ﷺ مبكرةً في حياته ﷺ، وكان الاعتماد فيها على الحفظ غالباً كعادة العرب، ومع ذلك وجدت الكتابة في حالات ليست قليلة، ومن ذلك خبر عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأوماً بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(٢).

(١) يُنظر في ذلك: «الردع الوجيز لمن أبى أن يُجيز» لعبد الحي الكتاني، و«السماع والقراءة والإجازة» للشيخ محمد حعود التمساني، و«الغاية من السماع والرواية» للشيخ صالح العصيمي، و«التحرير الفريد لعوالي الأسانيد» للشيخ عمر الشوقاتي، و«الإجازة العلمية في نجد» للشيخ د. هشام السعيد.

(٢) «مسند أحمد» (٦٥١٠)، و«سنن أبي داود» (٣٦٤٦).

وخطب النبي ﷺ بمكة، فقام رجل يقال له أبو شاة، فقال: «اكتب لي يا رسول الله»، فقال ﷺ: «اكتبوا لأبي شاة»^(١).

وعن عبد الله بن عكيم قال: أتانا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة، قال: وأنا غلام شاب، قبل وفاته بشهر أو شهرين: «أَنْ لَا تَتَفَعُّوا مِنَ الْمَيِّتَةِ بِإِهَابٍ، وَلَا عَصَبٍ»^(٢).

وبعد وفاة الرسول ﷺ بدأت الجهود في جمع الروايات، ومن ذلك خبر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم، قال: فتركتُ ذاك وأقبلتُ أسأل أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كان يبلغني الحديث عن الرجل فاتني بابه وهو قائل^(٣)، فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح علي من التراب فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فاتيك؟! فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، قال: فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رأيته وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني^(٤).

ووجد الحرص على علو الإسناد وتلقي الحديث ممن سمعه من رسول الله ﷺ مباشرة، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال: فابتعت بغيراً، فشددت إليه رحلي شهراً، حتى قدمت الشام؛ فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابراً بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج فاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت،

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٥).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٧٨٣)، و«سنن الترمذي» (١٧٢٩).

(٣) قائل: أي نائم القيلولة.

(٤) «المستدرک» للحاكم (٣٦٣).

قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ عُرَاءَ غُرْلًا بُهِمًا»، قلنا: ما بهما؟ قال: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ»، قلت: وكيف؟ وإنما تأتي الله عُرَاءَ بهما؟ قال: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(١).

قال ابن حجر: «وفي حديث جابر: دليل على طلب علو الإسناد؛ لأنه بلغه الحديث عن عبد الله بن أنيس فلم يقنعه حتى رحل فأخذه عنه بلا واسطة»^(٢).

وكما اعتنى الصحابة بالرواية اعتنوا بالتثبت والتحقيق من ضبط المروي عن رسول الله ﷺ، فعن أبي موسى الأشعري أنه جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: السلام عليكم، هذا عبد الله بن قيس، فلم يأذن له، فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، السلام عليكم هذا الأشعري، ثم انصرف، فقال: ردوا علي، ردوا علي، فجاء فقال: يا أبا موسى ما ردك؟ كنا في شغل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْأَسْتِذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ، وَإِلَّا فَارْجِعْ» فقال: تأتيني على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجلس الأنصار، فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدري، فذهب بأبي سعيد الخدري، فقال عمر: أخفي هذا علي من أمر رسول الله ﷺ، ألهاني الصفق بالأسواق، يعني الخروج إلى التجارة^(٣).

وقال علي رضي الله عنه: كنت إذا حدثت عن رسول الله ﷺ حديثاً لم أصدق صاحبه حتى أستحلفه، فإذا حلف صدقته^(٤).

(١) «الأدب المفرد» للبخاري (٩٧٠).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٣٦٨ / ١).

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» (٢٠٦٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٤).

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٣٩٥).

وهذا من باب التوثق في الحديث عن رسول الله ﷺ، وتأكيده التثبت في روايته. وجلس بشير بن كعب العدوي إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجعل يُحدث عن رسول الله ﷺ، ويقول: قال رسول الله ﷺ... فجعل ابن عباس لا يَأْذُنُ له، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي، أُحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع، فقال ابن عباس: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: «قال رسول الله ﷺ» ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلّول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»^(١).

وجلس الصحابة - بخاصة مَنْ عُمِّرَ منهم للتابعين يبلغونهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ، فعن عطاء بن أبي رباح قال: كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث^(٢).

وتابع التابعون البلاغ، وتابع أتباع التابعين التلقي جيلاً بعد جيل، ومن هنا وُجدت العناية بالأسانيد والاهتمام بها برجالها، وعدم قبول رواية إلا بإسناد مقبول، فعن إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال: قلت لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء «إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك». قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عمن هذا؟ قال: قلت له: هذا من حديث شهاب بن خراش فقال: ثقة، عمن قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، قال: ثقة، عمن قال؟ قلت: قال رسول الله ﷺ. قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف^(٣).

(١) مقدمة «صحيح مسلم» (١/ ١٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٥/ ٤٨١).

(٣) مقدمة «صحيح مسلم» (١/ ١٦).



فكانت الأسانيد هي طرق الرواية، وشهود الإثبات لصحة الحديث.

وللعلماء كلمات ثمينة في بيان أهمية الإسناد وقيمتها، وتَمَيَّز الأُمة به، وأن الاحتجاج بالحديث والاستشهاد به لا يتم إلا بعد التأكد من طريقه، والنظر في إسناده.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمَهُ اللهُ عَنْهُ: «الإِسْنَادُ عندي من الدين، ولولا الإِسْنَادُ لقال من شاء ما شاء»^(١). وهذه الكلمة من أفضل ما تُشَخَّص به منزلةُ الإِسْنَادِ في الدين وأبلغه.

وقال عبد الله بن المبارك أيضاً: مَثَلُ الذي يَطْلُبُ أمرَ دينه بلا إِسْنَادٍ، كمثل الذي يرتقي السطح بلا سُلَّمٍ^(٢). وقال أيضاً: بينا وبين القوم القوائم^(٣). يعني بالقوائم: الإِسْنَاد، وبالقوم: أهل البدع ومن شاكلهم.

وقال سفيان الثوري رحمَهُ اللهُ: الإِسْنَادُ سِلَاحُ المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟^(٤).

وقال الإمام الأوزاعي رحمَهُ اللهُ: ما ذهابُ العلم إلا ذهابُ الإِسْنَادِ^(٥).

وقال الحافظ يزيد بن زُرَّيع رحمَهُ اللهُ: لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحابُ الأسانيد.

(١) تُنظر: مقدمة «صحيح مسلم» (١ / ١٥)، «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢ / ٢١٣).

(٢) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (٢ / ٢١٣).

(٣) «المدخل إلى علم السنن» للبيهقي (١ / ٣٩١).

(٤) «المجروحين» لابن حبان (١ / ٣١).

(٥) «التمهيد» لابن عبد البر (١ / ٢١١).



وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: «لولا الإسناد وطلُب هذه الطائفة له، وكثرة مواظبتهم على حفظه، لدرَسَ منارُ الإسلام، وتمكَّن أهل الإلحادِ والبِدَعِ منه، بوضع الأحاديث، وقلبِ الأسانيد، فإنَّ الأخبارَ إذا تعرَّتْ عن وجود الإسنادِ فيها كانت بُتراً»^(١).

وقال الحافظ ابن حزم رحمه الله: «نقلُ الثقة عن الثقة، حتى يبلغَ به النبي ﷺ، مع الاتصال، يُخبرُ كلُّ واحدٍ منهم باسمِ الذي أخبره ونسبه، وكلُّهم معروفُ الحالِ والعينِ والعدالةِ والزمانِ والمكان: خَصَّ الله به المسلمين دون سائرِ أهلِ المللِ كلِّها، وأبقاه عندهم غضاً جديداً على قديم الدهور، يرحلُ في طلبه إلى الآفاق البعيدة من لا يُحصي عددهم إلا خالقُهم، ويواظِبُ على تقييده من كان الناقل قريباً منه.

قد تولى الله حفظه عليهم والحمدُ لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلةٌ في كلمةٍ فما فوقها في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم، ولا يُمكنُ فاسقاً أن يُقحمَ فيه كلمةً موضوعةً والله تعالى الشكر»^(٢).

ثم لما أُلِّفَت الكتب الجوامع للسنة، كصحيح البخاري ومسلم، والسنن والمسانيد، وغيرها صارت الرواية للكتب، وصارت المصنفات تُروى كما كانت تُروى الأحاديث من قبل، وكانت هذه المصنفات تُروى عن مؤلفيها بالقراءة عليهم أو بتحديثهم بها كما كان يُروى الموطأ عن مالك، والصحيح عن البخاري وغيرهما، قال الفريزي: سمع الصحيح من البخاري سبعون ألف رجل، فما بقي أحد يرويه غيره.

وقد كان يحضر مجلس البخاري أكثر من عشرين ألفاً يأخذون عنه^(٣)، ثم صار لهذه الكتب رواة يُقصدون لروايتها عنهم لعلو إسنادهم، وصحة نسخهم وسماعهم،

(١) «معرفة علوم الحديث» للحاكم النيسابوري (٦)، وبتراً أي: مقطوعة غير متصلة، والبتَر: القطع.

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٢/ ٦٨ - ٦٩) بتصرف.

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٧٣).

كأبي ذر الهروي، وأبي الوقت السجزي وغيرهم، ومن ذلك قصة أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي، قال: رحلت لسماع الصحيح ماشياً مع والدي من هراة إلى الداوودي ببوشنج، ولي دون عشر سنين، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين، وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج.

فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ بل نمشي، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله، ورجاء ثوابه.

فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أنني انتفعتُ بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحد سواي، حتى صارت الوفود ترحل إلي من الأمصار^(١).

فلما استقرت هذه المصنفات وانتشرت وحُفظت تسامح العلماء بعد ذلك في طريقة الرواية بالإجازة تيسيراً للرواية، وإبقاءً على شعار الأمة وخصائصها، ولأن كثرة الطرق في رواية الكتب تغني عن التمهيص الدقيق في أسانيدها.

قال الشيخ نور الدين عتر رَحِمَهُ اللهُ: «إن العلماء اعتمدوا على الإجازة بعدما دَوّن الحديث، وكتب في الصُّحف، وجمع في التَّصانيف، ونقلت تلك التَّصانيف والصُّحف عن أصحابها بالسُّند الموثوق الذي ينتهي بقراءة النسخة على المؤلف، أو مقابلتها بنسخته، فأصبح من العسير على العالم كلُّما أتاه طالب من طُلاب الحديث أن يقرأ عليه الكتاب، فلجؤوا إلى الإجازة.

فالإجازة فيها إخبار على سبيل الإجمال بهذا الكتاب أو الكتب أنه من روايته، فتُنزَل منزلة إخباره بكل الكتاب نظراً لوجود النسخ...»^(٢).

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠ / ٣٠٦ - ٣٠٧).

(٢) «منهج النقد في علوم الحديث» د. نور الدين عتر (٢١٥ - ٢١٦).

- وقال الإمام بدر الدين ابن جماعة: «ليس المقصود بالسند في عصرنا إثبات الحديث المروي وتصحيحه؛ بل المقصود بقاء سلسلة الإسناد المخصوص بهذه الأمة فيما نعلم»^(١).

ولذا حصل التساهل واليسير في طريقة الإجازة، ولم تعد الرواية كما عند رواة السلف تُتلقى حديثاً حديثاً، بل صارت الكتب تُروى كتاباً كتاباً، ثم كُتباً كُتباً، ثم التوسع بإجازة عامة بجميع مرويات الشيخ، لأن الكتب قد ضُبطت رواياتها، وحررت نُسخها، ووُثِّقت بالسماعات والمقابلات، ولأن المتون قد ضُبطت في كتب الشروح، وكتب الغريب، والرواة ضُبطت أسماؤهم وألقابهم في كتب الرجال، فخفف التشدد في طرق الرواية والإجازة لحصول الضبط والتصحيح في الكتب التي اعتنت بذلك^(٢)، وصارت الإجازة تنويهاً «بتسلسل السنة بالإسناد، وأن على ثقات الرواة الاعتماد، ليعتق طالب الهدى النبوي الصحيح، ويجافي الجريح، ثم بقيت مجردة صلة بأولئك الأبطال، وذكرى لما بدئ به هذا الحال، ومتعرِّفاً للطبقات الفاضلة، ذوي التأثير البليغ، والآثار الطائفة، ومرجعاً لمن يؤرِّخ الأعيان، فيثق بمن لقي مترجمه أو عاصر من الأقران، ومتقرباً إلى قلوب الأخيار، ومجمعاً لجنود الأرواح على ملتقى الآثار، وشهادة لأهلها بما حظوا به من الفضل، وخصّوا من عظيم النبل، وهذه شذرة من أسرار الإجازة، وقد يستنبط النبيه أضعاف ما ذكر من محاسنها الممتازة»^(٣).

وكما حصل التسمّح في طريقة الإجازة، فقد جرى التسمح في حال الشيخ المُجيز، والاكتفاء في أهليته بمعرفته بالصلاح والديانة، وثبوت سماعه والإجازة له.

(١) «المنهل الروي» (٣٤).

(٢) «الغاية من السماع والرواية» للشيخ صالح العصيمي (٨).

(٣) «وليد القرون المشرقة» للعجمي (٣١٨-٣١٩).



ولذا كان العلماء يروون عن من كان دونهم علماً إذا كان أعلى رواية، وخير مثال على ذلك: الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة (٧٣٠ هـ) رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ظهر سماعه لصحيح الإمام البخاري، ووجدوا اسمه في الطباق، وعُرف علوُ إسناده في صحيح البخاري؛ فتداعى الناس إلى السماع منه، وقصده علماء الإسلام في وقته، ورحلوا إليه من أرجاء الدنيا، وجلسوا بين يديه، مع أنّه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ إلا اليسير من القرآن.

وممن جلس بين يديه وقرأ عليه من الأئمة الكبار: ابنُ تيمية، والمزي، والبرزالي، وابنُ مفلح، والذهبي، وابنُ كثير، والعلائي، وابنُ جابر الوادي أشي، وجماعةٌ من آل قدامة وغيرهم رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى حتى قرئ عليه صحيح البخاري أكثر من سبعين مرة، وسمع منه أكثر من مئة ألف أو يزيدون، وكان قد جاوز المئة محققاً، فقد سمع صحيح البخاري سنة (٦٣٠ هـ) وأسمعه في سنة (٧٣٠ هـ)^(١).

واستمرت الرواية عن العلماء والتلقي عنهم مصحوباً باستجازتهم بما روه، وبقيت مجالس سماع الحديث تحاكي تلقي العلماء الحديث عن شيوخهم في عصر الرواية.

وكأي صنعة يطول عمرها، ويتقادم عهدها، فإنه يداخلها الخلل، ويتسلل إليها الدُّخلاء، فكان العلماء يقظين في نقد طرق الرواية المختلة، والتحذير من المجازفات فيها؛ كالرواية عن الجن، وعن الكذابين من المعمرين، ونحو ذلك^(٢)، وكشفوا زيف المرويات الموهومة والمدعاة.

(١) «اختصار علوم الحديث» (١٥٢)، و«البداية والنهاية» كلاهما لابن كثير (١٤ / ١٧٢).

(٢) «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز» محمد زاهد الكوثري (٥ - ٧).



وهذه اليقظة والنقد صاحبت الرواية والإجازات من بكورها كما كان الجرح والتعديل ومعرفة الرجال مصاحبة لأسانيد الأحاديث منذ طلائع روايتها، وتتابع العلماء في التحذير من الممارسات الخاطئة في الرواية، ومن ذلك ما قال الخطيب البغدادي: «وقد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدّون أنفسهم من أهله المتخصّصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس ممّا يعدّون، وأقلّهم معرفة بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عدداً قليلاً من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر أنه صاحب حديث على الإطلاق، ولمّا يُجهد نفسه ويَتعبُها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه، وهم - مع قلة كتبهم له، وعدم معرفتهم به أعظم الناس كبراً، وأشدّ الخلق تيهاً وعجباً، لا يراعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمّة، يخرقون بالرّاوين، ويعنّفون على المتعلّمين، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه، وضدّ الواجب ممّا يلزمهم أن يفعلوه»^(١).

كما نقد الذهبي كثيراً من سلبيات الرواية وكأنما يعيدها إلى رشدّها، فقال: «والمحدثون فغالِبهم لا همة لهم في معرفة الحديث ولا في التدين به، إنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواة، لا يتأدّبون بآداب الحديث، ولا يستفيقون من سكرة السماع، الآن يسمع الجزء ونفسه تحدّثه: متى يرويه أبعد الخمسين سنة! ويحك ما أطول أملك وأسوأ عملك!»^(٢).

ثم قال: «فأيُّ شيء ينفع السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون والشبيبة يتحدّثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون، ويكابرون، والقارىء يصحف،

(١) «الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع» للخطيب البغدادي (١ / ٧٥).

(٢) «زغل العلم» للذهبي (٢٧).



وإتقانه في تكثير: (أو كما قال)، والرضع يتصاعقون^(١)، بالله خلّونا فقد بقينا ضحكة لأولي المعقولات، يطنزون^(٢) بنا: هؤلاء هم أهل الحديث^(٣).

إنَّ الإمام الذهبي الذي ينتقد هذا النقد، ويعنف هذا التعنيف هو من أوسع المحدثين رواية، وله معجم شيوخ واسع، ومروياته بأسانيده عن شيوخه متكاثرة في سير أعلام النبلاء وغيره؛ ولكن كلامه هذا هو نوعٌ من الترشيذ والتصحيح لطريقة الرواية، ونقدٌ للسلبات المصاحبة لها، ولذلك قال بعد ذلك:

«ونحمد الله في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن ويعتنون بالأثر كالمزي وابن تيمية والبرزالي وابن سيّد الناس وقطب الدين الحلبي وتقي الدين السبكي والقاضي شمس الدين الحنبلي وابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة وصلاح الدين العلائي وفخر الدين ابن الفخر وأمين الدين ابن الواني وابن إمام الصالح ومحب الدين المقدسي وسيدي عبد الله بن خليل، وجماعة سواهم فيهم العكر والغناء، والله يستر والمرء مع من أحب، والسعيد من نهض وأهب، وعلى الطاعة أكب، والله الموفق والهادي»^(٤).

وتتابعت عناية العلماء بالرواية والإجازة، وكتابة المرويات عن الشيوخ ومن لقوا في رحلاتهم من العلماء وما رووا عنهم.

واشتهرت برامج العلماء وكتب رحلاتهم وأثبتت فهراس مروياتهم؛ كفهرسة ما رواه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه، وبرنامج الوادي آشي، و«ملء العيبة بما جمع في طول العيبة» لابن رُشيد السبتي، و«المجمع المؤسس» لابن حجر، و«أنساب الكُتب في أنساب الكُتب» للسيوطي، و«فهرس الفهارس» للكتاني وغيرها.

(١) يتصاعقون: أي يصيحون ويصرخون، وربما كانت يتضاغون فتصحّفت.

(٢) يطنزون: أي يسخرون، والطنز السخرية.

(٣) «زغل العلم» للذهبي (٢٩ - ٣٠).

(٤) «زغل العلم» للذهبي (٣٣).



ولذا فإن استمرار مجالس الإقراء والرواية وطلب الإجازات من الشيوخ هو قفُّ لأثر هؤلاء الأعلام، ومحافظة على رسومهم، وتحصيل لبركة الرواية عن الأكابر، وأهلُه فيه مقتدون لا مبتدئون، فلهم سلف صالح، ومن اقتدى فقد اهتدى، وعيب الحاضر عيبٌ للسابق، والناس لهم في العلم مسالك وغايات، وفي التنزيل ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ^(١).

وقد كانت مجالس التحديث تعقد على توالي العصور وتتابع العلماء، وحُفِظَت مجالس الإملاء، كمجالس ابن ناصر الدين ومجالس ابن حجر، والذي خُتِمت به مجالس الإملاء، وكان يعقدها في كل يوم ثلاثاء، فيملي الحديث من حفظه، وإنك لتعجب عندما تقرأ في مجالسه: حدثنا شيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر إملاءً من حفظه ولفظه كعادته، ثم يسوق الحديث بإسناده من شيخه إلى النبي ﷺ، وهي أسانيد طويلة قرابة ثلاثة عشر راوياً في كل إسناد ^(٢).

وأما سماع كتب الرواية على الشيوخ المسنين فهي مرحلة من مراحل الطلب يعبرها كل طلبة العلم في الأجيال السابقة، وكانت مجالس السماع عامرة في حواضر العالم الإسلامي وخلق العلماء، وما من طالب علم إلا وقد مر سماعاً أو قراءةً بكتب السنة في مجالس الشيوخ المسنين.

ومن مجالس السماع الحافلة ما ذكر عن الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ تُقْرَأُ عَلَيْهِ الْأَمْهَاتُ السَّتْ، وقد وصفها المؤرخ الفقيه الحسن بن أحمد عاكش الضمدي، فقال:

(١) «الغاية من السماع والرواية» الشيخ صالح العصيمي (١٧).

(٢) يُنظر: «نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار» للحافظ ابن حجر، تحقيق حمدي السلفي.



«جرت العادة لشيخنا الحافظ الشوكاني في شهر رمضان أن الأمهات الست من كتب الحديث و«مستدرك الحاكم» يقع الإملاء فيها كل ليلة، مع حضور جماعة من علماء صنعاء من تلاميذ شيخنا الشوكاني ومن غيرهم، يصلون من البلاد النائية، ويقع اجتماعهم كل ليلة قدر خمسين عالماً، وكنا نحضر من جملتهم، فيُملى من كل مؤلف حصّة وافرة، ويتولى الإملاء المترجم له^(١)، وهو الحاكم على هؤلاء العلماء بإيراد الفوائد، وبالإملاء للكتب المذكورة واحداً بعد واحد، مع أن في ذلك المحفل العظيم نحارير العلماء، وتدور المراجعة إذا أشكلت بينهم، ويتولى حل إشكالها المترجم له، في أغلب الأوقات، وإن أدى الحال إلى عدم استكمال الفائدة رجع الأمر إلى شيخنا البدر الشوكاني، فيتكلم بها بكلام يبهر السامع، ويستطرد من الفوائد شيئاً كثيراً، ومع هذا فما رأيت شيخنا يلاحظ أحداً من أهل حلقته مثل ملاحظته المترجم له، وينزله منزلة النظر لا منزلة التلميذ... وذلك الاجتماع روضة من رياض الجنان مع أولئك الأعيان، ولا تملئه النفوس، ولا تشبع منه الأذهان، بل هو اختلاس وقت سرور من كدورات الزمان، سقى الله ذلك العهد والناس والقطر»^(٢).

وقد استمرت هذه السنة الحديشية في معاقل العلم وحواضر العالم الإسلامي، وفي مدينة الرياض كانت كتب السنة تُقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم في مجلس سماع في بيته كل يوم في الضحى قبل أن ينشغل بالمناصب الرسمية، وكانت مجالس شيخنا ابن باز مجالس قراءة وسماع لكتب السنة، فهي الحاضرة في كل مجالسه.

وكان من جناية الدراسة النظامية في الجامعات إهمال القراءة والسماع لكتب السنة، فتجد من يحمل شهادة عليا في الشريعة ولم يلمس بيده «صحيح البخاري»، ولا رأى «سنن الترمذي» بالعين المجردة.

(١) المترجم له هو الشيخ محمد بن علي العمري، جد شيخنا محمد بن إسماعيل العمري.

(٢) «عقود الدرر» لابن عاكش الضمدي (٥٦٤-٥٦٥).



وقد بدأ بحمد الله تعالى الاهتمام بإحياء سنة السّماع والقراءة في الآونة الأخيرة في أماكن عديدة كالحرّمين الشّريفيّن، والرّياض، والكويت، والمغرب، وسورية، والقاهرة، والجزائر، وإسطنبول، وغيرها، وقُرئ العديد من الكتب كالموطأ، والكتب السنّة، والمسانيد، والسّنن الكبرى للبيهقيّ، و«شمائل النبي ﷺ» للترمذي وغيرها، وساروا فيها على سنن أسلافنا ومشايخنا ومشايخهم في حضور مجالس السماعات وتحصيل الإجازات وأثبت المرويات التي تربط الفروع بأصولها، وتصل الخلف بالسلف، لتبقى الحلقات متصلة، وتستمر الأجيال متكاملة متناسقة، ترتبط أواخرها بأوائلها، وتسير على نهجها ومِنوالها، وتقتبس من النور الذي اقتبست منه، وتغترف من المعين الذي اغترفت منه^(١)، فأحييت بذلك سنة كادت تندثر.

وهناك بحمد الله جمع من المعتنين بالرواية والسماع وتوثيق الإجازات والعناية بالأثبت، ففي المملكة العربية السعودية الشيخ د. عبد الله بن حمود التويجري، والشيخ د. عبد الله بن صالح العبيد، والشيخ د. صالح بن عبد الله العصيمي، والشيخ د. هشام بن محمد السعيد، والشيخ محمد أبو بكر باذيب، والشيخ محمد سعيد طوله، والشيخ أحمد بن عبد الملك عاشور، والشيخ عبد الله التوم، وغيرهم، وفي الكويت الشيخ محمد بن ناصر العجمي، والشيخ فيصل بن يوسف العلي، وفي البحرين الشيخ نظام بن صالح اليعقوبي، وفي الشام الشيخ نعيم عرقسوسي، والشيخ محمد زياد التكلة، والشيخ نور الدين طالب، والشيخ محمد وائل الحنبلي، والشيخ عمر النشوقاتي، والشيخ محمد سعيد منقاره من طرابلس الشام، وفي المغرب الشيخ د. خالد السباعي، والشيخ د. محمد ححود التسماني، والشيخ د. حمزة بن علي الكتاني، وفي الجزائر الشيخ د. بلخير الطاهري الإدريسي، وغيرهم.

(١) «البدر التمام في مرويات الشيخ نظام» لمحمد التّسماني (٨).

وهي عناية مبشرة بإقبال على العلم وحفاوة بالسنة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والإجازات أنواع:

فأعلاها إجازة التصدر، وهي إجازة الفتوى والتدريس، وهذه لا تمنح إلا بعد ملازمة طويلة وخبرة من الشيخ بتلميذه، وهي أشبه بشهادة الجامعات، بل إن الباحث جورج مقدسي في كتابه «نشأة الكليات» أثبت أن شهادات الجامعات الغربية مستفادٌ أصلها من إجازات جامعات الأندلس^(١)، وهذا النوع غير معتبر الآن، وحلّ محله الشهادات الجامعية المعترف بها.

ومنها: إجازة رواية كتاب معين قرأه الطالب على الشيخ أو سمعه منه، كرواية موطأ مالك، أو صحيح البخاري، أو نحو ذلك.

ومنها: إجازة الرواية العامة، وهي التي توسعوا فيها حفاظاً على بقاء سلسلة الإسناد، وليس فيها إلا إثبات المعاصرة واللقيا أو أحدهما، وهي ليست تزكية علمية، بل إذن بالرواية، بالشرط المعترف^(٢) عند أهل الحديث والأثر^(٣).

وقد سارت الإجازات في قنوات الرواية، واجتمعت في أثبات شيوخ حفظوها واعتنوا بأسانيدها، وصاروا هم المرجع في الرواية والإجازة، وصار لكل بلد أثبات تُشتهر الرواية بها فيه.

(١) يُنظر: فصل «المجتمع المدرسي، المدرس وإجازة التدريس» من كتاب «نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب» لجورج مقدسي (٤١٦ - ٤٢٥).

(٢) يُنظر في تفصيل الشرط المعترف في الإجازة: «جهود علماء دمشق في رواية الحديث الشريف» للشيخ عمر الشوقاتي (٤٦).

(٣) يُنظر: «علوم الحديث» لابن الصلاح (١٥١ - ١٦٣)، وكتاب «الإجازة العلمية في نجد» للشيخ د. هشام السعيد (١٠٧ / ١) ففيه بسط وتفصيل جميل لأنواع الإجازات.

فَمِنْ أثبات الأسانيد المكية: «بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين» لأحمد التَّخْلِي المكي، و«الإمداد بمعرفة علو الإسناد» لعبد الله بن سالم البصري، وهو بصري نسبةً، لكنه مكي، وأسانيده مكية.

ومن أثبات الأسانيد المدنية: «الأمم لإيقاظ الهمم» لإبراهيم الكوراني المدني، و«قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر» لصالح الفلَّاني، و«حصر الشارد في أسانيد محمد عابد» لأسانيد الشيخ محمد عابد السندي.

ومن أثبات الأسانيد المصرية: «المعجم المفهرس» للحافظ ابن حجر، وثبت الشيخ زكريا الأنصاري، و«ألفية السند» لمرتضى الزبيدي، وهو من الهند ثم أقام في زبيد باليمن، ثم هاجر إلى مصر، وبها توفي، وأسانيده متنوعة، و«سد الأرب من علوم الإسناد والأدب» وهو ثبت الأمير.

ومن أثبات الأسانيد الشامية: رياض الجنة في آثار أهل السنة لعبد الباقي الحنبلي البعلبي، و«حلية أهل الفضل والكمال» لإسماعيل العجلوني، وأثبات الكُزْبَرِيِّين، عبد الرحمن الكزبري وابنه وحفيده، و«عقود اللاّلي في الأسانيد العوالي» لمحمد شاکر العقاد من دمشق، جمعه له تلميذه ابن عابدين صاحب الحاشية المشهورة في الفقه الحنفي، و«مجموع إجازات ابن عابدين» لابن عابدين، و«معدن اللاّلي في الأسانيد العوالي» لمحمد بن خليل القاوقجي من طرابلس الشام.

ومن أثبات الأسانيد اليمنية والحضرية: «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر» للإمام الشوكاني الصنعاني، و«النفس اليماني» لعبد الرحمن بن سليمان الأهدل، و«عقد اليواقيت الجوهريّة وسمط العين الذهبية» لعيدروس بن عمر الحبشي الحضرمي.

ومن أثبات الأسانيد المغربية: «الشموس المشرقة بأسانيد المغاربة والمشاركة» لإبراهيم بن علي الدرعي السباعي، وقد طبع بتحقيق أخي د. محمد ححود،



و«اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر» لأبي سالم العياشي، و«صلة الخلف من موصول السلف» لمحمد بن سليمان الروداني، وهو مغربي توفي بدمشق، وأسانيده مغربية، و«فهرس الفهارس والأثبات» للشيخ عبد الحي الكتاني، ومعجم الشيوخ للشيخ عبد الحفيظ الفاسي، وفهرسة السراج، وفهرسة المتتوري، وكلاهما مطبوع.

ومن أثبات الأسانيد الليبية: «الشموس الشارقة في ما لنا من أسانيد المغاربة والمشاركة» لمحمد بن علي السنوسي.

ومن أثبات الأسانيد الهندية: «الإرشاد إلى مهمات الإسناد» لولي الله الدهلوي، و«اليانع الجنّي في أسانيد الشيخ عبد الغني» الدهلوي جمعه محمد محسن الترهتي^(١)، و«المكتوب اللطيف إلى المحدث العلامة الشريف» لمحمد شمس الحق العظيم آبادي.

والرواية بالإجازة اليوم لها ثلاث مراحل:

الأولى: من الشيخ المجيز إلى صاحب الثبت الجامع، كمجمع ابن حجر والعلامة الأمير وغيرها.

الثانية: من صاحب الثبّت الجامع إلى مصنف الكتاب، كالبخاري ومسلم وغيرهما.

الثالثة: من صاحب الكتاب إلى النبي ﷺ.



(١) يُنظر: «التحرير الفريد لعوالي الأسانيد» للشيخ عمر الشوقاتي (٧٥-٨٩).



شيوخ الإجازة بين العسر واليسر

اشتهر جمع من المحدثين بالعسر والشدة في الرواية، ومن أشهرهم في ذلك الإمام الحافظ سليمان بن مهران الأعمش، فقد وصف بأنه كان عسراً في التحديث، وله طرائف في ذلك تُذكر في ترجمته، منها:

جاءه طلبة الحديث إلى بيته، فخرج إليهم، وهو يقول: لولا أن في منزلي من هو أبغض إلي منكم ما خرجت إليكم.

وطال شعر رأسه، فقال له تلميذه عبد الله بن إدريس: يا أبا محمد، ما يمنعك أن تأخذ من شعرك؟ قال: يمنعني كثرة فضول الحجامين^(١). فقال: أنا آتيك بحجام لا يكلمك حتى تفرغ، قال: نعم. فأتيت جُنَيْدًا الحجام، وكان محدثًا، فأوصيته، فقال: نعم، فلما حلق نصف شعره قال له: يا أبا محمد، كيف حديث حبيب بن أبي ثابت في المستحاضة، فصاح الأعمش صيحة شديدة، وقام يعدو وترك الحلاق، وبقي نصف شعره شهراً غير محلول^(٢).

(١) كان الحجام هو الذي يقوم بمهنة الحلاقة مع الحجامة، ولا حظ شهرة الحلاقين بكثرة الكلام حتى في ذلك الزمان.

(٢) يُنظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ٢٣٨)، وللأعمش طرائف كثيرة جمعها د. أحمد الضبيبي في كتابه «الأعمش الظريف».



وفي تراجم بعض المحدثين يُشار إلى هذه الصفة فيقال: «وكان فيه عُسر»، «وكان عُسراً في التحديث»^(١).

وتختلف أسباب هذا العسر بين المحدثين، فمنهم من يكون سبب ذلك حالة نفسية، كضيق الخلق والوحشة من الناس، ومنهم من يكون سبب ذلك التورع أن يضع العلم في غير وعائه، ويبدله لمن لا يليق به، فيتعسر على الغرباء وينبسط لمن يعرفه ويثق به. ومنهم من يمنعه التورع من الرياء وعدم إخلاص النية ونحو ذلك، والحق التحقيق أن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكما كان ذلك في الرواة قديماً فهو موجود في المجيزين حديثاً، وقد رأيت في بعض من لقيتهم من شيوخ الإجازة، فوجدت في بعضهم تحفظاً واحتياطاً وتشدداً في بذل الإجازة، ولذا لا يعطيها للطالب إلا بعد معرفة وملازمة، ولعل ذلك مراعاةً لأمر تربوي حتى لا تُبتذل هذه الإجازات.

وربما كان بعضها لأسباب نفسية خاصة، وقد ذهبت إلى أحد كبار علماء تونس وتحدثت معه فأنس بي كثيراً واسترسل في الحديث، فلما طلبت منه الإجازة عن شيخه الطاهر بن عاشور أغلق الأبواب، وأخبرني أن له اشتراطات ولوازم، وأنه لا يريد أن يخرمها أو يتجاوزها، فخرجت من عنده وذهبت إلى الشيخ الحبيب الخوجة رَحِمَهُ اللهُ، فاحتفى بالزيارة ورحب، ولما طلبت منه الإجازة عن شيخه الطاهر تلقى الطلب بترحاب، ووجدته سمحاً بذاك مجيباً، فأجازني إجازةً كريمةً فيها من السماحة والترحاب ما أجدد له به الدعاء كلما ذكرته.

(١) يُنظر: بحث «العسر عند المحدثين وأسبابه» للدكتور بدر بن محمد العماش.



ومن مشايخنا المتسامحين في الإجازة شيخنا د. رفعت فوزي عبد المطلب، فهو سخيٌّ بها لكل طالب، ويقول: «الإجازة بذرة نُلقِيها ويتولى الله سقيها».

وقد كتب الشيخ عبد الحي الكتاني لأحد المشايخ المجيزين يطلب منه الإجازة، وكان قد قارب العشرين من عمره، وبدأ التّأليف وصار له شهرة، وهو من بيت علم معروف، ولكن ذلك الشيخ تمنع في الإجازة واعتذر عنها، فألف الشيخ عبد الحي رسالته «الردع الوجيز لمن أبى أن يُجيز»، حشد فيها نقولاً هائلةً في التّسمّح بالإجازة من العلماء المتقدمين، لأنها إجازة اتصال، وليست إجازة تصدير ولا تأهيل للقضاء والإفتاء والتدريس حتى يتشدد فيها.

واحتج بإجازة العلماء قديماً للأطفال والغائبين، لأنها إباحةٌ من المجيز للمجاز أن يروي عنه، ونقل أقوال المحققين كالخطيب وابن الصلاح وغيرهم في ذلك.

وأورد ما ذكر عن عبد الله بن أبي داود السجستاني أنه سُئل الإجازة، فقال للسائل: «أجزت لك ولأولادك، ولحبَل الحبلة»^(١).

والحق أن بذل الإجازة لكل من طلبها نوعٌ من السخاء العلمي، والتحفيز للطالب، وربطٌ له بأهل العلم، فإن انتفع بذلك كان له أجره، وإن تقاصرت همته لم تضره، وكانت ذكرى حسنة، ومحبةٌ منه لأهل العلم والفضل، وإن لم يلحق بهم، وقد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم، فقال: «المَرْءُ مع مَنْ أَحَبَّ»^(٢).

(١) «الكفاية» للخطيب البغدادي (١ / ٣٢٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٠).



وقد كان السيد مالك السنوسي رَحِمَهُ اللهُ^(١) يبذل الإجازة بسماحة ويستشهد بقول النبي ﷺ: «رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(٢).

وأكثر من لقيت من المشايخ هم من هذا النوع السموح الكرىم، بل أكثرهم يشي على الطالب وىذكره بما يشجعه وىحفزه دفعاً به إلى الأمام وتبشيراً له.

وعندما زرت الشىخ عبد الله التلىدى مع بعض الإخوة ابتدأنا بعرض الإجازة قبل أن نطلبها، وكذلك كان شىخنا محمد أمين سراج رَحِمَهُمَا اللهُ.

وشتان بين مَنْ كان منبسطاً للطلبة، سموحاً بعلمه وروايته، فلما مات بقى ذكره والدعاء له، ومن كان متعسراً حمل مروياته إلى قبره، ووقفت عنده ولم تصل إلى مَنْ بعده.

وربما ندم على ذلك آخر عمره، وإذا الذىن طلبوه قد فاتوا وأغناهم الله من فضله. قال الخطيب فى ترجمة الحسن بن صالح السبيعى: «وكان ثقةً حافظاً مكثراً، وكان عسراً فى الرواية، ولما كان بآخره عزم على التحديث والإملاء فى مجلس عام، فتهياً لذلك ولم يبقَ إلا تعيين يوم المجلس، فمات»^(٣).



(١) هو السيد مالك بن محمد العربى السنوسى المدينى ولد فى مرسى مطروح بمصر، وانتقل إلى بلده ليبيا، ثم هاجر إلى المدينة فأقام وتوفى عام (١٤٣٤ هـ).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٢٣٠)، و«سنن أبى داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذى» (٢٦٥٦).

(٣) «تارىخ بغداد» للخطيب البغدادى (٧/ ٢٧٣).



ثمرات الإجازات وذخائرها

من مباحج الحياة رؤية هذه اليقظة العلمية، ونُفرة طائفة من شببية الأمة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ومن مظاهر هذه اليقظة العلمية: إحياء مجالس سماع الحديث، وتَطَلُّبُ الإجازات من الأكابر، وإحياء رسوم أهل العلم وطرائقهم في رواية الكتب وإسنادها.

وقد وُوجه هذا التوجه المبهج بازدراءٍ واستخفافٍ من بعض الإخوة، بحجة أنه ليس علماً ولا يورث علماً.

والذي ينبغي أن يُذكر به هؤلاء المنتقدون أن أحداً لم يدَّعِ أن المُجاز سيغترف العلم من رأس المُجيز إذا أجازه، ولكن هذه الإجازات صلة بين أجيال أهل العلم، ورسمٌ من رسوم التعليم حافظت عليه أجيال الأمة جيلاً إثر جيل.

قال الشيخ جمال الدين القاسمي: «الأسانيد من أجل الصّلات الروحانية، وأمثلة علامات الأخوة الإيمانية، يحيا بها فنّ معرفة الرّجال، ويُعلم منها تاريخ المتعاصرين من ذوي الفضل والإفضال، ويتشوّق بها إلى قراءة السّنة الرفيعة، ويتدرّج منها إلى ينبوع معين الشريعة»^(١).

(١) «وليد القرون المشرقة إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي» جمع محمد بن ناصر العجمي (٣٣٧).



وهو تقليد علمي متوارث، وله فوائد وثمرات يُصيبها من تحراها، فلماذا يُراد لنا أن نكون نحن الجيل الذي ينقطع عنده هذا السمت العلمي بذخائره وبركاته؟!.

وإني لأعجب ممن يشدد النكير على مجالس السماع والإجازات، وهي مجالس ذكر، ورسم علمي متوارث، ولا يستنكر في الوقت نفسه هذه الرسوم العلمية التي استعرناها من الغرب في لباس مناقشة الماجستير والدكتوراه للمناقشين، ولباس روب التخرج وقبعته، والتي أصبحت رسوم تباهٍ وافتخار، وكذلك أسماء الرتب الجامعية، من الماجستير والدكتوراة^(١).

والإجازات ينطبق عليها قول النبي ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأَنْبَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءُ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(٢).

وهكذا المُجازون: فمنهم من تكون الإجازة محفزاً له لتحصيل العلم والرسوم فيه وأخذه بقوة، وهؤلاء بأعلى المراتب، وهم السابقون بالخيرات، وهؤلاء كالأرض الطيبة التي تُنبِت الكَلَأَ والعشب الكثير.

ومنهم من يأخذ الإجازات ولا يصيب معها كثير علم، ولكن يحافظ على رسومها، ويرعاها حق رعايتها، وهؤلاء هم الصلة بين من سبقهم ومن يأتي بعدهم، وهؤلاء في منزلة وسطى، ومثلهم مثل الأحواض التي أمسكت الماء فشرب الناس منها وسقوا وزرعوا.

(١) يُنظر: «تغريب الألقاب العلمية» للشيخ بكر أبو زيد.

(٢) «صحيح البخاري» (٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٢).



ومنهم من يأخذها ثم لا يَتَنَفَعُ بها ولا يَنفَعُ، ويذوب في غمار الناس ومشاكل الحياة، فهؤلاء هم القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلاً، ولكن لعلها تُبقي معهم ذكرى حسنة، وصحبة صالحة.

﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

ومجالس السماع والإجازات مثلها مثل أي عمل عام، سيُوجد فيها أخطاء في التطبيق وتجاوزات وهفوات تُعالج بالنصح والتسديد، كما فعل الإمام الذهبي في رسالته «زغل العلم»، ونَبَّهَ عليها الأُشْيَاخُ الذين أثبتوا النصائح في إجازاتهم.

وعلى طالب العلم أن يعلم أن جَمَعَ الإجازات ليس هواية كَجَمْعِ الطوابع والتحف الأثرية، ولكنه شعيرة تعبُدية، وشعار علمي، ولها ذخائر وثمرات ينبغي على الطالب تحريها وتحصيلها، ومنها^(١):

١ - أن في الرواية بالإجازة محافظةً على خصيصة هذه الأمة، برواية العلم بالإسناد والتلقي عن أهل العلم الثقات الأثبات، وهذه الخصيصة ليست لأمة غير أمة محمد ﷺ، قال الإمام أبو بكر ابن العربي: «والله أكرم هذه الأمة بالإسناد، لم يُعْطَ أَحَدٌ غيرها، فاحذروا أن تسلكوا مسلك اليهود والنصارى؛ فتحدّثوا بغير إسناد فتكونوا سالبين نعمة الله عن أنفسكم، مطرّقين للّهمة إليكم، خافضين لمنزلتكم، ومُشْرِكِينَ مع قوم لعنهم الله، وغضب عليهم، وراكبين لُسُتَّهم»^(٢).

٢ - وهذه الإجازات تربط الفروع بأصولها، وتصل الخلف بالسلف؛ لتبقى الحلقات متّصلة، وتستمرّ الأجيال متكاملة متناسقة، ترتبط أواخرها بأوائلها،

(١) يُنظر: «السماع والقراءة والإجازة» لأخي الشيخ محمد حُجُود التَّسْمَانِي (٣٩-٥٥).

(٢) «سراج المريدين» لابن العربي المالكي (٤ / ٤١١).



وتسير على نهجها ومنوالها، وتقتبس من النور الذي اقتبست منه، وتغترف من المعين الذي اغترفت منه^(١).

٣ - توثيق نسبة الكتب لأصحابها برواية الرواة عنهم؛ فصحيح البخاري ومسلم وغيرها من كتب السنة لم تكن نُسخاً وُجدت في صندوق في خربة، ولكنها كُتِبَ تداولها الرواة الثقات الأثبات، جيلاً إثر جيل إلى يومنا هذا، وشتان بين رواية كتب السنة عند المسلمين ووجادة الكتب المقدسة عند النصاري، والتي لا يُعلم مَنْ كتبها، ولا مَنْ رواها، ولذا فإن الفروق بين نسخها أكثر من عدد كلماتها.

٤ - أن في الإجازات من الأثبات توثيق أسماء الكتب الصحيحة الكاملة، فإن اسم صحيح البخاري الكامل وصحيح مسلم وغيرها وُثِّقَت من خلال كتب الإجازات والأثبات، كما حقق ذلك شيخنا عبد الفتاح أبو غدة^(٢).

٥ - وفي كتب الأثبات رصدٌ لرحلة الكتب وتنقلها في أنحاء العالم الإسلامي؛ فرحلات العلماء هي ذاتها مسار الكتب من المشرق إلى الأندلس والمغرب، ومن المغرب إلى المشرق^(٣).

٦ - وفيها توثيق لقاء العلماء بعضهم ببعض وتلقيهم عن الشيوخ.

٧ - وفي كتب الإجازات والرحلات فوائد وأخبار ونفائس ثمينة مغمورة في سياق رحلاتهم، وفي رحلات أبي طاهر السلفي وإجازاته ورواياته عن شيوخه نفائس علمية لا توجد في مظانها.

(١) يُنظر: «البدر التمام في شيوخ ومرويات الشيخ نظام» لأخي د. محمد حعود التسماني.

(٢) يُنظر: «تحقيق اسمي الصحيحين وجامع الترمذي» لشيخنا عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) يُنظر مقال «فهرسة ما رواه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه» من كتاب «حياة واحدة لا تكفي» للأديب المؤرخ الأستاذ حسين بافقيه (١٩٠).



٨- وفي طلب الإجازات فرصة اللقاء بالأكابر من الشيوخ، ورؤية هديهم وسمتهم، وتلقي الهدي منهم، والغالب أن الرواية عنهم تكون في حال كبرهم ونضجهم وتراكم خبرتهم.

٩- ومما يُستفاد من الإجازات عند لقاء الأكابر أخذ الوصية منهم، والتقاط الفوائد من ذلك النوع الذي يكتسب بالخبرة وطول الممارسة، وهذا النوع لا يوجد غالباً في الكتب.

١٠- وفي مجالس السماع إمرار لنصوص السنة، وإحياء لمدوناتها، وإشهار لحديث رسول الله ﷺ بمجالسة العلماء، وتذكير بأحاديث الرسول ﷺ لمن لم يتيسر له الإمرار عليها، وقد عُقدت مجالس لسماع مختصر البخاري ومسلم، وأنقل لك تأثر بعض من حضرها واستمع أول مرة إلى أحاديث البخاري ومسلم كاملة متتابعة، وهو الطبيب د. خالد بن حمد الجابر، قال: لم يخطر على بالي أن أسمع صحيح البخاري، وحياتي مزدحمة بالطب والمرضى والطلاب والأبحاث، لكنه حصل! وسمعت مختصر صحيح البخاري، من برنامج «ستي» التابع لمركز دلائل.

عشت حياة النبوة، بتفاصيلها وأحداثها، كأني مع الصحابة، عشت معه أجواء فترة النبوة بتفاصيلها الصغيرة.

اعتدنا على ختم القرآن، لكن لم نعتد ختم السنة، وسرت قشعريرة في جسدي، وأنا أستمع لإجازات كبار علماء الحديث لي، بعد إتمامي سماع مختصر صحيح الإمام مسلم. شيء لم نعتد عليه في مناهج التعليم في الطب، فيها روحانية غامرة، أن يتصل اسمك باسم النبي الكريم ﷺ

الآن فهمت لماذا كان العلماء على مدار التاريخ، يحرصون على مجالس سماع الحديث.



بإذن الله سأجعل لي وردا ثابتا من مجالس سماع الحديث^(١).

١١ - والحضور إلى مجلس السماع حضور في مجلس ذكر تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكره الله فيمن عنده، ويكثر فيه ترداد الصلاة على النبي ﷺ، ومن صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرا^(٢).

وهو اجتماع على طاعة الله وذكره، وقراءة أحاديث رسوله ﷺ ورواية ميراثه، خرج معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «مَا أَجَلَسَكُمْ؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا، قال: «الله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٣).

ولن يعدم حاضر هذه المجالس غنيمة من غنائمها؛ فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم^(٤).

١٢ - وإني أتخيل عند أخذ الإجازة من الأكابر كأن يدي ممسكة بيد الشيخ في صف متواصل عبر الأجيال يخترق حقب التاريخ حتى ينتهي إلى المصطفى ﷺ،

(١) من تغريدات د. خالد بن حمد الجابر على منصة (إكس).

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» (٣٨٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧٠١).

(٤) يُنظر الحديث: «صحيح البخاري» (٦٤٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٩).



إنه مشهد الإنتماء لأهل العلم في أجيالهم المتعاقبة، وتحقيق لقوله ﷺ: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ»^(١).

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: فَيْكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ، فَيُقَالُ: فَيْكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فَيْكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ»^(٢). ولذا فعندما أسمع وأرى مَنْ يحدثني عَمَّنْ رآه وسمعه حتى ينتهي إلى النبي ﷺ أشعر أن هذه الرؤية وهذا السماع إطلالة أرى فيها وأسمع النبي ﷺ من خلال رؤية وسماع تتناهى إليه عبر الأجيال.

وقد قال الشافعي: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنني رأيت النبي ﷺ حياً^(٣).

وقال محمد بن العباس الفربري: أملى علي البخاري يوماً حديثاً كثيراً، فخاف ملالي، فقال: طب نفساً، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه^(٤).

١٣ - حَسْبُ الْمُتَنَزِّمِ فِي تِلْكَ السَّلْسِلَةِ فَخْرًا وَشَرْفًا وَذُخْرًا أَنْ يَكُونَ فِي أَدْنَى سُلْسِلَةٍ أَوَّلُهَا وَأَعْلَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يَكُونَ اسْمُهُ مُتَنَزِّمًا مَعَ اسْمِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى ﷺ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَائِدَةٌ فِي الْإِجَازَةِ إِلَّا هَذِهِ لَكَفَى.

(١) «مسند أحمد» (٢٩٤٥)، و«سنن أبي داود» (٣٦٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٣٢).

(٣) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (٤٦).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢ / ٤٤٥).



١٤ - إن استعراض سند الرواية والتعرف على سلسلة المجيزين يبين كيف أن هذه الأسماء تنتقل من بلد إلى بلد، فيجيز شيخ في الحجاز عن شيخ في الهند، عن شيخ في اليمن، عن شيخ في مصر، عن راوية في العراق، عن عالم في خراسان، فما الذي جمع هؤلاء في هذه السلسلة على تفرق أقطارهم وتعاقب أعصارهم؟ إنها رابطة الرواية، وآصرة العلم.

١٥ - وكما تنوعت أقطارهم وأزمانهم تنوعت مذاهبهم ومناهجهم، فيروي الحنبلي عن الحنفي عن المالكي عن الشافعي، والأثري عن الأشعري عن الماتريدي عن الصوفي، والجامع بينهم سلسلة الرواية ورابطة العلم، ومن أظهر الأمثلة على ذلك أن صحيح البخاري ترويه الأمة من طريق أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الصوفي، وأبي ذر عبد بن أحمد الهروي الأشعري، فرواية الصحيح تعبر من طريق متصوف ومتكلم، بل لا تكاد طائفة تستطيع أن تجرد أسانيد الرواية من رجالها فقط دون أن يخالطهم من يخالفهم.

فهذه الكواكب العلمية المتناثرة في سماء الأمة على تباعد بلدانهم وأزمانهم وتنوع مذاهبهم ومناهجهم يجمعهم حُرمة العلم، ورواية السنة، وبذل الخير للأمة، وحسن ظن بعضهم ببعض، ودعاء بعضهم لبعض، وإن كان بينهم اختلاف في الاجتهادات، وتنوع في المذاهب والآراء، وإذا وجد الخلاف بينهم فإنه لا يتحول إلى خصومة وقطيعة ولكن تبقى بينهم حقوق المسلم، وحسن الخلق، وحرمة العلم، والعلم رحم بين أهله.

وهذا يوسع نظرنا إلى أهل العلم فنقبل منهم على تنوع اجتهاداتهم، وننظر إليهم بحفاوة وإجلال، وما اختلفوا فيه فحسب كل منهم أنه اجتهد في تحري الحق وإصابته.



وَأَنْ تَكُونَ عِلَاقَتَنَا بِهِمْ جَمِيعًا أَهْلَ الْإِيمَانِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

١٦ - كما أن في لقاء الأكابر من الشيوخ تعرفاً على جيل يوشك أن يفارق الزمن، فيتعرف الطالب عند اللقاء بهم للاستفادة منهم على نمط التعلم والسلوك والحال التي كانوا عليها وتلقوها عن شيوخهم، فيؤخذ مع الرواية عنهم شهود حالهم ومن رووا عنه، وبهذا يتوارث أهل العلم الأخلاق والأحوال والسلوك، كما يتداولون العلم.

١٧ - كما أن الاستفادة من الكبار تكون عادة في حال كبر سنهم واكتمال نضجهم العلمي، واستقرار آرائهم وأحوالهم، فيستفيد المتلقي منهم مع إجازتهم تجربتهم وخلاصة مسيرتهم وما انتهوا إليه واستقروا عليه في أمرهم.

١٨ - وفي تنوع شيوخ الإجازة يتعرف المتلقي على أنماط متعددة من أحوال الشيوخ فلكل شيخ طريقته ومسلكه، والناظر في طرائقهم يستفيد اختيار ما يناسبه من أحوالهم، وقد يلفته هذا التنوع إلى حال قد غفل عنها، أو طريقة هي أنسب له لو سلكها، ولذا حث العلماء على الرحلة ولقاء الشيوخ، ليستفيدوا من هذا التنوع، قيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير، أو يرحل؟ قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار، فيشأُّ الناس، ويتعلَّم منهم^(١).

وهذا توجيه من الإمام أحمد إلى أهمية مُشَامَةِ العلماء، أي: التلقي عنهم مباشرة، وأهمية تنوُّعهم، فإن عند كلٍّ منهم ما ليس عند غيره.

(١) «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي (٨٠).

١٩ - ومجالس الإجازات وكتب الإجازة والأثبتات تشمل وصايا المُجيزين لَمَنْ يجيزونهم، وهذه الوصايا هي ذخائر التجربة، ومؤكّدت النصائح وأثمنها، وفيها حصيلة طول العمر وتراكم الخبرة، وطول الصحبة للعلم والتعليم.

٢٠ - وفي مجالس الإجازات التماس بركة دعاء نبينا محمد ﷺ بالنُصرة لَمَنْ سمع فوعى ما سمع، فأدّاه كما سمعه إلى مَنْ لم يسمعه، فهو القائل: «نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»^(١).

٢١ - وفيها التّعرف على الإخوة من طلبة العلم الذين يحضرون مجالس السّماع، وتوثيق الصّلة بهم، والاستفادة منهم ومن خبراتهم، وخصوصاً الذين يأتون من بلدان مختلفة، وهذا غالباً ما يحصل في المجالس الكبيرة، والتي يتوافد إليها الطلبة من أنحاء شتى، كالتي تكون في الحرمين والكويت والشام وإسطنبول وغيرها، وفي ذلك توثيق للأخوة في الله والمحبة فيه، وقد قال الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»^(٢).

٢٢ - تصحيح القراءة على علماء هذا الفنّ، فكثير من الألفاظ العربيّة والنّسب لا تُعرف إلّا من خلال القراءة على الشيخ المتقن، ولا يستطيع الطّالب معرفة لفظه إلّا من خلال السّماع والقراءة على الشّيخ:

فمعرفة لفظ كلمة: ابن دُرُسْتُوهِ، والكُشْمِيهِنِيّ، والسَّرْقُسْطِيّ، والبَطْلَيْوُسِيّ، والتُّشْتَرِيّ، والمَرْوَرُزْدِيّ، وغيرها، وكذا ضبط الكلمات المُشكِلة مثل سلّمة وسلّمة، وسلام وسلام، وقُثم، ونحو ذلك، وضبط الكلمات التي يكثر الخطأ فيها،

(١) و«سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٦٥٦)، «سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٠٣٠).

مثل: «حُمْر النَّعَم»، بإسكان ميم «حُمْر» وليس بضمّها، و«نفث في رُوعي» بضم الراء وليس بفتحها، وهكذا... وتوضيح نُطقها لا يُعرف غالباً إلاّ بالسّماع من الشّیخ، وغالباً تُقرأ بشكل مغلوّط، لأنّ الطّالب لم يقرأها على شیخ متقن.

ففي السّماع والقراءة ضبط للألقاب، والكنی، والأنساب، وأسماء المناطق والقری، وغير ذلك.

٢٣ - ولا يخلو مجلس السماع على العلماء الراسخين من ذكر فوائد أثناء القراءة، أو بيان مشكل، أو إيضاح معنى، بحيث يستفيد المستجيز روايةً ودرايةً، وقد كان الأشياخ يثرون هذه الفوائد أثناء القراءة، وغالباً تكون من النوادر الفرائد، وقد كان شيخنا عبد الله بن عقيل رحمه الله أثناء قراءة صحيح البخاري لا يُخلي القراءة من تعليق وجيز مفيد، هو إفادة، وليس شرحاً، لكنها كلمات قليلات مباركات، فيها الكثير من العلم والقليل من الكلام.

وقد حضرت مجلس سماع للشيخ محمد الحسن الددو، قرئ عليه متن الأربعين النووية، وهي من مشهور العلم ومكروره، ومع ذلك أفادنا بتعليقات علمية محرّرة، وفوائد ثمينة نثرها أثناء القراءة.

٢٤ - قد حفظت لنا الإجازات كثيراً من تراجم العلماء والمشايخ، وجانباً من سيرهم ورحلاتهم وطلبهم للعلم ومناهجهم في الطّلب، ونحو ذلك من الفوائد. وبعد، فهذه الفوائد والذخائر إنما يظفر بها من تحرّرها وتطلبها، وأطال الوقوف عند منابعها والارتواء منها، وليس من أشغله طلب الكثرة حتى ألهاه التكاثر.

وفي الختام فلا بد من إعادة التأكيد على ما يؤكده العلماء المجيزون أن هذه الإجازات ليست علماً ولكنها رسوم لأهل العلم يحيون بها سنن السالفين منهم،



ويتصلون بهم جيلاً إثر جيل، فهي حلية على العالم ولكنها لا تكسب غير العالم علماً، ولذا فينبغي على شدة طلبه العلم أن يجعلوها مُحَفِّزاً لتحقيق ما صار به العالم عالماً، وهو التحصيل العلمي المؤصل، وأن يجعل من السند المنتهي إلى أئمة العلم مدرجة إلى تحصيل علومهم، والترقي إلى علو مراتبهم.

وَألا تتحول الإجازات إلى هدف يقصد لذاته يشغل التكاثر به عن تحصيل أصله، وألا تشغل أشكال العلم ورسومه عن تحصيل أصله وحقيقته.

وينبغي أن لا يكون طالبها مَمَّن جعل همّه الأوّل والأخير جمع الكثير من الإجازات، دون طلب العلم والتربّع بين يدي العلماء، فيكون مَمَّن يتفاخرون بين طلاب العلم بكثرة ما حصّل منها، وينسى أن تحصيل العلم والدّراية، أفضل بكثير من تحصيل الرّواية دون الدّراية، والرّواية وسيلة، والدّراية غاية، فالواجب إذن أن لا ينشغل بالوسائل عن الغايات، وبالإجازات عن العلم والعمل، بل يُعطي كلّ حقّه، ويجمع بينهما، ولا يشتغل بتحصيلها عمّا هو أهمّ منها.

قال السفاريني في إجازته لعثمان الرحباني: «والإجازات لا تفيد علماً، فمن حصّل العلوم، وأدرك منظوقها والمفهوم فقد فاز، وأجيز على الحقيقة لا المجاز، ومن لا فلا، ولو ملأ سَبَتَ^(١) أمّه إجازات».



(١) السَّبَت: سلّة تصنع من الخوص.



وصايا المجيزين

يختم بعض المشايخ المجيزين إجازاتهم بوصايا، وهي من أهم ما يُذكر به طالب العلم في مسيرته، وهي ذخيرة تجربتهم وخلاصة خبرتهم. وتتفاوت هذه الوصايا بسطاً واختصاراً، ولكن يلاحظ تواطؤها على معانٍ مشتركة بينهم، من أهمها:

- ١ - الوصية الجامعة بتقوى الله عزَّ وجلَّ.
 - ٢ - والوصية بالعمل بما علم، واتباع السنة في ذلك.
 - ٣ - والوصية بالمحافظة على الذكر واللهج به.
- ومن هذه الوصايا:



١ - وصية الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ^(١):

قال في إجازته للشيخ محمد بن عمر آل سليم:

فقد طلبت مني الإجازة أن تروي ما رويته عن مشايخي، من أهل نجد ومصر، وقد أجزتك بما رويته عنهم بالإجازة، كالكتب الستة، والفقه في مذهب الإمام أحمد، وغير ذلك ككتب التفسير، ونحو ذلك. وعليك في ذلك تقوى الله، والتدبر والاجتهاد في معرفة المعنى، وصورة المسألة، والمطالعة على كل

ما يرد عليك، واجتهد في العدل فيما وليت عليه من أمور المسلمين، في حق القريب والبعيد، وفي حق من تحب وتكره، فما ظهر لك معناه فقله، وما لم يظهر فكفه إلى عالمه، واستعن بالله وتوكل عليه.

واجتهد في نشر التوحيد بأدلته، للخاصة والعامة، فإن أكثر الناس قد رغبوا عن هذا العلم، الذي هو شرطٌ لصحة كل عمل يعمله الإنسان، من صلاة، وصيام، وحج، فلا

(١) هو حفيد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١٩٣ هـ - ١٢٨٥ هـ)، أخذ العلم عن الشيخ وأبنائه، وعن علماء مصر لما انتقل إليها، وكان عالم نجد في زمانه، ويُنظر في ترجمته وشيوخه وإجازاته: «الإجازة العلمية في نجد» د. هشام السعيد (٥٧٦).



يصح شيءٌ من ذلك إلا بمعرفة معنى الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، على يقين وإخلاص، وصدق ومحبة، وقبول وانقياد، وأن يحب في هذا التوحيد، ويوالي فيه ويعادي، وكل هذه القيود دلّ عليها الكتاب والسنة، فاطلب أدلتها من مظانها تجدها، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



٢ - وصية الشيخ محمد بن سلوم^(١):

كتب إجازة مفصلة للشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور سنة (١٢٤٠ هـ) ختمها بهذه الوصية، فقال:

وأوصيك يا حبيبي بوصية الله تعالى لعباده، ووصية الأنبياء لأممهم، وهي التوحيد والتقوى، فإنها العروة الوثقى، وأن لا تفتي في مسألة حتى تكون منها على يقين، وأن تستعين بالمراجع وكثرة المطالعة، فإنه - كما قيل - سُلِّمَ العلوم، وطريقها لإدراك المنطوق والمفهوم، وأوصيك بملازمة ذكر الله تعالى وقراءة ما تيسر من الأوراد، قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ،

(١) هو الشيخ محمد بن علي بن سلوم (١١٦١ - ١٢٤٦ هـ) ولد في قرية العطار من إقليم سدير في نجد، وطلب العلم في الأحساء والبصرة، وأقام في الزبير، ثم في سوق الشيوخ بالكويت، وبها توفي، يُنظر في ترجمته وشيوخه وإجازاته: «الإجازة العلمية في نجد» د. هشام السعيد (٤٣١).

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ^(١). متفق عليه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»^(٢) رواه مسلم، وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنّا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فسأله سائلٌ من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»^(٣) رواه مسلم، وفي رواية: «وَيُحِطُّ عَنْهُ» بلا ألف، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». أقول: قد نزلت بي شدةٌ عظيمة، ووقعتُ في خطر شديد سنة إحدى وتسعين ومئة وألف، فداومتُ على «لا حول ولا قوة إلا بالله» ليلاً ونهاراً إلى أن يغلبني النوم ففرج الله عني سريعاً، فله الحمد والمنة.

وإذا اشتبه عليك حكمٌ أو حلٌّ عبارة فتبرأ من حولك وقوتك، واطرح نفسك بين يدي الله تعالى معترفاً بالعجز والتقصير، وأكثر من قول «يا معلم إبراهيم علمني»، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يستعمل ذلك ويستعمل «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٤)، قال: فكان يفتح له من العلوم ما الله به عليم، وأوصيك بالمدائمة على ورد «يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث» أربعين مرة بين سنة الفجر والفريضة. قال الإمام ابن القيم في شرح منازل السائرين عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٠٦)، و«صحيح مسلم» (٢٦٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٩٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٧٠).



إن من داوم على ذلك أحيا الله قلبه. ومن الآثار المذكورة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير» مئة مرة، «سبحان الله وبحمده» مئة مرة، وتصلي على النبي ﷺ مئة مرة، وتستغفر الله مئة مرة، ينبغي استعمال ذلك في الصباح والمساء، فإنه يحصل به الخير، ودفع الأسى، وكثرة الأجر والبركة، وانشرأح الصدر^(١).



(١) «الإجازة العلمية في نجد» د. هشام السعيد (٥٤٤-٥٤٥).



٣ - وصية الشيخ جمال الدين القاسمي^(١):

ذكرها في آخر إجازته لعبد الحفيظ الفهري الفاسي، وقال فيها:

هذا وإني أعهد إلى مولانا الأخ - نفعا المولى بدعائه - أن ينشئ مريديه على التمسك بعروة الأصلين الكريمين الكتاب العزيز وصحيح السنة، وأن يرشدهم إلى الوقوف مع الأقوى دليلاً، والأقوم قِيلاً، وإلى عدم قبول واسطة أي فكرة إلا بعد فحص دقيق، وإلى اقتلاع التعصب من أعمال القلوب، فإن التعصب سبب تفريق الجامعة، وجذوة حجب العقول عن الحق، وإلى الولع بمحبة الإنصاف، لأنه يرفع الخلاف، ويوجب الائتلاف، وأن يمرنهم على إثبات المدعى بالبرهان الصحيح الثابت الذي لا يقبل النقض، لتجري نفوسهم في حركة المعقولات، ويحيي فيها قوة التأمل والتعقل حتى تصير ملكة راسخة، وأن يبصرهم بحاجيات الزمان وكمالياته، فإن لكل عصر حاجيات، ولكل طور من أطوار الأمم النامية كماليات، لا بد من استيفائها كلما تدرجت الأمة في معارج الارتقاء،

(١) هو علامة الشام الشيخ جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم، المعروف بالقاسمي نسبة إلى جده (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ) طلب العلم في بلده دمشق، فنبغ وبرع، وكان مجتهداً محققاً، متحرراً من التعصب والتقليد، منقطعاً للتعليم والتأليف، حازما في حفظ وقته، فتجاوزت مؤلفاته أكثر من مئة مؤلف، ولم يكمل الخمسين من عمره رَحِمَهُ اللهُ.



وجرت في ميدان الفلاح والتقدم على السنة الفطرية التي تدور حول محور هذا الكون البديع النظام، وأن يحضهم على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا يسأموا من تكرار الدعوة إلى الحق وموالة الإرشاد إلى السداد، والله المستعان وعليه التكلان.

قاله بفمه وكتبه بقلمه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل القاسمي الدمشقي في (٧) جمادى الأولى سنة (١٣٢٣هـ)^(١).



(١) يُنظر: «إمام الشام في عصره: سيرته الذاتية وإجازاته» للشيخ محمد بن ناصر العجمي (٣٣٤-٣٣٥).



٤ - وصية الشيخ محمد صالح فرفور^(١):

كتب **رَحْمَةُ اللَّهِ** نص إجازته التي يُجيز بها طلابه، فذكر فيها شيوخه المجيزين له، ثم ختمها بهذه الوصية، قال:

فأوصي المجاز المذكور بارك الله فيه بتقوى الله تعالى، والإخلاص في القول والعمل، وبالتواضع لخلق الله تعالى وترك الدعوى، وبالعامل بعلمه قدر استطاعته، وبشره وتعليمه الناس قدر إمكانه، وبمداومته على الإرشاد والتدريس ونفع المسلمين، وبمواظبته على ذكر الله تعالى فإنه صقال القلوب، وبتفريغ القلب مما سوى الله **عَزَّجَلَّ** ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، كما أوصيه باتباع شريعة المصطفى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في الأقوال والأفعال، وتحرير النيات بما يرضى علام الغيوب، وبأن يكون مصدر خير للخلق، وقدوة صالحة لغيره ممن يقتدي به في طريق الله سبحانه، وأوصيه أيضاً بالدأب والاجتهاد على التعلم والتعليم والاستفادة والإفادة،

(١) هو الشيخ محمد صالح بن عبد الله الفَرْفُورِي الدمشقي الحنفي (١٣١٨ - ١٤٠٧) أخذ عن شيوخ الشام: الشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ محمد جعفر الكتاني، وغيرهم، وأسس في دمشق جمعية الفتح الإسلامي ومعهد الفتح الإسلامي، واشتغل بالتعليم، ونهض به، وألف عدة كتب ورسائل، يُنظر في ترجمته وإجازاته: «التحرير الفريد لعوالي الأسانيد» للشيخ عمر بن موفق الشوقاتي.



كما أوصيه بأن لا ينساني من دعواته في خلواته وجلواته، والله تعالى أسأل وبنبيه الكريم أتوسل أن ينفع به المسلمين، وأن يجري على يديه الخير العميم، وأن يرزقه الاستقامة فيما يرضيه **عَزَّجَلَّ**، وأن يجعله سراجاً من سُرج الحق، إنه سبحانه قريب مجيب^(١).



(١) «التحرير الفريد» للشيخ عمر الشوقاتي (١٣١).



مسيرتي مع الإجازات

لم تكن العناية بالإجازة والسماع فاشية في جيلي، ولا الإجازات مشتهرة في نجد ذلك الوقت، مع أنها كانت موجودة عند علمائهم، وبخاصة العلماء أصحاب الرحلات كالشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله بإجازته من علماء مصر، والشيخ سعد بن عتيق، والشيخ علي أبو وادي، والشيخ عبد الله القرعاوي، وغيرهم، بإجازتهم من علماء الهند وغيرهم.

وقد أجاز الشيخ سعد بن عتيق لجمع من العلماء في عصره، كما في كتاب رسائله المطبوع.

ومنهم الشيخ عبد الله العنقري رحمه الله، ومن طريقه أروي مروياته، وممن أجازهم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله كما حدثني الشيخ المعمر محمد بن سعيد رحمه الله، وكان هو الذي كتب الإجازة، وللأخ الشيخ د. هشام السعيد كتاب جامع عن الإجازات النجدية.



لكن لم تكن الإجازة من التقليد العام المنتشر فيها، ولعل من أسباب ذلك ما عرف به علماء نجد من الزهد في الرسوم والأشكال، وما غلب عليهم من التواضع وإيثار خمول الذكر، والتجافي عن الشهرة والاشتهار، ويندر أن توجد إجازة عن أشهر علماء نجد الذين عاصروهم جيلي، وهم الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ ابن جبرين رَحْمَهُمُ اللَّهُ.

ولذا فلم أتوجه إلى الاستجازة في وقت مبكر وإنما توجهت لها متأخراً نسبياً، ففاتني كبار أدركتهم ممن كان يمكنني الحصول على الإجازة منهم، ومن أشهرهم الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي المتوفى سنة (١٤١٠هـ)، وكنت أزور مكة كثيراً وهو فيها، والشيخ عبيد الله الرحمانى صاحب «مرعاة المفاتيح» المتوفى سنة (١٤١٤هـ)، وكان في الهند عندما زرتها عام (١٤٠٦هـ)، والشيخ محمد حسين مخلوف المتوفى سنة (١٤١٠هـ)، وكان في مصر عند ما زرتها عام (١٤٠١هـ)، والشيخ مصطفى الزرقا وكان في الرياض حيث كنت فيها إلى وفاته عام (١٤٢٠هـ)، وغيرهم من كبار هذه الطبقة.

كما لقيت بعض كبار المسندين كالشيخ أبي الحسن الندوي، والشيخ حماد الأنصاري، والشيخ إسماعيل الأنصاري، والشيخ عبد الله بن سعيد اللحجي، والشيخ محمد بن عبد الرحمن بن إسحاق آل الشيخ رَحْمَهُمُ اللَّهُ إلا أنني لم أطلب الإجازة منهم، كما كان لي صلة وخلطة ببعض الأسيخ المسندين ولكن لم أتوجه لطلب الإجازة منهم، ومنهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ بكر أبو زيد رَحْمَهُمُ اللَّهُ؛ فكلاهما من المسندين وكان تناول الإجازة منهما يسيراً، ولكن لم أبادر إليه، ففاتتني الرواية عنهما مباشرة.

- وأول إجازة حصلت عليها كانت من الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في مكة المكرمة في موسم الحج في عام (١٤٠٦هـ) تقريباً.



ثم حصلت على الإجازة من الشيخ حمود التويجري المتوفى عام (١٤١٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ بِثَبْتِهِ إتحاف النبلاء.

ثم جمعت إلى ذلك قدراً صالحاً من الإجازات عن علماء الأمصار الذين كان في لقائهم بركة، وفي حياتهم أسوة، حتى بلغت الإجازات التي تحصلت لي في مسيرة العمر هذه نحواً من سبعين إجازة عن سبعين شيخاً وشيخة.

- وأعلى مشايخي إسناداً هم المشايخ: عبد الله الغماري، وحمود التويجري، وزهير الشاويش، وعبد الله بن عقيل، وعبد الرحمن الملا الأحسائي، وعبد الرحمن بن شيخ الحبشي، وعلوية الحبشي، ومحضار الحبشي، وإدريس بن محمد بن جعفر الكتاني، ومحمد بن إسماعيل العمراني، ومحمد أمين سراج، ومحمد الأمين بوخبزة، وظهير الدين المباركفوري، وأحمد بن أبي بكر الحبشي، ومعوذ عوض إبراهيم الحنفي، وعبد الرحمن بن محمد عبد الحي الكتاني، ومحمد الصديق الروندة، رَحِمَهُمُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُمْ، وأعلى في درجات الجنة نُزِّلَهُمْ.

- وجميع ما أخذته من الإجازات هي من الإجازات العامة وليست إجازات عرض وقراءة، أخذتها لتحصيل الرسم الذي اختصت به الأمة المحمدية.



ثَبَّتَ المجيزين

ثم إني أجزى بما أجازني به مشايخي وهم:

من السعودية:

١ - شيخنا الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل رَحِمَهُ اللهُ، بما في ثبته «فتح الجليل في ترجمة وثبت عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل» من تأليف أخي د. محمد بن زياد التكلة.

٢ - والشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر الملا الأحسائي المتوفي سنة (١٤٢١هـ)، عن شيوخه المذكورين في كتاب: «حياة الشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر الملا»، لسبطه الشيخ مراد بن عبد الله الملا، وكانت الإجازة في (١٤/٨/١٤١٨هـ) باستجازة أخي الشيخ محمد زياد التكلة.

٣ - والشيخ حمود بن عبد الله التويجري رَحِمَهُ اللهُ، وكان ذلك في مستشفى الحرس الوطني بالرياض في مرض وفاته بحضور ابنه الشيخ عبد الله والشيخ سلمان العودة والشيخ عائض القرني وغيرهم وذلك في ٢/٦/١٤١٣هـ بثبته «إتحاف النبلاء»، الذي يروي فيه عن شيخه الشيخ عبد الله العنقري والشيخ سليمان بن حمدان.

٤ - والشيخ السيد إبراهيم بن السيد عبد الله آل خليفة الحسني الأحسائي المتوفى عام (١٤٤٢هـ)، بما في ثبته «الإجازة العلمية الشرعية، بما يرويه السيد إبراهيم آل خليفة الحسني الشافعي الأحسائي عن أسيّاخه لأعالي الأسانيد السنيّة»، وذلك في اسطنبول باستدعاء من شيخنا الشيخ سلمان العودة في (١٨ / ٤ / ١٤٣٨هـ).

٥ - والشيخ د. عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ المتوفى عام (١٤٤٤هـ) بإجازته عن شيوخه الشيخ حماد الأنصاري، والشيخ محمد عاشق إلهي البرني، والشيخ عبد القادر كرامة الله البخاري، والشيخ عبد الله النّاخي، والشيخ إسماعيل بن علي الأكوّ، وكان ذلك في (٩ / ٦ / ١٤٣٨هـ) عند زيارته في بيته في المدينة النبوية.

٦ - والشيخ المؤرخ الأصولي الشيخ د. عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان المالكي المكي بروايته عن جمع؛ منهم: شيخه حسن مشاط بثبته المعروف المطبوع، وصهره الشيخ طاهر الكردي، وغيرهما.

- وللشيخ عبد الوهاب خصوصية بالشيخ حسن مشاط، وكان يقرأ عليه في الحرم المكي وبعض دروسه كانت قبل صلاة الفجر، ورأيت كتابة الشيخ حسن مشاط على عدد من كتبه؛ وفيها: تم بقراءة الطالب عبد الوهاب أبو سليمان.

٧ - والشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن عمر بن عقيل الظاهري، بروايته عن شيخنا عبد الفتاح أبو غدة، وعن الشيخ حماد الأنصاري، والشيخ إسماعيل الأنصاري، والشيخ عبد الحق الهاشمي، وغيرهم مما هو مذكور في إجازته، وإجازة الشيخ تحفة أدبية رائعة، فيها الحديث عن تجربته وتحول آرائه، ووصايا نافعة لطالب العلم مما يجعل قراءتها متعة علمية، وكان ذلك في (٥ / ٤ / ١٤٣٨هـ) في بيته بحي السويدي إجازة لي ولأبنائي.



٨ - والشيخ الأحسائي المعمر الشيخ أحمد الدوغان فقيه الشافعية في الأحساء **رَحِمَهُ اللهُ** المتوفي سنة ١٤٣٤هـ، عن شيوخه الشيخ محمد بن حسين العرفج، والشيخ محمد بن أحمد العرفج، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف العمير، والشيخ عبد العزيز بن صالح العلجي، وسنده في كتاب: «أضواء على الحياة العلمية في الأحساء» لأخي الشيخ د. عبد الإله العرفج، وكانت الإجازة في درسه في منزله بالأحساء بقراءة الشيخ د. عبد الإله العرفج عليه، وبحضور الشيخ سلمان العودة، والشيخ عبد الله القرشي، وكان ذلك في حال كبره وضعفه ولكن كانت القراءة عليه مستمرة.

٩ - والشيخ د. عبد الله بن حمود التويجري، وهو من المعتنين بالرواية والإجازة والسماع، وقد روى قرابة ألف كتاب قراءة أو سماعاً، ويروي عن قرابة مئتين وخمسين شيخاً، ويتم الآن إعداد ثبت موسع لشيوخه ومروياته.

١٠ - والسيد أحمد بن أبو بكر الحبشي (ت ١٤٤٥ هـ)، وقد أجازني بحديث: الراحمون يرحمهم الرحمن، عن الشيخين عمر حمدان المحرسي، والشيخ عبد القادر توفيق الشلبي كلاهما عن أبي النصر، وبحديث المحبة عن الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري اللكنوي وكانت روايته عنهم عام (١٣٦١ هـ) مع والده الشيخ أبي بكر، كما أجازني برواية ما في ثبته المطبوع «طيب الذكر في ثبت وأسانيد أحمد بن أبي بكر» جمع عمر بن محمد سراج حبيب الله، وكان ذلك في اتصال هاتفي به في جدة ليلة الاثنين (٢٧ / ٣ / ١٤٣٨ هـ)، ثم زرته في بيته وجدّد الإجازة بخطه لي، وللشيخ د. عمر بن عبد الله المقبل.

١١ - والشيخ عبد الوكيل بن عبد الحق الهاشمي العمري الهندي المكي، يروي عامّة عن جمع؛ منهم: والده عبد الحق الهاشمي. ومنهم: عبد السلام البستوي، وعبيد الله الرّحمانّي، ومحمّد المنتصر الكتّاني، وشمس الحقّ بن محمّد عبد الحقّ الملتاني، وسلطان محمود، وعبد الله بدهي مالوي، وغيرهم.



وكانت الإجازة في مكة المكرمة في شهر ربيع الثاني سنة ١٤٢٨ هـ.

١٢ - والشيخ أبو تراب الظاهري بثبت أبيه عبد الحق الهاشمي، وبثبته المسمى: «هداية الأحباب بإجازة الشيخ أبي تراب»، وكان ذلك في بيته في جدة على طريق المدينة الطالع، في موسم الحج سنة (١٤٢١ هـ) بصباحة أخي الشيخ د. عبد المحسن العسكر.

١٣ - والشيخ رحمة الله بن عبد الغني الأركاني المدني، المولود في أركان سنة (١٣٤٣ هـ) والمتوفي بالمدينة المنورة سنة (١٤٣٦ هـ)، عن شيوخه وأجلهم: الشيخ حسين بن أحمد المدني الفيض أبادي، وشيخ الأدب الشيخ إعزاز علي الأمروهي، والشيخ محمد إبراهيم البليايوي، والشيخ محمد طيب قاسم النانتوي مدير مدرسة ديونبد في زمانه، والشيخ مهدي حسن الشاهجهانفوري، وغيرهم ممن ذكرهم وذكر شيوخهم في ثبته، وذلك في بيته في المدينة المنورة عام (١٤٣٦ هـ) بحضور الشيخ حامد بخاري، والشيخ سعيد طولة، والأخ عبد الله كابر.

ومن سوربة:

١٤ - الشيخ زهير الشاويش، المتوفي سنة (١٤٣٤ هـ) وذلك في داره في حي الحازمية في مدينة بيروت وقد زرته فيها عدة مرات، وأجازني بمروياته عن مشايخه والعلماء الذين لقيهم وهم كثر، ومنهم: الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، والشيخ عبد الرحمن السعدي، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والشيخ أحمد البنا والد الشيخ حسن البنا، وغيرهم.

١٥ - والشيخ فوزي فيض الله الحلبي المتوفى عام (١٤٣٨ هـ)، بروايته عن الشيخ راغب الطباخ وغيره، وكان ذلك باتصال هاتفني به في تركيا بحضور ابنه تميم شهر ٥



من عام ١٤٣٧هـ، ثم جددت الاتصال عليه في ليلة (١٧ / ٤ / ١٤٣٨هـ)، فأجازني وأبنائي، وأجاز الشيخ سلمان العودة.

١٦ - والشيخ المحدث المحقق د. نور الدين عتر المتوفى عام (١٤٤٢هـ)، وقد زرتة في بيته في حي المهاجرين بدمشق وأهداني بعض كتبه، ولكني لم استجزه حينها، ثم استجازه لي أخي الشيخ د. عمر المقبل أثناء حضوره لمؤتمر الإمام البخاري بالكويت عام (١٤٣٣هـ)، فأجازني بثبته المطبوع.

١٧ - والشيخ محمد بن لطفي الصَّبَّاح الدَّمَشَقِيّ (ت ١٤٣٩هـ)، يروي عامة عن الشيخ محمد صالح الخطيب الدَّمَشَقِيّ بما في ثبته «موجز ثبت الدرر الغالية»، والشيخ ياسين عرفة، وهذا عن الشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ محمد أبي الخير الميداني، والشيخ إسماعيل الأنصاري.

وقد أجازني في يوم السبت (١٦ / ٦ / ١٤٣٧هـ)، وكان ذلك في بيته في حي المروج بشمال الرياض، عن شيخه صالح الخطيب، وعن الشيخ حماد الأنصاري.

١٨ - والشيخ د. محمود الميرة المتوفى عام (١٤٤١هـ)، بما أجاز به شيخه الشيخ راغب الطباخ، وكان قد درسه في المرحلة الإعدادية، والثانوية مادة العروض، وتاريخ الأنبياء، ومادة الحديث، وأجازهم بما في ثبته، وهي الإجازة الوحيدة مع الشيخ، وإن كان لقي أشياخاً كثيراً في مصر منهم الشيخ السماحي، والشيخ مصطفى التازي، والشيخ السيد الحكيم، وكذا لقي في الجامعة الإسلامية جمعاً منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وغيره، وكانت الإجازة في بيته بحي الربوة ليلة الخميس (٢٢ / ٦ / ١٤٣٧هـ).



١٩ - والشيخ المحقق محمد عوامة، وقد زرته في داره في المدينة مراراً وأهداني بعض كتبه وأجازني بإجازة عامة في (٢٠ ربيع الأول سنة ١٤٣٨ هـ)، ثم تكررت زيارتي له بعد ذلك في المدينة، وفي إسطنبول.

٢٠ - والشيخ صالح بن أحمد الشامي برواية مؤلفاته، وذلك في شهر (٤) من عام (١٤٣٧ هـ)، في الجامع الذي نصلي فيه معه بحى النهضة بالرياض.

٢١ - الشيخ نعيم العرقسوسي: عن الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ نور الدين عتر، والشيخ مصطفى الخن، والشيخ محمد يونس الجونفوري، وغيرهم.

٢٢ - والشيخ مجد بن أحمد مكي: وذلك بمروياته الكثيرة عن أشياخه الكثر في إجازة مطولة، عدّد فيها أشياخه من كل بلد زاره أو لقي علماءه، وممن أجازته من حلب: الشيخ محمد زين العابدين جذبة، والشيخ نعمان حبوش، ومن الشام: الشيخ عبد الرزاق الحلبي، والشيخ أحمد نصيب المحاميد، ومن بيروت: الشيخ حسين عسيران، ومن مكة: الشيخ محمد ياسين الفاداني، والشيخ عبد الفتاح راوه، وعبد الله اللحجي، ومن مصر: الشيخ محمد حسنين مخلوف، وللشيخ إجازات كثيرة عن علماء الأمصار سردهم في إجازته، وقد رغبت إليه أن يكتب لقاءاته ومذاكراته معهم، وأحسب أنه لو فعل لكانت ذخيرة حسنة ووثيقة تاريخية وعلمية.

٢٣ - والشيخ مطيع الحافظ بمؤلفاته، ومروياته عن شيوخه المذكورين في ثبته «الكنز الفريد في ترجمة العلامة محمد مطيع الحافظ» من إعداد د. أكرم الندوي، والشيخ محمد زياد التكلة، وذلك في (٧ / ١١ / ١٤٤٦ هـ).

٢٤ - والشيخ د. خلدون الأحذب: إجازة عامة بمؤلفاته ومروياته عن شيوخه، ومنهم: الشيخ محمد ياسين الفاداني، والشيخ عبد الله الغماري، والشيخ عبد الله التليدي، وذلك في (يوم الجمعة ١٣ / ربيع الأول / ١٤٢٢ هـ) وسمعت منه الحديث المسلسل بالأولية..



٢٥ - والشيخ د. محمد مجير الخطيب بروايته عن الشيخ محمد بن كمال الخطيب مدير مجلة «التمدن الإسلامي»، وعن الشيخ القاضي محمد عبد الله آد الجكني الشنقيطي، وعن الشيخ محمد ياسين الفاداني، وغيرهم، وكان ذلك في رمضان من عام (١٤٤٦ هـ).

٢٦ - والشيخ محمد نور الدين الخطيب بروايته عن والده الشيخ محمد صالح الخطيب، وما في ثبت والده المسمى «الدرر الغالية في رواية الأسانيد الدمشقية العالية»، وكان ذلك في (٥ / ٧ / ١٤٤٧ هـ).

٢٧ - والشيخة لطيفة بنت محمد صالح الفرفور بروايتها عن والدها الشيخ محمد صالح الفرفور بما في ثبته «التحرير الفريد لعوالي الأسانيد»، تأليف أخي الشيخ عمر موفق الشوقاتي، وذلك في (١٠ / ١٠ / ١٤٤٧ هـ).

ومن اليمن:

٢٨ - الشيخ محضار بن علوي الحبشي، المتوفي سنة (١٤٢٤ هـ)، وكانت الإجازة في (٢٠ / ٩ / ١٤٢٠ هـ)، باستدعاء من أخي الشيخ محمد زياد التكلة.

٢٩ - والشيخ عبد الرحمن بن شيخ الحبشي، المتوفي (١٤٣٥ هـ)، وكانت الإجازة في ٥ صفر سنة ١٤٢٧ هـ باستدعاء من أخي الشيخ محمد زياد التكلة.

٣٠ - والشيخة علوية بنت عبد الرحمن الحبشي المتوفاة سنة (١٤٢٣ هـ) وكان ذلك في (٢٢ / ٩ / ١٤٢٠ هـ) باستدعاء أخي الشيخ محمد بن زياد التكلة.

والجُشيون الثلاثة يروون عاليا عن أبي النصر محمد بن عبد القادر الخطيب الحسني الدمشقي المتوفى سنة (١٣٢٤ هـ)، بإجازته لآل الحبشي، وهذا من أعلى الأسانيد في وقتنا.



٣١- والشيخ حميد قاسم عقيل، من علماء اليمن، المتوفى عام (١٤٤٠هـ)، وقد زرنه في داره بقرية قريبة من مدينة إب، ووافيناه شيخاً كبيراً عابداً معمرًا، وحدثنا عن أيام الإمامة في اليمن، ولقائهم بالإمام أحمد بن يحيى حميد الدين حين كان ولياً للعهد، وامتحانه لهم بدقائق من المسائل الفقهية، وكان معي في هذه الزيارة أخي الشيخ عمر المقبل وأجازنا جميعاً.

٣٢- والشيخ القاضي محمد بن إسماعيل العمراني المتوفى عام (١٤٤٢هـ)، وقد لقيناه بصنعاء أكثر من مرة، وأجازني مشافهة وكتابة عن مشايخه من علماء اليمن، كالقاضي العلامة عبد الله حميد، والسيد العلامة أحمد بن محمد زبارة، والقاضي العلامة الحسن بن علي المغربي، وغيرهم، وكان ذلك عام ١٤٢٥هـ.

٣٣- والشيخ الحبيب عمر بن حامد الجيلاني الشافعي نزيل مكة المكرمة (المتوفى سنة ١٤٤٧ هـ)، وشيخ الشافعية بها، عن والده الشيخ حامد الجيلاني، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد الله بن سعيد اللحجي، والشيخ أحمد بن عبد القادر السقاف، والسيد علوي مالكي، والشيخ سالم بن جندان، والسيد محمد بن هادي بن حسن السقاف، والشيخ حسن المشاط، وغيرهم.

٣٤- والشيخ علي (صغير) بن علي بن حسن (زوبر) الأهدل الحسيني المروعي، يروي عن جماعة أبرزهم والده، والشيخ عبد الله بن سعيد اللحجي، والشيخ طاهر البركاتي، والشيخ عبد الله بن يحيى الملقب دُهمي، والشيخ المعمر عبد الله مكرم مفتي الحديدة، والشيخ المعمر محمد سليمان الأدرسي، والشيخ حسن مشاط، وغيرهم، وكانت الرواية عنه في (١٧/٨/١٤٣٥هـ).

٣٥ - والشيخ مصطفى بن أحمد بن حسن بن محمد بن عبد القادر القديمي الحسيني، من علماء تهامة اليمن، وروايته عن والده عن محمد بن عبد القادر القديمي عن عبد الرحمن الأهدل، وكانت الرواية عنه في (١٧ / ٨ / ١٤٣٥ هـ).

٣٦ - والشيخ المعمّر جعفر بن محمد السقاف، المولود عام (١٣٣٩ هـ)، بروايته عن مفتي حضرموت عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، والعلامة محمد هادي السقاف، والشيخ محمد علي الحبشي، والشيخ حسن مدعق المكي، وغيرهم.

٣٧ - والشيخ قاسم بن إبراهيم بن حسن بن يحيى بن أحمد بن عبد الله بن علي بن أحمد بن الحسن بن محمد بن الطاهر البحر القديمي الحسيني، عن شيخه شمس الإسلام السيد محمد بن سليمان إدريسي بن محمد بن سليمان (الأوسط) بن عبد الله بن سليمان بن يحيى بن عمر مقبول الأهدل الزبيدي، وعن عبد الله بن زيد المغربي القرمودي الزبيدي، وعن مهدي بن علي المزلم، وغيرهم ممن ذكر في ثبت مروياته: «المرقوم في إجازات العلوم»، و«إتحاف الدهر»، وقد أرسل إلي بالإجازة مع أخي الشيخ أبو مصعب محمد العامري، ثم لقيته في الرياض، وجدّد الإجازة في (١٧ / ٨ / ١٤٣٥ هـ).

ومن المغرب:

٣٨ - الشيخ المعمّر إدريس بن محمد بن جعفر الكتاني ابن صاحب الرسالة المستطرفة المولود ١٣٣٦ هـ، عن والده الشيخ العلامة محمد بن جعفر الكتاني، والشيخ عبد الحي الكتاني، والشريف أحمد الشريف السنوسي، والعلامة محمد بن العربي أشرفي، والعلامة محمد بن محمد بن عبد القادر بن سودة المري، وكذا أجاز بمؤلفاته وخاصة الخريطة القرآنية للمجتمعات البشرية وغيرها، وكانت الإجازة في جمادى الأولى سنة ١٤٢٢ هـ باستدعاء أخي الشيخ محمد زياد التكلة.

٣٩ - والشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رحمته الله، وكان ذلك في مكة في مدرسة دار العلوم في ربيع أبي لهب، في سنة (١٤٠٦هـ) بحضور الأخ منصور المشرف، والشيخ محمود سعيد ممدوح، فأجازني بما في ثبته المطبوع.

٤٠ - والشيخ عبد الله التليدي المتوفى عام (١٤٣٨هـ) بروايته عن الشيخ أحمد بن الصديق الغماري، والشيخ محمد بن محمد الصادق النيفر، والشيخ محمد بن إبراهيم الفاسي المكي، والشيخ العلامة الراوية مسند الحرمين الشريفين المحدث محمد ياسين الفاداني المكي، والعلامة الشيخ عبد الله بن سعيد اللحجي الحضرمي مفتي الشافعية بمكة المكرمة، والعلامة المحقق المطلع المحدث عبد الفتاح أبو غدة، والعلامة المحدث محمد عبد الرشيد النعماني الباكستاني، والشيخة الفاضلة المعمرة الشريفة السيدة فاطمة السنوسية زوجة الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا، وغيرهم من المذكورين في إجازته، وكان اللقاء به في مدينة طنجة في شهر ربيع الأول من عام ١٤٣٨هـ.

٤١ - والشيخ محمد السعيد الجردى الطنجي المتوفى عام (١٤٤٢هـ) إجازة عامة بكل مروياته، مكاتبة منه بخطه في (١٦/٣/١٤٣٨هـ).

٤٢ - والشيخ محمد الأمين بوخبزة المتوفى عام (١٤٤١هـ)، وكان ذلك في منزله في تطوان بحضور ابن أخيه وصحبة الشيخ سلمان العودة بروايته عن الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري، ولما حواه ثبته الكبير المسمى: (البحر العميق في مرويات ابن الصديق)، والشيخ محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، والشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ عبد الحفيظ بن طاهر الفاسي، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وكان ذلك في ٢٢ ربيع الأول من سنة ١٤٢٩هـ.



٤٣ - والشيخ عبد الرحمن بن عبد الحي الكتاني (ت ١٤٤٤ هـ) بسنده عن والده الشيخ عبد الحي الكتاني، وغيره، وكان ذلك في بيته في مدينة فاس بالمغرب عام (١٤٣٣ هـ) بصحبة الشيخ د. محمد عبد الغفار الشريف، و د. محمد السليمان، ثم زرته في شهر (٣) من عام (١٤٣٨ هـ) مع الشيخ سلمان العودة، وكان عند زيارتنا له قد أتم المائة من عمره، وهو بحمد الله على حال من اليقظة والصحة والاستحضار وأجاز لي في هذه الزيارة أيضاً، ولأبنائي جميعاً.

٤٤ - والشيخة الشريفة نزهة بنت الشيخ عبد الرحمن الكتاني الراوية عن جدها أبو الهدى محمد الباقر الكتاني، والشيخ عبد الحي الكتاني، والشيخ أحمد الغماري، والشيخ المعمر التهامي التيجاني، وذلك في دارها بالرباط في (٢/ ٣/ ١٤٣٨ هـ) بحضور ابنها أخي الشيخ حسن الكتاني.

٤٥ - والشيخ العالم المتفنن مصطفى البحياوي، وقد زرته بطنجة مع الابن ناصر في مجلسه اليومي بعد صلاة العصر، وكانت جلسة علمية ماثرة يبهرك فيها الشيخ بتفنه وسعة علمه، ثم زرته مع شيخنا سلمان العودة فصلينا معه الجمعة بجامع الشاطبي واستمعنا إلى خطبته وكانت خطبة رائعة الإعداد، هادئة الأداء، عن نعمة الله بمولد المصطفى ﷺ، ثم جلسنا إليه بعد الصلاة في مجلس ملحق بالمسجد، وفي هذا المجلس أجازني والشيخ سلمان بمروياته وذلك يوم (٢/ ٣/ ١٤٣٨ هـ).

٤٦ - والشيخ المسند المعمر الصديق الرونده المتوفى عام (١٤٤٢ هـ) بما في ثبته «إعلام أهل المودة بمرويات الشيخ الأديب محمد الصديق الرونده»، وكان قد أجازني في مدينة الرباط عند زيارتي له أنا والابن ناصر عام (١٤٤٠ هـ).

٤٧ - والشيخ العلامة الأديب الشريف محمد بن حماد الصقلي الحسيني رَحِمَهُ اللهُ المتوفى في سنة (١٤٣٧ هـ) إجازة عامة عن شيوخه الجواد الصقلي، وابن وهيبة،



وعبد العزيز بن الخياط، والعايد بن سودة، والقاضي العباس بناني، والرحالي الفاروقي، و خليل الورزازي، والشيخ عمر حمدان، والعلامة الفاضل بن عاشور، وغيرهم، وكان ذلك باستدعاء من أخى الشيخ محمد بن أبى بكر باذيب فى (٢٥ / ٨ / ١٤٣٦ هـ).

٤٨ - والشيخ د. محمد حعود التّسماني، يروى عن أكثر من ستمائة شيخ وشيخة، وله أكثر من خمسين مؤلفاً مطبوعاً؛ منها: «إرواء الخلّان بذكر من لقيت وأجازني من العلماء والأعيان في الحواضر والبلدان»، وغيره.

ومن مجيزيه: الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم السّلقيني مفتي حلب، وإدريس بن محمد بن جعفر الكتّاني الرّباطي، وثناء الله بن عيسى خان المدني، والحسن بن محمد بن الصّديق الغماري الطّنجي، وعبد الرحمن بن عبد الحي الكتّاني الفاسي، وعبد الرزّاق الحلبي، وغيرهم.

ومن الجزائر:

٤٩ - الشيخ المجاهد المعمر محمد الطاهر آيت علجات (ت ١٤٤٤ هـ) زرته في داره بالجزائر العاصمة، وقد تجاوز المائة بسنوات وكان حاضر الذهن متابعاً لما يحدث، مستمراً في التدريس والإقراء والشرح للمتّون، وكان حين زيارته قد جاء من العمرة قريباً، وقد أظهر من حسن الاستقبال والتّلفّظ بزواره الشيء العجيب، وكان أيام جهاد جبهة التحرير قاضياً في ناحيته من قبل المجاهدين، وكان ممن أخذ عنهم الشيخ سعيد البحري، والشيخ الحلو عمارة، والشيخ محمد علي طيبي، والشيخ القاسمي، والشيخ سعيد العلوي، والشيخ أحمد بن شليحة اليشكري، وفي تونس أخذ عن الشيخ مصباح والشيخ الفاضل بن عاشور، وقد أجازنا جميعاً بذلك، وذلك في يوم (١٣ / ٧ / ١٤٣٧ هـ).



٥٠ - والشيخ المعمر القارئ أحمد سعيدي الملقب بابن يوسف، إمام الجامع الجديد بساحة الشهداء بالجزائر العاصمة، المتوفى في (١٧ / ٩ / ١٤٣٧ هـ) بما أجاز به الشيخ عبد الرحمن الجيلاني، والشيخ بابا عمرو، والشيخ عمرو الضيف، والشيخ محمد بن شيكو، والشيخ محمد شارف، وكان ذلك عند زيارته في داره في الجزائر العاصمة في (١٢ / ٧ / ١٤٣٧ هـ)، وكان قد كبر وضعف جداً، ثم توفي عن خمسة وتسعين عاماً رَحِمَهُ اللهُ.

٥١ - والشيخ محمد الصالح الصديق، وقد زرته في داره في الجزائر عام (١٤٣٧ هـ)، وحدثنا حديثاً شائقاً عن حياته وذكرياته، وهو خزانة التاريخ وذاكرة الجزائر، تجاوزت مؤلفاته (٢٠٠) مؤلف، وأهداني منها كتاب «مقاصد القرآن» في مجلد ضخمة، ألفه وعمره خمس وعشرون سنة، وقد أرسل لي الإجازة بعد ذلك مع الشيخ د. الطاهري بلخير، وهو يروي عن الشيخ الأزهرى الرزقي الشرفوي الذي يروي عن الشيخ محمد بخيت المطيعي وغيره من علماء الأزهر، كما يروي الشيخ الصديق عن محمد الفاضل ابن عاشور، والشيخ العربي العنابي، والشيخ محمد بوشريّة، وغيرهم^(١).

٥٢ - والشيخ د. الطاهري بلخير الإدريسي بروايته عن مشايخه، ومنهم الشيخ الحسان مداحي التليلاني التواتي، والمحدث نعمة الله السجّاد الهندي، والمحدث فريد الباجي، والعلامة الأصولي عبد الرحمن محمود الأزهرى، والعلامة إبراهيم فال الشنقيطي، وغيرهم.

(١) يُنظر في ترجمته: «الشيخ العلامة محمد الصالح الصديق بأقلام أدباء وشعراء» للأستاذ علي حمادوش.



ومن تونس:

٥٣ - الشيخ الحبيب بن الخوجة، أمين مجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمتوفي سنة (١٤٣٢هـ) عن ٩٢ عاماً رَحِمَهُ اللهُ، وكان ذلك في منزله في مدينة تونس، وهي عندي مسجلة مصورة بروايته عن شيخه الطاهر بن عاشور وغيره، أجازني فيها وللابن ناصر.

ومن ليبيا:

٥٤ - الشيخ محمد الصادق الغرياني مفتي ليبيا، عن شيخه محمد الشاذلي النيفر وغيره، وكان ذلك في مدينة طرابلس الغرب أثناء زيارة ليبيا مع الشيخ سلمان العودة في ٢٠ جمادى الآخرة (١٤٣١هـ).

ومن مصر:

٥٥ - الشيخ الأزهري المعمر معوض عوض إبراهيم الحنفي المتوفى عام (١٤٣٩هـ)؛ إجازة عامة بمؤلفاته وكتبه ومروياته عن العلامة الشيخ علي سرور الزنكلوني المتوفى سنة (١٣٥٩هـ) رَحِمَهُ اللهُ، وبأسانيده التي فصلها فضيلة الشيخ د. أسامة السيد الأزهري في كتابه: «أسانيد المصريين»، ومن جملة أسانيده أنه يروي عن جماعة من العلماء، منهم العلامة الجليل الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري، المتوفى سنة (١٣٠٧هـ)، وهو عن شيخ الإسلام البرهان الباجوري، المتوفى سنة (١٢٧٦هـ)، وهو عن العلامة الأمير الصغير، المتوفى سنة (١٢٤٦هـ)، وهو عن أبيه الإمام محمد بن محمد الأمير الكبير، المتوفى سنة (١٢٣٢هـ)، بأسانيده المذكورة في ثبته «سد الأرب من علوم الإسناد والأدب»، ولقد تلقيت الإجازة بتاريخ: (٢٥ / ٥ / ١٤٣٨هـ) باستدعاء من شيخنا الشيخ أحمد معبد عبد الكريم.



٥٦ - وشيخنا الشيخ المحدث د. أحمد معبد عبد الكريم بروايته عن الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١٣٤٤ هـ - ١٤١٨ هـ)، والشيخ إسماعيل بن محمد بن ماحي الأنصاري (١٣٤٠ هـ - ١٤١٧ هـ)، وغيرهم.

٥٧ - والشيخ د. حسن بن محمود الشافعي لقباً، الحنفي مذهباً، الهلالي نسباً، رئيس مجمع اللغة العربية بمصر، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، عن الشيخ المحدث الحافظ التيجاني، والعلامة المسند علي أحمد السنديلي، والشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الحق نافع كاكاخيل، وغيرهم، وكان ذلك في مدينة الرياض في فندق بشارع العليا عام (١٤٣٧ هـ) بحضور أخي الشيخ حسن الحسين الأحسائي.

٥٨ - والشيخ د. رفعت فوزي عبد المطلب بروايته عن شيخه الحافظ التيجاني، وذلك في مكتبته في مدينة نصر بالقاهرة سنة (١٤٢٩ هـ).

٥٩ - والشيخ العلامة يوسف القرضاوي المتوفى عام (١٤٤٤ هـ)، بروايته عن الشيخ أحمد الغماري والشيخ عبد الفتاح أبو غدة كما في ثبته كفاية الراوي تأليف د. أكرم الندوي، وكان ذلك في رسالة بعثها لي من قطر حين طلبت الإجازة منه، بتاريخ (١٤ / ٦ / ١٤٣٧ هـ).

ومن تركيا:

٦٠ - الشيخ محمد أمين سراج المدرس بمسجد الفاتح بإسطنبول المتوفى عام (١٤٤٢ هـ)، وذلك في شهر ربيع الأول (١٤٣٣ هـ)، بروايته عن الشيخ محمد زاهد الكوثري والشيخ حسن مشاط وغيرهم.



ومن موريتانيا:

٦١ - الشيخ محمد سالم بن محمد علي عدود، المتوفى سنة (١٤٣٠هـ)، وكان ذلك في مكة المكرمة في موسم الحج في (١٤/١٢/١٤٢٨هـ) بحضور ابنه الشيخ محمد عدود، وذلك بإجازاته من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الشاذلي النيفر، والشيخ نعيم أحمد النعيمي الجزائري المقيم بتونس، وغيرهم.

٦٢ - وشيخنا العلامة الأصولي المحقق عبد الله بن بيه عن والده الشيخ المحفوظ بن بيه، والشيخ محمدو سالم ولد الشين. قال شيخنا: وكان نحويًا لغويًا لم أر فيمن رأيت أعلم باللغة منه، والشيخ بية ولد السالك، وبهؤلاء العلماء الثلاثة تخرج شيخنا، وقد أجازني الشيخ وأبنائي مرارًا شفاهها وكتابة على بعض كتبه، وصلتي بالشيخ قديمة أفدت منه في كل مرة ألقاه علمًا وخلقًا وحالًا وسلوكًا، امتع الله بعمره ونفع بعلمه.

ومن الهند:

٦٣ - الشيخ حبيب الله قربان علي المظاهري المتوفى عام (١٤٤١هـ)، زرته في بيته في المدينة المنورة، وأجازني بمروياته عن شيخه محمد زكريا الكاندهلوي، وكان قد صحبه الاثني عشرة سنة الأخيرة من حياته واختص به فيها، وكذا عن إسماعيل الزين الشافعي المكي، والشيخ محمد نمر الخطيب، وغيرهم، وكان ذلك في عام (١٤٣٥هـ).

٦٤ - والشيخ ظهير الدين المباركفوري المتوفى عام (١٤٣٨هـ) يروي عن الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب تحفة الأحوذى والشيخ أحمد الله الدهلوي كلاهما يرويان عن نذير حسين وحسين بن محسن الأنصاري، كما يروي أيضًا عن الشيخ عبيد الله الرحمانى صاحب مرعاة المفاتيح، وغيرهم، وكانت الرواية عنه في (١٧/٨/١٤٣٥هـ).

٦٥ - والشيخ أكرم الندوي نزيل بريطانيا، وهو يروي عن زهاء ألف شيخ سماعاً أو إجازة، ومنهم الشيخ أبو الحسن الندوي، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وغيرهم ممن ذكرهم في كتابه: «الجامع المعين في طبقات الشيوخ المتقنين والمجيزين المسندين».

ومن باكستان:

٦٦ - الشيخ ثناء الله المدني مفتي أهل الحديث بباكستان وهو أكبر تلاميذ الحافظ عبد الله الروبري أجل علماء أهل الحديث في باكستان في وقته، الراوي عن عبد الجبار الغزنوي وحسين بن محسن الأنصاري، وأجازه عامة: أبو القاسم محمد عبده الفلاح، وعبد الحق الهاشمي وقرأ عليه أطراف الكتب، وحماد الأنصاري، وتقي الدين الهاللي، وسمع منه الأولية، وعبد الغفار حسن الرحماني، ومحمد عطاء الله حنيف الفوجياني، وسمع على الشيخ الحافظ عبد الله بن ميان روشن دين الأمرتسري الروبري الكتب السبعة وغيرها بتمامها، ومسلسلات الفضل المبين، ومن أبي الحسن محمد علي بن الحافظ محي الدين عبد الرحمن السلفي العلوي اللكنوي ثم المدني أطراف السبعة، كما في إجازة الرواية المطبوعة المسماة: «تذكرة الجهابذة الدرري في سند ثناء الله المدني»، وكانت الرواية عنه في (١٧/٨/١٤٣٥هـ).

٦٧ - والشيخ محمد بن عبد الله الشجاع آبادي، شيخ الحديث بالجامعة السلفية بإسلام آباد، والمفتي بمركز ابن القاسم الإسلامي في ملتان بباكستان، وذلك في مكة المكرمة في (٢١/١١/١٤٢٩هـ) بصحبة أخي الشيخ عبد الرحمن الفقيه الغامدي. وذلك بثبته: الثبت الهادي في أسانيد الشجاع آبادي جمع وترتيب محمد رفيق الطاهر.

٦٨ - الشيخ محمد تقي العثماني، إجازة عامة بكل ما سمعه من جميع مشايخه في باكستان والهند والبلاد العربية وبكل ما أجازوه به، وكان ذلك في: (٢٠ / ٥ / ١٤٣٨ هـ) في رسالة بعث بها إلي متضمنة الإجازة ورواية الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخين حسن مشاط ومحمد ياسين الفاداني.

ومن أفغانستان:

٦٩ - الشيخ غلام الله رحمتي، من علماء أفغانستان أخذ عن جماعة منهم: والده **رَحْمَةُ اللَّهِ**، والمولوي عبدالقادر البلوشي، والمولوي نجم الدين الكاكري، والمولوي سلطان الكادي البغلاني، والمولوي داد محمد البلخي، والمولوي عبيدالله سليمان خيلي، والمولوي عبدالغفار الكاكري القندهاري، والمولوي عبدالله الأجميدي بكويته بلوسشتان، والمولوي محمد إدريس الكاندهلوي بلاهور، والمولوي رسول خان الهزاروي بلاهور، والمولوي عبدالخالق المارتنكي بسوات، والمولوي أحمد علي اللاهوري، درس عليه التفسير، وكما أجازة عامة الشيخ بديع الدين الشاه الراشدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** أجمعين، وكانت الرواية عنه في الرياض في (١٧ / ٨ / ١٤٣٥ هـ).

ومن الكويت:

٧٠ - الشيخ الباحث المحقق محمد بن ناصر العجمي، عن مشايخه ومنهم: الشيخ عبد القيوم بن زين الله الرحماني، والشيخ محمد إسرائيل الندوي، والشيخ محمد ياسين الفاداني المكي، والشيخ ثناء الله بن عيسى بن إسماعيل المدني، والشيخ محمد بن قاسم الوشلي اليماني، وغيرهم ممن ذكرهم في ثبته: «الإسعاد في مدارج الإسناد» تخريج د. محمد حُود التَّمَسْمَانِي، وكان ذلك في منزله في مدينة الجھراء بالكويت عام (١٤٣٧ هـ).

ومن العراق:

٧١ - الشيخ د. بشار عواد معروف بما أجاز به شيوخه المجيزون، ومنهم: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والشيخ بديع الدين شاه الراشدي المكي، والشيخ محمد مالك الكاندهلوي، والشيخ حمدي عبد المجيد السلفي، وغيرهم.

٧٢ - والشيخ أكرم بن عبد الوهاب الموصللي: المتوفى سنة (١٤٤٦هـ)، وذلك في لقائي به في إسطنبول في (١٥ / ١١ / ١٤٣٩ هـ) في رابطة أئمة ودعاة العراق، وأجازني بما في ثبته المطبوع «نفعي المختصر الجامع لشيخ مسند العراق أكرم بن عبد الوهاب الموصللي».

٧٣ - والشيخ ماهر الفحل بما أجاز به أشياخه: الشيخ حافظ ثناء الله مدني، والشيخ هاشم جميل، والشيخ صبحي بن جاسم البدري السامرائي، وغيرهم.

ومن البحرين:

٧٤ - الشيخ محمد سعيد الحسيني المتوفى سنة (١٤٣٩هـ)، وقد أخذت الإجازة منه عند زيارته في المستشفى في مرضه الذي توفي فيه رَحِمَهُ اللهُ، وأجازني بما يرويه عن شيوخه: الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف البنوري، والشيخ ولي حسن التونكي، والشيخ رسول خان الهزاروي، والشيخ محمد إدريس الميرهطي، وغيرهم.

٧٥ - والشيخ نظام بن صالح يعقوبي العباسي بثبته «البدر التمام في شيوخ ومرويات الشيخ نظام» بتخريج أخي الشيخ د. محمد حعود التسماني.

وتفصيل هذه المرويات عن هؤلاء الشيوخ في الثبث المفصل، والملحق رابطته في آخر الكتاب.

رحم الله مشايخي وأكرم نزلهم، وبارك في الأحياء منهم، وأتم عليهم نعمته وأدام عافيته، وبارك في أعمارهم، ونسأ في آجالهم، إنه سميع قريب مجيب.

ثَبَّتَ المؤلفات

وكما أُجيز بمروياتي فإنِّي أُجيز بمؤلفاتي، وقد يسّر الله لي كتابة بعض المؤلفات، وهي:

١ - قصص نبوية، وهو أول كتاب طُبِع لي، وكان اسمه في طبعته الأولى «لوحات نبوية»، ثم التزمت في بقية طبعاته عنوان «قصص نبوية»، والمنهج فيه ذكر قصة من قصص السيرة الصحيحة بجمع رواياتها وصياغتها صياغة جامعة، ثم الوقوف مع أهم دلائلها، وأُعيد الآن لإصدار الجزء الثاني منه.

٢ - كأنك معه: صفة حجة النبي ﷺ: وقد جمعتُ فيه روايات حجة النبي ﷺ ثم سقتها سياقاً واحداً كثف الصورة وجسّد المشهد، وقال لي بعض من قرأوه: «قرأناه وكأننا نشاهد فلماً مُصَوَّراً»، وقد طُبِع الطبعة الخامسة بتتمة وزيادات.

٣ - اليوم النبوي: برنامج اليوم الكامل في حياة النبي ﷺ، وهو سياق لما كان يفعل النبي ﷺ في يومه من الصباح إلى الصباح، مع ذكر دلالات هذا البرنامج اليومي وما يُستفاد منه، وقد طُبِع الطبعة الثانية أتمّ وأوفى.



٤ - حديث الغدير: وهو سياق لقصة حديث الغدير وبيان فضل عليٍّ عليه السلام ومكانته، ومناقشة حديث الوصية وأنها وصية بعليٍّ لا وصية له، ومناقشة رأي الشيعة في ذلك مناقشة عقلية هادئة، وقد طُبِعَ الطبعة الثانية بإضافات واستشهادات أكثر، وقدم له الشيخ السيد علي الأمين.

٥ - الحياة النبوية، وهو وصف لحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نواحيها المتعددة، يكشف عن حياته صلى الله عليه وآله وسلم زوجاً وأباً وصديقاً وصاحباً، وكيف كانت عبادته ودعوته وذكره، وكيف كانت الرحمة والجمال والحب والذوق... في حياته، وهكذا في قرابة ثمانين عنواناً.

٦ - أماكن نبوية، وهو وصف للأماكن التي كانت ميداناً لأحداث حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة: قباء، والمسجد النبوي، والبيت النبوي، ومكان وموقعة أحد، والخندق، والغابة، ومسجد الراية، مع وصف هذه الأماكن وما جرى فيها، وصورها ومواقعها.

٧ - القبر المقدّس: صفته وتاريخه وزيارته، وهو كتاب عن القبر النبوي وصفته وتاريخه الموثّق، والأخبار الباطلة حوله، وآداب زيارته وفضلها، والطبعة الثالثة منه أتم وأوفى.

٨ - الآثار النبوية: عظمتها ورعايتها وبركتها، وهو عن الآثار النبوية وما بقي منها، ومشروعية التبرّك بها، وأهمية المحافظة عليها ورعايتها.

٩ - ابدأ حياتك الجديدة، وهي رسالة كتبها للمسلم الجديد لتكون بوصلة لحياته الجديدة، أحدثه فيها عن النعمة العظيمة بالهداية، وعلاقته بماضيه وبمجتمعه وهوأياته، وتعامله مع أخطائه إذا أخطأ، ونحو ذلك مما يواجهه المسلم الجديد.



١٠ - سنام الإسلام: نظرات في التجارب القتالية، وهو مراجعة للمواجهات القتالية غير المتوازنة التي لم يُعدَّ لها إلا الحماس والنيات الطيبة، وأنَّ هذا ليس هدي النبي ﷺ في جهاده، ولا شريعة الإسلام في أحكامه؛ فالجهاد شعيرة هي ذروة سنام الإسلام، لها شروطها وضوابطها وأحكامها، ولا بدَّ أن تكون مسبقة بالإعداد الحقيقي لها: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

١١ - السيرة اليسيرة مع الرسول ﷺ في معالم سيرته ودلائل نبوته، وهو كتاب ميسَّر في السيرة النبوية تناسب ترجمته لغير العرب ولغير المسلمين، ويناسب الناشئة وغير المتخصصين، ويركِّز على أهم أحداث السيرة ودلائل النبوة العقلية، وأخلاق النبي ﷺ وشماله.

١٢ - تعرف على القرآن: وهو رسالة مختصرة، كتبتها لغير المسلم أو المسلم الجديد، تعرف بالقرآن وعظمته، مع اختيار سور وآيات توضح الأسس الإيمانية العظمى، لتكون دليلاً إلى معرفة القضايا الكبرى في القرآن، وتشويقاً وتمهيداً لقراءته.

١٣ - الحياة بعد الحياة: رحلتنا من الموت إلى الملكوت، وهو سياق لمراحل حياة الآخرة الخالدة من خلال مشاهد القرآن وصحيح السنة، مع التقديم لذلك بنظرة المؤمن للحياة وما بعد الحياة مقارنةً بنظرة غيره من الحائرين.

١٤ - بداية التاريخ: قصة الهجرة النبوية ودلالاتها، وهو سياق قصصي مفصَّل لإرهاصات الهجرة النبوية وأحداثها وتداعياتها ودلالاتها وعبرها، مع مشاهد مصوَّرة لمواقعها وآثارها.

١٥ - على بصيرة: طرائق للدعوة وتذكرة للدعاة، وهي رسالة عن طرائق الدعوة وأساليبها واستثمار آثارها وتفعيلها، وقد تباعدتُ فيها عن الأسلوب العلمي الأكاديمي،



وقصدتُ إلى استخلاصها من قصص الأنبياء وسيرة المصطفى ﷺ ومسيرة الدعاة وتجارب الحياة.

١٦ - أمّا بعد: في مهارات الخطابة وفنون الإلقاء، وهو كتاب تحدّثُ فيه عن مهارات الخطابة، وبخاصّة خطبة الجمعة، وطرائق الإعداد وفنون الإلقاء، وحرصتُ فيه على الوضوح وذكر الطرائق العملية وثمار تجربتي في الخطابة خطيباً ومستمعاً، ومهارات الخطباء المؤثّرين حتى يكون لخطبة الجمعة وموعظة الواعظ وكلمة المتحدّث جاذبيتها وتأثيرها.

١٧ - سماء الذاكرة، وهو كتاب تحدّثُ فيه عن مسيرة الحياة، وما عرفت ومن عرفت، ووصفتُ فيه ما عايشته من أحوال اندثرت ولم يبقَ منها إلا أخبارها وبعض آثارها، فهو مسيرة حياتي والحياة التي عايشتها.

١٨ - رجالات في سماء الذاكرة، تحدّثُ فيه عن الرجال الذين سعدتُ بصحبتهم، فقد كان من سعادة أعمارنا لقيا رجالٍ هم من نوادر الرجال وعظمائهم كالشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ ابن جبرين، والشيخ أبو غدة، وغيرهم، وصحبتُ أساتذة وزملاء كان لهم أثر في حياتي ومسيرتي، فأفردتُ لذكرهم هذا الكتاب.

١٩ - ذكريات التعلّم وإجازات العلماء، وهي هذه الرسالة التي بين يديك.

وهناك كتب تحت الإعداد منها:

أ - كتاب «أنوار الصحيح» شرح لأحاديث من مختصر صحيح البخاري بطريقة تناسب عامة طلبة العلم وغير المتخصصين، وتركز على ذكر ما يدل عليه الحديث وبخاصة الفوائد التربوية.

ب - كتاب «شجون الحديث» وهو جمع لمقالات متفرقة، وخواطر متنوعة.



ج - كتاب «ورثة الأنبياء» وهي تراجم لثلاثين عالماً من علماء الإسلام على مدى أربعة عشر قرناً، تقدم وقفات مع سيرهم، وليس عرضاً لتراجمهم، وتذكر القواسم المشتركة بينهم، والخصائص لكل منهم.

وهناك كتب لم تكتمل، وكتب ما زالت مسودة، وكتب ما زالت فكرة.

ولها ترتيب في ذهني، ولا أدري عن قدر الله فيّ وفيها، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

ولست بالمكثر في التأليف فما زالت الكتب التي أخرجتها قليلة، والتي أعدها ليست كثيرة.

وأذكر أحياناً في بعض كتبي ما ذكرته في غيره إذا كانت مناسبة حاضرة، وسياق الحديث يفضي إليه، ولا أتحاشى ذلك؛ لأنني لا أفترض أن من قرأ كتاباً سيقروء كاملاً، ولا أن من قرأ كتاباً سيقراً بقية الكتب.

كما أنني قصير النفس في الكتابة فلا أكتب تلك الكتب الطوال ذات المجلدات وإنما هي - في الغالب - كتيبات أشبه بالرسائل، أسأل الله أن يتقبلها بقبول حسن، ويجعلها مما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

وفي الختام أودعك أخي القارئ وأنا أدعو الله لي ولك أن يتم علينا النعمة، ويديم العافية، ويحسن الخاتمة، وأن يجعلنا من المتواصين بالحق والمتواصين بالصبر، والمتعاونين على البر والتقوى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الإجازة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد: فإني بين يدي هذه الإجازة أوصي نفسي ومن أجيّزه بالاجتهاد والمجاهدة في العمل بما نعلم، وأن نكون أول المستفيدين مما تعلمناه، مع الإلحاح بالدعاء أن ينفعنا الله بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا.

كما أوصي نفسي ومن أجيّز بمجاهدة النفس على حسن الخلق عملاً بقول النبي ﷺ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١)، وأن نُشْعِرَ الناس بحبنا لهم وقربنا منهم، وأن يروا من حالنا أننا تعلمنا العلم لنتنفع به وننفع، لا لتكاثر به ونتفاخر، وأن نقدم لهم العلم والدعوة في وعاء من الحب كما قال النبي ﷺ لمعاذ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، فَلَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢).

والمُجِيزُ وإن كان يعلم من حقيقة حاله تقاصره عن رتبة الإجازة ومقام المجيزين من الأكابر أهل الفضل، فإنه يقفو أثرهم ويتشبه بهم، لتبقى هذه الرسوم حية تذكّر بحقيقتها التي هي خصيصة لأمة محمد ﷺ، حيث رُويت سنن نبيها وعلوم دينها بالأسانيد المجودة عن الأثبات الثقات

(١) «مسند أحمد» (٢١٣٥٤)، و«جامع الترمذي» (١٩٨٧).

(٢) «سنن أبي داود» (١٥٢٢)، و«سنن النسائي» (١٣٠٣).

فتشبه بهم اقتفاءً لأثرهم، وإحياء لرسومهم، وتذكيراً بطريقتهم، كما كان بعض المشايخ المجيزين ينشد:

فإذا أجزت مع القصور فإنني أرجو التشبه بالذين أجازوا
السالكين إلى الحقيقة منهجاً سبقوا إلى درج الجنان فجازوا
كما أن في الإجازة عن الأكابر الذين لقيتهم وأجازوني أداء لحقهم،
ومداً لسلسلة الرواية عنهم، فمن أجاز فإنما أجاز ليروى ما أجاز به، فوفاء
لهم وأداءً لبعض حقهم يوم أجازوني أجز بما أجازوا به، ففي ذلك إحياء
لذكرهم، وإمداداً لروايتهم.

كما أن المجيز يرجو ما رجاه من أجازته قبله، أن يذكره من أجازهم بدعوة
صالحة حين ينقطع عمله، ويكون له من الانتساب إلى العلم وأهله بالحب
لهم وخدمتهم نصيباً من كريم بشرى نبينا ﷺ حيث قال: (أنت مع من
أحببت). غفر الله لمشايخي ورحمهم، وأعلى في درجات الجنات نزلهم،
وبارك فيما ورثوا من علم وأثر، وجمعنا وإياهم في جنات ونهر في مقعد
صدق عند مليك مقتدر.

وإني أجز بما أجزت به منهم، وبما ألفته أخي الشيخ.....

سائلاً الله أن ينفعه وينفع به، ويجعله مباركاً حيثما كان، وموفقاً حيثما
توجه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله
رب العالمين.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

يمكنكم تحميل

الثبَتُ الْمُفَصَّلُ لِبِرَوَّيَاتِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الطُّرَيْسِيِّ بِأَبِي الْحَيْثَمِ

إِعْدَادُ

الشيخ د. مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّنْجِيِّ الْمَغْرِبِيِّ



كتب للمؤلف

قصص نبوية



أماكن نبوية



سماء الذاكرة



اليوم النبوي



الحياة النبوية



السيرة السيرة





سنام الإسلام



حديث الغدير



تعرف على القرآن



بداية التاريخ



الحياة بعد الحياة



على بصيرة



القبر المقدس



كأنك معه

صفة حجة النبي ﷺ



إلى أخي وأختي



الآثار النبوية



أما بعد





التواصل مع المؤلف



Website



Email



Facebook



YouTube



Telegram



TikTok



WhatsApp

(+905467723779



Twitter



فهرس الموضوعات

المقدمة	٥
أولاً: ذكريات التعلّم	٩
التصحر العلمي	١١
أطوار علمية	١٦
في حلق العلم	٢٠
أيام الجامعة	٢٥
الدراسات العليا	٢٧
ثانياً: من شيوخ التلقي	٣١
الإمام الأكبر: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز	٣٤
معلم الناس الخير: الشيخ عبد الله بن جبرين	٤٥
شيخ الحنابلة: الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيّل	٥٢
مفتي المملكة: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ	٥٨
أناقة الخُلُق وأناقة الكلمة: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	٦٦
المحدث المجدّد: الشيخ د. أحمد معبد عبد الكريم	٧٩
ثالثاً: من شيوخ الإجازة	٨٥

- ١ - الشيخ حمود بن عبد الله التويجري ٨٧
- ٢ - الشيخ عبد الله الغماري ٩٢
- ٣ - الشيخ عبد الرحمن الكتاني ٩٦
- ٤ - السيد أحمد بن أبي بكر الحبشي ١٠٢
- ٥ - الشيخ رحمة الله الأركانى المدنى ١٠٥
- ٦ - الشيخ محمد الصديق الروند ١٠٩
- ٧ - الشيخ محمد الأمين بوخبزة ١١٣
- ٨ - الشيخ زهير الشاويش ١١٧
- ٩ - الشيخ محمد بن إسماعيل العُمُراني ١٢١
- ١٠ - محمد سالم بن محمد علي عدود ١٢٥
- ١١ - الشيخ محمد أمين سراج ١٢٩
- رابعاً: وصايا في طريق الطلب ١٣٥
- ١ - القرآن أولاً: ١٣٨
- ٢ - الاستعراض الأفقي للسنة: ١٤٧
- ٣ - الامتنان لله بسلوك طريق الطلب: ١٥٠
- ٤ - توطین العبادات في طليعة العمر: ١٥٢
- ٥ - اللهج بالذكر: ١٥٥
- ٦ - عبادة السر: ١٥٨
- ٧ - تحديد الهدف: ١٦١
- ٨ - التأصيل في التحصيل: ١٦٤
- ٩ - الإثراء اللغوي: ١٦٧
- ١٠ - كتب أدب الطلب: ١٦٨



- ١١ — أدب مخالطة العلماء: ١٦٩
- ١٢ — الأقران في المسيرة العلمية: ١٧١
- ١٣ — العطاء المبكر: ١٧٤
- ١٤ — قوّة الإرادة: ١٧٧
- ١٥ — الشخصية النامية: ١٨٠
- ١٦ — اكتشف لياقتك: ١٨٣
- ١٧ — التعامل مع وسائل التقنية: ١٨٥
- ١٨ — اكتساب المهارات: ١٨٦
- ١٩ — تعلّم لغةً أجنبية: ١٨٧
- ٢٠ — منطقة التأثير ومنطقة الاهتمام: ١٨٩
- ٢١ — تجنب الهيشات العلمية: ١٩١
- ٢٢ — تجنب فضول العلم: ١٩٤
- ٢٣ — شهوة تصنيف الناس: ١٩٧
- ٢٤ — الرحمة والرفق: ١٩٩
- ٢٥ — تذوّق لذّة العلم: ٢٠١
- ٢٦ — التنمية البشرية: ٢٠٤
- ٢٧ — العلم للعمل: ٢٠٧
- ٢٨ — اقرأ وإن كنت كارهاً: ٢١٠
- ٢٩ — الالتزام والاستمرار: ٢١٢
- ٣٠ — حفظ الوقت: ٢١٥
- ٣١ — لليوم أهميته: ٢١٩
- ٣٢ — أيام العلماء: ٢٢٣



٢٢٧	٣٣- وصايا العلماء:
٢٢٩	خامساً: الإجازات
٢٣١	نشأة الإجازات وتطورها
٢٤٨	شيوخ الإجازة بين العسر واليسر
٢٥٢	ثمرات الإجازات وذخائرها
٢٦٤	وصايا المجيزين
٢٦٥	١ - وصية الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:
٢٦٧	٢ - وصية الشيخ محمد بن سلوم:
٢٧٠	٣ - وصية الشيخ جمال الدين القاسمي:
٢٧٢	٤ - وصية الشيخ محمد صالح فرفور:
٢٧٤	مسيرتي مع الإجازات
٢٧٧	تُبت المجيزين
٢٩٦	تُبت المؤلفات
٣٠١	الإجازة
٣٠٣	رابط تحميل الثب المفصل
٣٠٩	فهرس الموضوعات



ذِكْرِيَاتُ التَّعَلُّمِ وَأَجَازَاتُ الْعُلَمَاءِ

كان من سعادة أعمارنا لقيا بقايا ذاك الطراز الأول من العلماء، الذين تعلموا على النمط العتيق، يوم كان التعلُّم في حلق العلم وعند أعمدة المساجد جثواً على الرُّكَب، وتعلَّماً بنظام اليوم الكامل، وكانوا امتداداً لأجيال العلماء الأعلام قبلهم، وورثةً أمناء لِعِلْمِ الأئمةِ الربَّانيِّين وسمتهم ونُسكهم.

وقد أدركهم جيلي وقد تضيّفت شمسهم للغروب، فأكرمنا الله بلقائهم وصحبتهم والأخذ عنهم، وسبر حالهم ونَمَطِ حياتهم.

وقد ذكرت سير بعض هؤلاء الأكابر من شيوخ التلقي وشيوخ الإجازة الذين لقيتهم، وبعض طرائقهم في التعليم، وبعض الوصايا في طريق الطلب مما جربته في مسيرتي أو سبرته من أحوال غيري.

ثم تحدّثت عن الإجازات وسُنَّة أهل العلم فيها، وموجزٍ للإجازات التي حصلت عليها والتي أُجيز بها، لعلّي بذلك أؤدي بعض حق مشايخي الذين لقيتهم واستفدت منهم.

عَبْدُ الْوَهَّابِ الطَّرِيفِيُّ أَبَا الْحَيْلِ